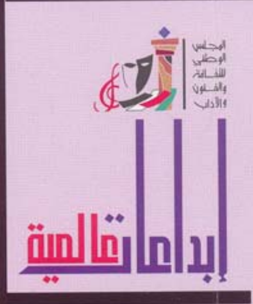


أكتوبر 2015

409

إبداعات نسائية



5.2.2016

مجموعة قصصية

تأليف: مجموعة من الكاتبات التركيات
ترجمة: صفوان عمر الشلبي
مراجعة: محمد حقي صوتشين

إبداعات نسائية
مجموعة قصصية



TÜRK KADIN YAZARLAR ANTOLOJISI

الطبعة الأولى - الكويت
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2015م
إبداعات عالمية - العدد 409

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م
تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني
(1990 - 1923)

Twitter: @ketab_n

إبداعات نسائية



إبداعات نسائية

مجموعة قصصية

تـــألــيـــف: مجموعة من الكاتبات التركيات

تـــرجـــمـــة: صفوان عمر الشلبي

مـــراجـــعـــة: مُحمد حقي صوتشين





تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التنضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

www.nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-464-1

رقم الإيداع: 2015/764

الفهرس

المقدمة

المتابـع لحركـة ترجمـة الأدب التركي إلى العربيـة لا بد أن يلاحظ تناميها نحو أعمال الكاتبات التركيات بعد أن كادت تكون مقتصرة على أدب الكتّاب الرجال، وبدأنا نشهد ولادة جيل جديد مـن الترجمات لأعمال كاتبات تركيـات مثل آيفِر تونْتش وأصلي إردوغان وإيبك تشالِشـلار وأليف شَفَك. مع هذا فمازال العرب يجهلـون الأدب التركـي رغم غزارته ورغـم علاقات الجوار بين الشعبين اللذين يعيشان في البيئة ذاتها، ولديهما عادات وتقاليد مماثلة، إذ إن التوجه التركي نحو الغرب لابد أنه أسهم في أن يكون الابتعاد عن الشرق العربي متبادلا، بالإضافة إلى التاريخ العدائي الناجم عن سيطرة العثمانيين على البلاد العربية لأربعمئة عام.

بدورنـا، يجب ألا نسـتغرب أن القـارئ العربي لا يعرف من الأتراك سـوى عزيز نسين ويشـار كمال وناظم حكمت وأورهان بامـوك، وأن القراء الأتراك لا يعرفون من العرب سـوى جبران خليل جبران وأدونيس وأمين معلـوف الذي تُرجمت أعماله من الفرنسية. فالترجمة من التركية إلى العربية يغلب عليها النشاط الفردي والتطوعي ممن أجاد اللغة.

مـن خلال رصـدي للحركة الأدبيـة في تركيـا الجمهورية، تكشّـف لي ليس الكم الكبير للأديبات فحسب، بل الكيف المميّز في أعمالهن الأدبية ومشاركتهن الكتّاب الرجال، بل حتى التفوق عليهـم بحصدهن العديد من الجوائز الأدبية في مجالات الأدب المختلفة لسنوات متتالية في القرن الماضي والحاضر.

المرأة الكاتبة في الأدب التركي

ما يقال عن دخول المرأة التركية حقل الأدب (الكتابة/ الشعر) من أنه تم في القرن العشرين غير دقيق، فإذا ما بحثنا في تراث الأدب الشعبي وأدب الديوان الذي دام لعدة قرون، فسنلاحظ أن مصدر تراث الأدب الشعبي في غالبيته قد تم إنجازه من قبل النساء؛ مثل التهويدات والحكايات والزجل والرثائيات. كما أن هناك أسماء للعديد من النساء الشاعرات في مجال أدب «العاشق» قد ظهرن قبل القرن الخامس عشر.

أول كاتبة في الأدب التركي ظهرت بعد العام 1908، وبدأت النساء بإثبات أنفسهن في شتى المجالات في الخمسينيات، وفي السبعينيات تلاشى الفرق بين الكاتب والكاتبة سواء بالكم أم بالكيف. لكنّ عدم تأكيد المرأة الكاتبة حضورها إلا مع بدايات القرن العشرين له أسباب وظروف تاريخية، إذ كانت المرأة مسلوبة الحقوق في عهد الدولة العثمانية ومحرومة من التعليم. ولكن بعد ظهور نظام جديد بدأ التحول رغم تأخره.

أوليات الكاتبات في ذلك العهد، إما درسن في بيوتهن بإشراف معلمين خاصين أو درسن في المعاهد التي أقامتها الدول الأجنبية على الأرض التركية، أي كنّ من عائلات ميسورة وغالبا متعلمة. لكن مع إعلان الجمهورية وتطورها، استفادت المرأة أكثر من الخدمات التعليمية وفي مجالات الحياة الاجتماعية الأخرى.

من هنا، وجدت أنه لابد من تعريف القارئ العربي بعدد من مبدعات الأدب النسائي التركي، وكان اختياري لمجال القصة القصيرة كي أتمكن من التعريف بأكبر عدد ممكن من تلك المبدعات، لكنه ليس من باب التصنيف الجنسي لذلك الأدب،

إذ لا يوجد في الأدب الإنساني أدب ذكوري وآخر أنثوي، بل للتأكيد على أن موهبة الكتابة ليست حكرا على الرجل، وأن هذه الموهبة لا تعرف التمييز بين الرجل والمرأة. أما إذا كان الرجل قد سبق المرأة بشكل عام والمرأة التركية بشكل خاص في الكتابة، فلأنه في الوقت الذي كان فيه خريجون رجال من معظم جامعات العالم، كانت المرأة في ذلك الوقت ليست محرومة من التعليم فحسب، بل حتى من الخروج من المنزل.

بعد أن نقل الإصلاح الكمالي (نسبة إلى مصطفى كمال أتاتورك) المرأة من وسط الحريم إلى الوسط الاجتماعي، إذ كان مصطفى كمال أتاتورك يؤمن أن تنمية البلاد الفتية لن تتم إذا لم يتحقق بساعد الرجال والنساء جنبا إلى جنب، وأن لديها نفس الحقوق للعب دور أكثر أهمية في تنمية البلاد. فنالت في عهد الجمهورية حقها في التعليم وحريتها في الملبس والعمل وضُمِن حقُّها في الخروج إلى الشارع من قبل الدولة، كما صدر قانون يُجرّم القتل من أجل الشرف.

في بدايات سنوات الجمهورية كان خيار المرأة لمهن معينة مثل التعليم والتمريض انعكاسا لدور الأمومة، أي أعطيت الدور الثاني في المجتمع، فدخولها مجال العمل كان من مصلحة المجتمع وليس تحقيقا لرغباتها وميولها. لكن عوامل عديدة ساهمت في تفعيل دور المرأة بشكل عام والكاتبة بشكل خاص في المجتمع التركي، ومنها:

- **نشاط الحركات النسائية في عهد الجمهورية:**

مع مرور الوقت، ازدادت نسبة التعليم بين الفتيات ودخلن الجامعات، فنشطت الحركات النسائية، ودعت إلى دخول المرأة

جميـــع مجالات العمل من خلال منافســـات كفاءة، ليس للجنس فيها اعتبار.

رغـــم ظهـــور جمود في الحركات النســـائية مـــا بعد الحرب العالميـــة الثانية، لكن الحياة تجددت فيهـــا بالتوازي مع أحداث الطلاب ابتداء من فرنسا عام 1968 وتأثيرها على العالم بأسره وعلى تركيا أيضا. المنحى الاشـــتراكي لهذه الأحداث وجد صدى في تركيا أيضا، وظهر على الحركات النســـائية أيضا، فاكتسبت الحركة النسائية الهوية الاشتراكية بنحو متزايد، وبدأت الدفاع عن حقوق المرأة العاملة في المصانع والمزارع والمســـتغلة بشـــكل ملحوظ في هذه الحقبة، فظهرت الجمعيات النســـائية بالتوازي مـــع الأفكار السياســـية مثل «جمعية المـــرأة التقدمية» و«جمعية المرأة الثورية»، وذلك لتوعية المرأة بحقوقها.

ســـتينيات القرن الماضـــي كانت مليئة بالتحديات بالنســـبة للمـــرأة التركية الحديثـــة مع ما تحمله من قيم إســـلامية من الماضي وما تحمله من مرحلة الجمهورية من الفكر الكمالي، وما ظهر من الحركات الاشتراكية بعد عام 1960. في تلك الفترة بدأت صورة المرأة الكماليـــة المعاصرة بحاجة إلى إعادة نظر، وفي تطور مواز للمرأة الكمالية المســـتنيرة انتشرت الاشتراكية في تركيا التي تؤمّن هوية سياسية جديدة لها أصبحت واسعة الانتشار.

كاتبات الفترة ما بين 1970-1990 ساهمن بشكل فاعل في نهوض الحركات النســـائية، إذ لم يتوقفـــن عند تلك الازدواجية بين الكمالية والاشـــتراكية وما أعطي لهن دون اختيارهن، فقمن باختيار دور آخر لأنفسهن.

وكما أفــادت د.عائشـــة غول يارامـــان (جامعـــة مرمرة) فالحركات النســائية بدأت بالتشكل، وأخذت مفهومها خلال السبعينيات، واكتسبت أهمية بالتشكيك في القيم الاجتماعية القائمة.

الحركة النســائية في تركيا حسب عائشة غول أثمرت في الثمانينيــات، وفي هذا الســياق وجهت ممارســة الحياة من خلال منظمات نسائية معاصرة مختلفة، وبخاصة في أعقاب الانقلاب العســكري في 12 ســبتمبر 1980 من خلال إعادة النظــر في الأخطاء التـــي ارتُكبت في عمليـــة تطوير الأفراد ونقـــاش المجتمع المدني، بالإضافة إلـــى المؤتمر العالمي الثاني للمرأة في كوبنهاجـــن عام 1980 والقرارات التي اتُخذت في إطار اتفاقية «القضاء على جميع أشـــكال التمييز ضد المرأة»، والتـــي دخلت حيـــز التنفيذ في تركيا فـــي 14 أكتوبر 1985 والتي تشكل بداية المشهد الثاني من الحركة النسائية المدنية.

كما أن منشورات مجموعة يازكو الأدبية والفلسفية (أسسها فـــي الثمانينيات عدد من الكتّاب والكاتبـــات) وما نظّمته من ندوات أمّنّ انتشار الحركة النسائية المدنية.

من ناحيـــة أخرى، أفردت مجلة «يازكو ســـوموت» صفحة للتحدث عن «المساواة بين الجنسين»، وأنشطة «شيرين لَكَلي» وفريقها في الدفاع عن حقوق المرأة، ونشـــاط الترجمة لنادي الكتاب وصدور مجلة «فمينيســـت» عام 1987 في تركيا، كل ذلك مجتمعا ساهم في تطوير الخطاب النسوي.

كما أخذ تأســـيس مكتبة لإبداعات المرأة ومركز معلومات المرأة بعدا جديدا لقضايا المرأة، على اعتبار أن معركتها باتجاه

التحـــرر لا يمكن أن تُحقق الانتصـــار إلا بخوض الصراع إلى جانب الرجل ضد كل أشـــكال التخلف التاريخي والاجتماعي والثقافي.

- القصة والوسط الأدبي لعقد السبعينيات:

عاش المجتمــع التركي في عقد الســبعينيات الفترة الزمنية الأكثر اضطرابا، بما شهده من اعتصامات وإضرابات واغتيالات سياسية، وانتشرت مظاهر العنف والإرهاب على نطاق واسع في جميع المجالات. كما شــهد الانقســـام السياسي الحاد، وانقطاع جســـور التواصل بين اليمين واليســـار وانقطاع الحوار. لا يمكن قطعيا التفكير بأن الحياة الأدبية لم تتأثر بهذا الوسط الفوضوي، وهذا ما حصل، فقد قصرت المســـافة بين السياسة والفن بكافة مجالاته، بل حتى تماثلا.

في هـــذه المرحلة ابتعد الفنانون عــن الاهتمامات الجمالية، وأصبحوا جزءا من الصراع، فاستسلموا للأفكار والشعارات في ظِل تلك المشكلات السياسية.

في الواقع، يكفينا اســـتعراض أسماء المجلات ليتضح لنا جو تلك الحقبة: «رفاق الشـــعب»، «الفن المنشـــود»، «المناضل»، «إلى الغـــد».. كانت هيمنة العقيدة/ الأيديولوجية ســـائدة على الفن. هيمنـــة واضحة للغاية وبلا منازع من الأيديولوجية الاشـــتراكية كانـــت تحكم الأدب. تحت هذه المظلة، كانت الغالبية العظمى من الأدباء تكتب حول مفهوم الواقعية الاشتراكية، وتركّز على توقّعات الصـــراع الطبقي. لقد تعـــاون كل الفنانين على هذه الرؤية، كما يمكـــن رؤية نهج مماثل في كتابات كتّاب القصة في تلك الحقبة. أحـــداث حزيران 1968، انقلاب 12 مارس 1971، الإضرابات،

قمع الدولة، وأحداث الطلاب هي المواضيع الرئيسية في معظم القصص. كما كانت لغة قصة الحقبة حادة وأليمة وغاضبة.

في ظل العيش في هذا المجال السياسـي، نرى الاسـتقطاب الأيديولوجي الحـاد في الأدب، ونرى أن الكاتبـات كما الكتّاب قـد تأثرن بذلك، وبينما كانت عدالت آغا أوغلو وتومريس أويار وفوروزان يكتبن قصصا بالمفهوم اليساري/ الاشتراكي إلى جانب سـليم إلري ونديم غورسـيل وخلقي أكتونتـش، بالمقابل، كتبت سيفينتش تشوكوم قصصا محافظة ومرتبطة بالماضي إلى جانب مصطفى كوتلو.

- المرأة الكاتبة:

تقـول د .إنجي إنجينـون (جامعة مرمـرة): «لا يوجد فصل بالأدب اسـتنادا إلـى الجنس، فالمكان المناسـب في المقدمة لمن يحصـل على النجاح بغض النظر عن جنسـه. مثال ذلك خالدة أديـب أضيفـار (1884-1964) التي تفوقت علـى الرجل، إذ كانت على الجبهة في حرب التحرير إلى جانب أتاتورك، ورائدة أدب مرحلة التنظيمات، ورائدة الأدب النسـائي، وأستاذة الأدب الإنجليزي في جامعة إستانبول وعضو في مجلس الأمة.

لكن مـع ازدياد عدد الأديبات في عقد السـبعينيات بدرجة لا يسـتهان بها ومع ارتفاع وتيرة المسـاواة بين الجنسين سياسيا واقتصاديا واجتماعيـا رؤي التركيز على تحديد جنس الكاتب/ الكاتبة لأسباب مختلفة:

الحجة الأولى: المرأة أكثر رومانسية وأكثر شاعرية، بالإضافة إلى انتقال الراوي من أنا/ هو أو هي، ليصبح أنا/ هو وأنا/ هي.

الحجـة الثانية: تبريـر وجود إبداعي أصيـل للمرأة في فن

الرواية، علــى اعتبار أن التراث كان يُنقل عبر الجدّات أكثر منه عبر الرجال.

الحجــة الثالثة: ظهــور الرجل الكاتب كان مــردّه إلى ارتفاع ســوية التعليم بــين الذكور وحرمان المرأة منه، وبعد أن تســاوى الجنســان بنفس فرص التعليم، تتفوق المرأة بقدرتها على الحكم وتقييم الأمور بما تحمله من صفة الأم والزوجة والأخت.

رغم ذلــك لا يمكن التمييز بين الجنســين فــي كتابة الأدب بالمعنى الحرفي فالأدب خلاصة تجربة إنســانية لا تخص الذكر دون الأنثى ولا الأنثى دون الذكر، مع الأخذ بعين الاعتبار ما يلي:

- المرأة الكاتبة قادرة على تمثيل المرأة بشكل مباشر، باعتبارها من نفس الجنس، بينما الرجل الكاتب، فهو وإن كان يمثلها ولكن بصفته من جنس معاكس.

- المرأة بالنســبة للكاتبة أســاس فاعل، بينما هي بالنســبة للكاتب هدف كامن.

- الكاتبة شاهد مباشر لسيكولوجية المرأة، بينما هي ظاهرة تحتاج من الرجل إلى الاكتشاف والاختراق.

- المرأة بالنســبة للكاتبة نســخة مماثلة عنهــا، بينما المرأة بالنسبة للكاتب شكل من أشكال التجلّي.

- المرأة بالنسبة للكاتبة فرد استثنائي في المجتمع، بينما يرى الرجل أنها، رغم اختلاف أدوارها كأم وزوجة ومعشوقة، امتداد طبيعي للمجتمع.

- دور المرأة الاجتماعي بالنســبة للكاتبــة خيار فردي، بينما دورها بالنسبة للكاتب مجموعة خيارات.

- نقل الكاتبة لحياة المرأة الجنســية تجربة حياتية، بينما هي

بالنســبة للكاتب أمر يحتاج إلى تعلّم وخبرة خارجية تحتاج إلى فك شيفرتها.

مما ســبق نرى أن أديبا ما، سواء أكان رجلا أم امرأة سيكون أكثــر قدرة من غيره على كشــف جوانب معينــة من الحياة عبر معرفتــه الحميمــة أو الخاصة بهــا، مثل قــدرة أورهان باموك على تصوير حَواري إســتانبول وأزقتهــا الداخلية، وهاليكارناس باليكتشيســي على تصوير تقلبات البحر وعوالــم البحّارة فيه، وكذا عوالم المهمشــين والمهووسين لدى سعيد فائِق أباسي يانك وغريــة ناظــم حكمت.. الخ. إن المــرأة الكاتبة ســتكون بالتالي أكثــر قدرة على تصوير عوالم المــرأة وحَواريها الداخلية، وتقلّب أنوائهــا وعواصفها ومعاناتهــا التاريخية.. ولكــن هذا لا يعني للحظة، بالنســبة للإبداع، فلو نظرنا إلــى أعمال الكاتبات مثل نزيهــة ميريتش، ليلى أربيل، ســيفغي سويســال، عِفّت إل غاز، ســيفيم بوراك، فوروزان، تومريس أويار، ســيفينتش تشــوكوم، نازلي إيراي.. ومن جاء بعدهن، سنجد آفاقا جديدة تفتّحت في أعمالهن بالإضافة إلى البعد الأدبي، ويمكن أن نرى أنهن عكسن ســيكولوجية المرأة بالإضافة إلى الســلوك والأحاسيس وترابط الأفكار، وقدّمن تصوّرا لعالــم جديد بمختلف توجهاته. أعطين الأولوية لقضايا المرأة بوصفها مشــكلة اجتماعية، ومثّلن المنطق في التجديد وعرضن التناقضات والتباين في الحياة الاجتماعية إلى جانب العشق والمعاناة في حياة المرأة.

المرأة القاصة:

خلال الفترة ما بين (1910-1990) ظهرت 81 كاتبة قصة من أصل 750 كاتبا وكاتبة، ونشرن 278 مجموعة قصصية من أصل 2760 كتاب قصة، كان أولها عام 1910 عندما نشرت خالدة أديب أضيفار أول مجموعة قصصية لها بعنوان «المعابد المتهدمة»، وكان آخر مجموعة قصصية لتلك الفترة للكاتبة جالى سانجاك بعنوان «نفي الملائكة»، مع الأخذ بعين الاعتبار أن معظم تلك الكاتبات الأوليات في الفترة ما بين 1910-1990 ما زلن يكتبن في المجلات، ويُصدرن الكتب بنشاط، وتُعاد طباعة كتبهن، قد استطعن أن يثبتن أنفسهن في الوسط الأدبي بهويتهن الخاصة، وحصلن على مستوى تفوقن فيه على الكاتب الرجل، وذلك بفضل مساهماتهن الكبيرة في سبر أغوار ما كان للرجل أن يكتشفها. فمنذ صدور جائزة سعيد فائق للقصة القصيرة عام 1956 وحتى عام 2013 حصلت كاتبات القصة على 17 جائزة سنوية من أصل 52 جائزة، ومنذ صدور جائزة خلدون تانر للقصة القصيرة عام 1978 وحتى عام 2013 حصلت كاتبات القصة على 8 جوائز سنوية من أصل 25 جائزة، ومنذ صدور جائزة يونس نادي للقصة القصيرة عام 1946 وحتى 2013 حصلت كاتبات القصة على 13 جائزة سنوية من أصل 20 جائزة. بالإضافة إلى الجوائز في مختلف المجالات الأدبية الأخرى الممنوحة من المجمع اللغوي التركي وجوائز يونس نادي للرواية والشعر والعلوم الاجتماعية والسيناريو وجائزة أورهان كمال للرواية وغيرها من الجوائز الأدبية الأخرى.

باستعراض أدب الكاتبات في تلك المرحلة نرى أن عدالت آغا أوغلو (1929) قد احتلت مركز الصدارة بين أهم الكتّاب والكاتبات، فمجموعاتها القصصية الأولى تعكس مفهوم الاشتراكية والثورية، وتمثل وجهة نظر العالم الاشتراكي في الأدب، كما عرضت تأثير العملية السياسية وما أفرزته على شخصية الفرد من ناحية الانحلال الاجتماعي والاضطراب المعيشي، وبخاصة علاقة الفرد بالعائلة. بينما يمكن تقسيم نشاط بريدة جلال (1915-2013) الأدبي إلى مرحلتين؛ الأولى كانت فيها معظم أعمالها روايات رومانسية ووجدانية عاطفية، وركّزت في النصف الثاني على الحياة الملتوية والفاسدة للبرجوازية التركية. في حين يمكن تقسيم قصة نزيهة ميريتش (1925-2009) إلى ثلاث مراحل؛ المرحلة الأولى كانت العلاقة بين الرجل والمرأة موضوع قصصها الرئيسي، بينما المرحلة الثانية كان الثقل السياسي في المقام الأول، بينما عكست المرحلة الأخيرة المواجهة والصراع الداخلي للفرد. بالإضافة إلى اهتمامها بمشكلات المرأة والطفل فقد كتبت أيضا عن الفوضى والضياع السياسي في سنوات السبعينيات حين عانت تركيا من الصراع الدامي والاغتيالات السياسية بين اليمين واليسار.

أما ليلى أربيل (1931-2013) فقد أسست قصة تحمل صفة الكونية، فقصصها ترتكز على الجنس والأيديولوجية الاشتراكية، والفرد المحاصر من قبل البيئة والمجتمع، وانعدام الشخصية الذاتية، وعجزه عن تحقيق طموحاته، كما عرضت أحاسيس المرأة بالنسبة لمؤسسة الأسرة ومفهوم المجتمع حول الشرف والمجتمع الذكوري، ورفضت بعنف ضعف المرأة. ونرى أن آيهان بوزفرات

(1932-1981) اعتمدت الرمزية والإيحاء بنقد النظام الاجتماعي والصـــراع بلا أمل للفرد المســحوق من أجل لقمــة العيش وهروبه إلى الأحلام لتحقيق ذاته. بينما فــوروزان (1935) تحمل ديناميكية جديــدة، لكنها لا تبتعد عــن حياة الفقراء والمســحوقين، كما أنها تركز على معاناة النســاء اللواتي وقعن في الرذيلة والفتيات اللواتي يغرر بهن وانحلال العائلات البرجوازية والمعاناة من شروط الحياة الحديثة القاســية وصراع البقاء في ظل الفاقــة وتفضح -بهدوء وبصيرة- جور العالم الذي شــيّده الرجال على حساب حقوق المرأة والرجل معا على حد ســواء. وركزت ســيفغي سويســال (1936-1976) على شـــخصية المرأة العاملة وعلى نضالها من أجل تحقيق ذاتها من خلال الكوميديا الســوداء بالســخرية مــن الواقع ونقد المجتمع والعملية السياســية وعلاقة الفرد بالمجتمع، ولم تتردد في نقد أحداث 12 مارس بعد تولي الجيش للســلطة عام 1971. كما أن آيلا كوتلــو (1938) عرضت قضايا المرأة والقضايا المشـــتركة للمرأة في العصــور القديمة والمعاصرة، كمــا عرضت حياة الفرد وبخاصة حياة المرأة الخاصة وعالمها الخفي بنظرية شمولية للحقب القريبة بمنظور تاريخي، واستعرضت حياة المرأة من مختلف الأزمنة والأماكن والطبقات على مر العصور والمصير المفروض.

وكتبــت أويا بايــدار (1940) عن المرأة، وركّــزت على انتقاد سير العملية السياسية والهجرة السياسية القسرية، وعن سقوط المنظومة الاشــتراكية، وكانت أكثر عالميــة في كتاباتها. تومريس أويــار (1941-2003) أيضــا عرضت في قصصهــا مواقفها الأيدولوجيــة، وتناولت حياة المهجرين والفقراء، ولم تتردد بطرح قضايــا التناقضات الطبقية، ولم تتردد باســتخدام مصطلحات

مثل الأجير والاعتصام والحزب والنظام. وعرضت نورسَل دوروإل (1941) عدم استقرار حياة المرأة وعلاقة الفرد وحياته الداخلية والخارجية. وتناولت بينار كور (1945) في قصصها صراع الفرد النفسي المطوق بالوحدة والقنوط وخيبة الأمل وتمرده على الواقع. أما نازلي إيراي (1945) فرغم نشاطها السياسي فإن أدبها يحمل سمات النزعة نحو السريالية. بينما فيزا هيبتشيلينغيرلر (1948) ركزت على علاقة الفرد بالمدينة وبخاصة إستانبول والتناقضات الاقتصادية والاجتماعية، واهتمت بعالمية الصراعات والأعمال الوحشية والإرهاب الدولية.

فريدة تشيتشك أوغلو (1951) التي نشطت في المجال السياسي، ناقشت نزعات الإنسان داخل الحياة الاجتماعية وعدم تحالفه مع ما هو ليس جزءا منه.

ودخلت نالان بارباروس أوغلو (1961) في تصفية للحسابات مع العادات ونمط أشكال الحياة المفروضة. كما عرضت دور الأنوثة والبيئة الأسرية والشعور بالوحدة. وأما إقامة أصلي إردوغان (1967) خارج تركيا لفترات طويلة فقد جعلتها تناقش عالمية حياة المرأة.

أما شِبنِم إشيغوزال (1973) فلم تتجنب السلوك السيئ في الأدب وطرحه في الحالات الأكثر غرابة. تقوم بتعرية الواقع في تركيا وتشريحه، وتكتب عن التناقضات بين العلمانيين والمتديّنين وعن الهوّة التي تفصل بين المناطق الريفية والمدن الكبرى بلغة مستفزة أثارت الرأي العام وواجهت المحاكمة.

بعد العام 1990 عادت القصة إلى نهج المسار الذي وضعه سعيد فائق وأورهان كمال بالحديث عن الأفراد المهمشين الذين

لا نشعر بوجودهم في حياتنا، والذين أُبعدوا جانبا كالمشردين في الشوارع والمهووسين ومدمني الكحول، وعن فقدان الغنى الروحي والصـــراع بين الأجيال وتأثيـــر الحداثة المدمر على الفرد والأسرة والطفولة. وبات الحديث عن الشعور بالوحدة والمواجهة والانطواء من الموضوعات الأساسية، بالإضافة إلى تغيّر أفكار الشباب، وأن الحياة بالنسبة لهم امتحان وتوجههم لإعطاء منحى لحياتهم.

مع ازدياد عدد الأدبيات الشـــهيرات تُطرح أســئلة أمامها علامات استفهام كبيرة: «هل هناك أدب نسائي وأدب رجالي، أم أن الأدب هو أدب إنساني لا رجولية فيه ولا نسوية؟»، «ألا يفضي تصنيف الأدب النســوي والأدب الذكــوري إلى ثنائية ضديــة بين كتابة الرجال وكتابة النســاء وكأن لكل من هاتين الكتابتين بنية خاصة؟».

مختصر القــول، الأدب له أصوله ومفرداته وأدواته الفنية التـــي تختلف في تميّزهـــا من أديب إلى آخـــر، ولا يمكن أن يختلف عند الرجل أو المرأة، والمرأة إنسان ذو موقع اجتماعي واقتصـــادي وذو علاقات إنســـانية بالمجتمع الذي نعيش فيه، ومن هذا الأســـاس تعبّر عن مبادئها وعن رؤيتها إلى الحياة، وهـــي في ذلـــك تتفق مع بعض الكتّـــاب وتختلف مع بعضهم، لذلك لا نســـتطيع أن نطلق اصطلاح «الأدب النسائي» نجمع فيه كاتبـــات مختلفات تماما في الأســـلوب والاتجاه والرؤية الفكريـــة. إذن فـــالأدب يتجاوز تلـــك الحواجـــز والفروقات البيولوجية بين الكاتبة والكاتب، لأنه خلاصة تجربة إنســـانية لا تخـــص الذكـــر دون الأنثى ولا الأنثـــى دون الذكر، والنص

الأدبي بنية بلا هوية جنسية لها، حتى لو كان هناك من يرى عكس ذلك.

في الختام، فقد سعيت أن أنقل معظم مراحل الحركة الأدبية النسوية في مجال القصة القصيرة التركية منذ بزوغها حتى يومنا هذا، فوقع اختياري على نماذج من أعمال إحدى وعشرين قاصّة نلن معظمهن جائزة سعيد فائق للقصة القصيرة حسب سنوات صدورها.

أرجو أن أكون قد وُفّقت في اختياري بإمتاع القارئ وإثراء الباحث بهذا العمل المتواضع، دون إغفال لتلطف الكاتب والناقد الأستاذ نزيه أبو نضال بتزويدي بأعماله المتميزة حول الأدب النسائي، وللملاحظات القيّمة للكاتب والناقد الدكتور سليمان الأزرعي الذي تلطّف بمراجعة مقدمة هذا الكتاب، وللعناية الحانية لزميلي على مقعد الدراسة الكاتب والشاعر الأستاذ حسن ناجي بتنقية المخطوطة من هفوات إملائية ونحوية، فلهم جزيل الشكر والعرفان.

كما أجد لزاما عليّ أن أتقدم بالشكر والتقدير إلى كل من الكاتبتين الرائعتين عائشة كولين ونالان بارباروس أوغلو والفاضلة بهار كييك/ منشورات جان، والسيد فدات بايراك/ المدير العام لمجموعة منشورات ألفا لما قدموه لي من دعم ومساعدة، والدكتور محمد حقي صوتشين على عنايته المخلصة بالمراجعة، وإلى كل العاملين في سلسلة «إبداعات عالمية» لما كان لمساهمتهم وجهودهم الدور الرئيسي في إخراج هذا العمل إلى حيز النور.

صفوان الشلبي

المصادر والمراجع

- Karataş، Evren. Türkiye'de Kadın Hareketleri ve Edebiyatımızda Kadın sesleri.Turkish Studies- International Periodical for The Languages، Litearature and History of Tur - ish or Turic، Volume 4/8 Fall 2009.

-Asan، Nuray. 1950 Sonrası Türk Edebiyatında 1925-1950 Yılları Arasında Doğmuş Kadın Hikaye Yazarları، Hacettepe Üniversitesi Edebiyat Fakültesi Türk Dili ve Edebiyatı Bölümü، 2004.

-Altınova، Banu. Modern Türk'ün Hikayesi، Hece Öykü Dergisi، Sayı:45.

- Güneş، Zeliha. Milli Edebiyatta Roman ve Öykü،Anadolu Üniversitesi Açıköğretim Fakültesi.

-Tosun، Necip. 1970'ten Günümüze Türk Öykücülüğü، Türk Edebiyatı Dergisi، Mart 2007، Sayı: 401، Mart 2007.

-Lekesiz، Ömer. Kadın Öykücüler (1910-1990)، edebistan. com- (15/4/2005).

-19.20.yy Kadın Edebiyatına Ulusöteci Bakışlar Çalıştayı، 22 Eylül 2012، Özyeğin Üniversitesi.

-Kadın Öykücülerimiz Üstüne- Yağmur Dergisi-69- Kasım-Aralık 2013.

- نزيه أبو نضال، حدائق الأنثى، دراسات نظرية وتطبيقية في الإبداع النسوي، 2009.

- نزيه أبو نضال، تمرد الأنثى في الإبداع النسوي العربي، 2004.

- أ.أحلام معمري، إشكالية الأدب النسوي بين المصطلح واللغة، جامعة قاصدي مرباح/ ورقلة- الجزائر.

- أ. علي دغمان، الكتابة النسوية بين التوقيع الجنسي والبحث عن هوية، جامعة محمد خيضر/ بسكرة - الجزائر، 2010

- مفيد نجم، الكتابة النسوية: إشكالية المصطلح التأسيس المفهومي لنظرية الأدب النسوي، مجلة نزوى الإلكترونية، العدد الثاني والأربعون، يوليو2009.
- مهدي ممتحن، شمسي واقف زاده، الأدب النسائي مصطلح يتأرجح بين مؤيد ومعارض، التراث الأدبي، السنة الثانية، العدد السابع.
- د. نهى القاطرجي، الأثر التغريبي في الفن الروائي النسائي، الملتقى الدولي الثاني للأديبات الإسلاميات، عمان، 6/7/2013.

سعاد درويش

SUAT DERVİŞ
1972-1905

ولدت في إستانبول من عائلة برجوازية عثمانية، وتلقت تعليمها في البيت، وأجادت الفرنسـية والألمانيـة. بعثها والدها إلى المعهد العالي للموسـيقى فـي برلين، لكنها التحقت خفيـة بكلية الآداب في جامعـة برلين. بعد عودتهـا إلى تركيا عملـت في الصحافة ونشـرت العديد من التحقيقات الصحافية والروايات في صحف مثـل «آخر بريد» و«الوطن» و«الجمهورية» و«بريد المسـاء». دخلت معترك السياسة بسن مبكرة، واعتقلت وسجنت مرات عديدة مثل كل أصحـاب الفكر اليسـاري في تلك الفتـرة. عملها بالصحافة وبخاصة اليسـارية منها اضطرها إلى الكتابة بأسـماء مستعارة بسبب آرائها السياسية. شاركت بتأسيس رابطة «الكيان النسائي» عام 1930، كما شـاركت بإصدار مجلـة «الأدب الحديث والواقع الاشـتراكي» عام 1940 إلى أن أُغلقت المجلة عام 1941 بسـبب ميولها اليسـارية، واعتقل جميع أفراد أسـرة تحريرها بمن فيهم سـعاد درويش. كتبت من خـلال تلك المجلة العديـد من المقالات والقصص والنقد والشـعر. أصدرت عام 1944 كتيبا بعنوان «لماذا

أنا صديقة للاتحاد السوفييتي» فأُعيد اعتقالها وسجنها أكثر من مرة بتهمة الانتماء للحزب الشيوعي التركي وحتى انتهاء محاكمتها عــام 1953، فســافرت إلى فرنســا في نفس العــام وظلت تتابع نشــاطها السياسي والأدبي من هناك حتى عودتها عام 1963 إلى تركيا، لتشــارك بتأسيس «اتحاد النســاء الثوريات». اعتقلت عام 1971 أي قبل وفاتها بعام واحد لإيوائها شــبابا يساريين مطلوبين فــي منزلهــا. توفيت عام 1972 بعد أن نالت شــهرة واســعة في الوســط الأدبي باعتبارها من رائدات الأدب الاجتماعي الواقعي، بعــد أن كتبت العديــد من المقالات والقصــص وحكايات الأطفال والتمثيليات الإذاعية والمســرحيات والترجمات وأربع عشرة رواية، كما بقي بعض من أعمالها موزعا في الصحف لإحجام دور النشر عن نشــر كل أعمالها في حينه، خشية من التعرض للمساءلة. كما حُوّل العديد من أعمالها للسينما والتلفزيون.

مــن أعمالهــا: الكتاب الأســود (1921)، لا صــوت ولا نفس (1923)، فكرة (1923)، أحمد الإنســان (1923)، طالبو الزواج مــن بهيرة (1923)، ذَنْب فاطمــة (1924)، هل أنا (1924)، ليلة الأزمة (1924)، مثل القلب (1928)، أمينة (1931)، كالممســوس (1934)، لا شــيء (1939)، جفريــة المبهرجة (1968)، ســجين أنقرا (-1968 نشرت أولا في باريس عام 1957 بالفرنسية).

عودة

تنحّت جانبا بعيدا عن التدافع والإزعاج، وأسـندت ظهرها إلى صناديق متراكمة فوق بعضها. نقاب من التول الفضي الشفاف يتدلى من قبعتها ويغطي عينيها، وقفازان من نفس اللون يدثران يديها، وياقة من فراء السنجاب تكاد تغطي معظم وجهها.

قبل قليل، سألت رجلا مسنا عن موعد اقتراب الباخرة من الميناء؟

«بعد نصف ساعة»، تلقت جوابا.

رغم أنه قد مر أكثر من نصف ساعة، لكن الباخرة مازالت تقف في مكانها تحيط بها مراكب وزوارق بخارية صغيرة.

اصفرّ وجهها عندما قرأت البرقية.. حاولت تمالك نفسها كي لا تبدي شيئا لزوجها، مع أن يديه كانتا ترتعشان بشدة عندما ناولته البرقية. نظر عوني مليا بعينين مليئتين بالغيرة والضغينة إلى ما بيديه المرتعشتين. كان هذا التوتر واضحا إلى الحد الذي لاحظته، ثم..

«هل سيقيم عندنا؟» سأل.

«بالتأكيد، أليس كذلك؟» أجابت. «لا أقرباء له هنا سوانا!».

«آآ..».

لم يقل زوجها سـوى «آآ»، وماذا يعنـي بهذه الـ «آآ»؟ لم تفهم صبيحة ما يعنيه ولم تحاول أن تفهم.

وعندما قال: «إذن سأذهب غدا لاستقباله»، عاجلته بالرد: «أنا سـأذهب لاستقباله يا عوني». وبينما كانت تحاول إخفاء انفعالها..

«لا يعرفكَ أنتَ»، أضافت قائلة: «حتى لو كان يعرفك، ألسـت مرتبطا غدا باستشارة طبية؟ لا أريدك أن تهمل مرضاك بسبب أقاربي».

اندفـع زوجها يذرع الغرفة ذهابـا وإيابا، وقد وضع يديه في جيبيـه. كان يذرع الغرفة بتلك العصبية نفسـها، عندما لا يريد إظهار غيرته على صبيحة.

دفعها الحمّال بشـدة وهو يحاول حمـل أحد الصناديق التي استـندت عليها.. رغم ذلـك، لم تظهر صبيحـة انزعاجها، بل نظـرت إلى الرجل مبتسـمة.. كم هي سـعيدة اليوم.. لو وقعت هذه الحركة غير اللائقة، والتي تسبب تلف زينتها، في غير هذا اليوم، لجعلتها أشد غضبا. لكنها اليوم، لم تعر للأمر أية أهمية.

ما كان هناك شـيء يعنيها. لم تكن قادرة على تمييز حشـد الناس من حولها. ما كانت عينها ترى شيئا.

«إنه قادم!» هذا ما كانت تفكر به.. نعم إنه قادم. يعود أخيرا بعد ستة عشر عاما.

هو أيضا الآن هناك على سطح الباخرة، لا شك كان ينظر إلى رصيـف الميناء. ألم يكتب في رسـائله الأخيرة، كم يعطي أهمية لهذا اليوم؟ وصبيحة ألم تخبره أيضا في الرسائل كم تنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر؟

ألم يتراسلا بأحداث غير ذات أهمية، كاتمين ما في قلبيهما من مشاعر ســرية؟ وصبيحة ألم ترتكب إثما وعزاؤها وسلوانها عشقها له منذ أحد عشر عاما؟

عندما ســافر، كانت صبيحة صبية صغيرة بعمر ذاك الصبي في الزاوية المعتمة..

لقد ســافر في يوم شــتوي، ملبّد بالغيوم، لكن بلا ثلوج كهذا اليوم. لقد بكت صبيحة كثيرا وهي تراقب من نافذة البيت المطلة علــى البحر، الباخرة التي أقلتــه. كانت ترتعش كلما تذكرت يوم ســفره.. كان ذلك اليوم، الذكرى الأشــد حزنا فــي حياتها، ولا تنساها أبدا.

كانت صبيحة تفكر بجدوى هذا الكم من المعاملات الرسمية لدخول سفينة إلى الميناء. هذه الباخرة التي تقف بعيدا، ما المانع لو رست تلك الباخرة الراسية بعيدا، مباشرة على رصيف الميناء؟ ما الجدوى من هذه المراكب والزوارق البخارية المندفعة بفوضى وضجيج؟

لو رســت الباخرة مباشرة على رصيف الميناء، لكانت قد رأته الآن بعد أن تاقت لرؤيته منذ ســت عشــرة ســنة بقامته المهيبة ونظراته الســاحرة. لكانت قد صافحت كفيه الضخمتين يداها صغيرتا الحجم إلى الدرجة التي لا تبدوان فيها حقيقيتين.

هل كان ســيتعرف عليها؟ دون شــك ما كان ليتعرف عليها من الوهلة الأولى.. لأنها تغيرت. عندما ســافر، كانت في السادســة عشرة من عمرها. كانت طفلة تركض مؤرجحة جدائلها، مشاكسة، صغيرة الحجم وجاهلة لا تجيد إلقاء التحية.. بينما هي الآن، قد أصبحت سيدة رقيقة واسعة الاطلاع، متزوجة وسيدة مجتمع.

صبيحــــة اكتملت، تبدلت وتغيرت. على أمل اللقاء به في ذلك اليوم، لتثير إعجابه بمحاسنها الجديدة وسعة اطلاعها. لا شك، فدانيال كان ســيجدها امرأة في قمة الكمال. كان سيعجب بها كثيرا. بل يجب أن يعجب بها. كانت تظن نفسها على صواب بما ترغب.

ســتة عشــر عاما، وهي تنتظر هــذا اليوم، تعانــي العذاب والحزن، لكن دون شكوى..

مازالت السفينة واقفة في مكانها. انتشرت من حولها بواخر صغيرة، كأنها فزعت من شيء ما.. قاطرة قادمة من بعيد تقترب من الباخرة.

كانت تشــعر بانفعال شــديد.. وهل كان يراقب هذه القاطرة بنفس الانفعال ونفس المتعة، يا ترى؟

لا شــك فــي ذلك، فهو أيضــا كان منفعلا. لقــد وصف في رســالته، كيف سيكون شــعوره في هذه الدقيقة بشكل جميل.. لقد اســتعادت في ذاكرتها، ليست الرسالة فحسب، بل كل ذلك الماضــي البعيــد. كان دانيال في ذلك الوقت، ما بين الخامســة والثلاثين والأربعين من عمره، تُعجب به كل النســاء ويملن إليه.. أما هي، فقد كانت صبية شقية في السادسة عشرة من عمرها، بشعر أشعث كعش العصافير، ووجه دقيق حرقته الشمس.. رغم أنها كانت تدرك حالها هذه، لكنها كانت تدرك أنها تشــغل ركنا مهما في حياته.

في الواقع، مودة دانيال نحو البنت الصغيرة، أصبحت موضوع نميمة واســعة بين كل النســاء اللواتي لا يملن إلى صبيحة. لأن دانيال كان يتجاهل كل النساء الجميلات بل وحتى رائعات الجمال

منهن، ولا يفارق هذه البنت الصغيرة. كان يقضي جل وقته معها. لقد أصبح صديقا مقربا منها، بحيث يمضيان الوقت سويا، رغم أنه لم يفصح عن عشقه لها، آخذا بعين الاعتبار صغر سنها. كان يؤرجح في الحديقة طيش صبيحة في أرجوحتها، وفي البيت، يقرأ كتب الحكايات للفتاة الصغيرة. وفي المساء، يصطحب البنت إلى غرفتها لكي تنام باكرا، ثم يترك كل النساء ومجالس المرح تلك ليقوم بنزهات في يخته حتى ساعة متأخرة من الليل. وهكذا، فكل النساء الجميلات والخبيثات منهن اللواتي يغرن من حاله هذه، يشرعن بنقل عشقه هذا باستهزاء.

كانت تتابع القاطرة بفارغ الصبر، بينما الحشد يزداد باضطراد.

اتجهت أنظار صبيحة إلى حيث يتطلع الجميع بانفعال. كانت ترتعش قليلا رغم تدثرها بمعطفها الفرائي.

كان آتيا، لا ريب.. الآن، سيأتي.. وسيغدو كل هذا الماضي، وكل تلك الأيام الحزينة في غياهب النسيان.

صبيحة:

«إذا أراد!» فكرت في سرها.

أجل، إذا أراد لكانت ستريه أن صبيحة أصبحت قادرة على فعل أشياء كثيرة. لقد أحبته بحرارة قلب شاب معطاء.

في السنوات الأولى لسفره، كانت تنتظر أن يبادلها نفس الحرارة والوجد في رسائله.

لكنه بعد سفره، كانت رسائله كرسائل أحد الأقارب. بعد عدة سنوات، مع مضي الأيام، تباعدت الرسائل، تباعدت حتى انقطعت، انقضت سنتان مذ لم يصلها منه أي خبر.

عزت صبيحة ذلك إلى علاقة بنساء أنسته إياها، فشعرت بالضغينة والإهانة، إلى حين أن تعرفت على عوني وهي تمر بحالة من الغيرة والفؤاد الكسير. أحب عوني صبيحة ورغب بها، فتزوجته.

لو.. لو لم تتلق رسالة تهنئته بزواجها، تلك التي تحمل مشاعر حزن، ربما كانت ستتسى كل شيء مع مرور الوقت. كلا، ما كانت لتنسى، ولكانت ستقابل مشاعر زوجها بمثلها، وتولي حبه شأنا أكبر، لمجرد الشعور باليأس من دانيال والسخط عليه. لكن تسلمها بعد شهرين من زواجها رسالة من دانيال بالتهنئة، وما كتبه عن دهشته لبلوغها عمرا يؤهلها الزواج وتبرمه من تعاسة حياته:

«حياتي فارغة، فارغة جدا، وأشعر أني قد أضعت سعادة كبيرة، كبيرة جدا».

ظنت صبيحة أنها هي هذه السعادة الكبيرة الضائعة، أو هذا ما أرادت تصديقه.

أخيرا، سحبت القاطرة السفينة حتى رصيف الميناء.. زحام شديد على الرصيف.

كانت صبيحة تنظر إلى السفينة وكل جسدها يرتعش. ستنتهي أخيرا، كل الآلام وكل المعاناة. لقد عاد، وهما متفاهمان. منذ أحد عشر عاما، كانا متفاهمين، رغم عدم مكاشفتهما بعضهما في الرسائل التي تبادلاها.. وعندما كتب «سأعود» في رسالته، أرادت صبيحة أن يضيف جملة «سنكون سعيدين».

لم يكن هناك أية أهمية لهذه الرسائل البريئة المضمون. شعر عوني طوال حياته، بتعلق زوجته بشخص آخر، وأدرك جيدا أن

هذا الشــخص قريب يكتب رسائل من بلاد بعيدة، ورغم أنه كان يطّلع على كل تلك الرســائل، لكنه لم يحاول التعمق بما قد تعنيه من تصرف مشين. لم يكن يمنع زوجته من قراءتها، ورغم غيرته طوال أحد عشــر عاما، لكــن الغيرة من رجل غائب منذ ســتة عشــر عاما أمر مضحك. ظلت صبيحة غير مبالية بأسى وكرب زوجها، ولم تحاول التعايش مع واقع حياتها وزواجها.

كلما اقتربت السفينة، كان حبها يتأجج بجنون. لقد أحبته منذ ستة عشر عاما.. أحبته طوال ستة عشر عاما من عمرها، بهيام وقلب لجوج. ما كان سواه من أمل، إذ وهبت شبابها وحياتها لهذا الحلم.. هكذا أحبت دانيال، ولم تحب سوى دانيال.

أين هو؟ كانت صبيحة تنظر إلى ســطح السفينة. الحمالون يتدافعون حولها.. حشــد من الناس يركضون بصبر نافد ومزاج حاد. تجدّ صبيحة بالبحث، لكنها ما كانت قادرة على رؤية دانيال وسط هذا الحشد.. أين يمكن أن يكون؟ الركاب يلوحون بأيديهم لأقربائهــم وأصدقائهــم القادمين لاســتقبالهم، وهــم بدورهم فرحون بلقــاء المســافرين العائدين، يتضاحكــون ويتصايحون وينادون. الحمالون المتســلقون على الحبال.. يتدافعون ويشقون طريقهم بصعوبة. كانت صبيحة تنظر وهي واقفة في حالة ذهول وانفعال.

كان جميع من على الســفينة في هــرج ومرج، إلا رجلا بدينا ومســنا من بين الركاب ينظر بحيرة، وقد أمال قبعته إلى الخلف قليلا كاشفا عن رأسه الأصلع. عيناه كانتا تبحثان عن أحد ما.. وبينما كانت تبحث عنه بنظراتها، وقعت عيناها على ذلك الرجل المسن. تلاقت نظراتها مع نظرات ذلك الرجل المسن.

وكأن قلــب صبيحة توقف لثانية عــن الخفقان. كانت هاتان العينان تشــبهان عينيه إلى حد بعيد، لكن من المستحيل أن يكون هو. لا شــك أنه قــد تغير وهرم أكثــر، وازدادت تجاعيد وجهه عمقا.

اقتربت صبيحة أكثر نحو الســفينة، تركت يداها المرتعشتان ياقــة معطفهــا. الرجل البدين الضخــم ذو المعطف المطري قام بحركة آنية ولوّح بيده لصبيحة.. ضيقت صبيحة عينيها وأمعنت النظر.. هــذا الرجل العجوز، الذي تطفــح الحيوية من وجنتيه البدينتين اللامعتين، ابتسم لصبيحة.. تعرّفت صبيحة على هذه الضحكة باندهاش.

يناول الرجل الســمين الحمّــال حقائبه باهتيــاج، ويندفع باضطراب نحو الســلالم. ينزل، وبينما هو ينزل كان ينظر بوجه ضحوك نحو صبيحة..

فكرت صبيحة بكل شــيء، لكنها تتذكر ما للسنين من قدرات عبثيــة غــدارة وهدامة. كانــت تنظر إليه وتجيب على أســئلته متلعثمة، وقد شــعرت بقشــعريرة، جعلتها ترتعش حتى النخاع. كانــت مشوشــة الذهن، كأنهــا تلقت ضربة قوية على رأســها، وركبتاهــا ترتعدان كأنها منهكة. كل شــبابها، وكل أحلامها، كل ماضيهــا انهدم وانهــار.. هل هذا الرجل هو الــذي أحبته منذ ســنوات؟.. غير ممكن، فكرت في سرها، لكنه أصبح ذلك. لقد حرمت نفسها منذ سنوات، من كل متعة وكل سعادة من أجل هذا الرجل الأصلع ذي الكرش الكبير. لقد أصبح زوجها مكتئبا حاد الطباع لغيرته من هذا الرجل. قضت على حياتها من أجل ذلك؛ كل عمرها..

يا للسخرية.. شـعرت صبيحة برغبة بالضحك وبالبكاء في آن معا..

عندما جلس في العربة، كان يمسـح قطرات العرق المتجمعة علـى جبينه.. لقد عانى كثيرا ليصعد العربة دون أن يثني قدمه المصابة بالرثية.. قال سـاعيا إبداء الأعذار للمرأة الشابة التي أحبها في الماضي بجنون وأحبته كثيرا:

«أنا مصاب بالروماتيزم..».

وبينما كانت تنظر إلى حلمها الذي انتهى وانطفأ في عينيها، أضاف قائلا باستسلام حزين:

«الكبر يا صبيحة! لقد مضى ستة عشر عاما كاملا لم نلتقِ..».

ردّت صبيحة بابتسامة ماكرة، ابتسامة شبابية متبجحة خبأتها بياقتها الفرائية، ثم قالت بصوت قطع كل علاقته بالماضي:

«دع عوني يعالجك! لقد عالج العم شكري أيضا».

عمها شكري.. أرخى الرجل العجوز قبعته حتى عينيه.. نظر بعينيه العجوزتين إلى باب صالة الجمارك وإلى الازدحام.

شعر بالندم لمجيئه.. انطلقت العربة..

بريدة جلال
PERİDE CELAL
1915-2013

ولدت في إستانبول، وبدأت تعليمها في مدارس سامسون، ثم عادت إلى إستانبول لتكمل تعليمها الثانوي في المدرسة الفرنسية، بعد أن أمضت معظم طفولتها في الأناضول. عام 1944 سافرت إلى سويسرا لتعمل مساعدة في المكتب الصحافي في السفارة التركية في بيرن. وبعد عودتها إلى تركيا عملت في الصحافة الحكومية والخاصة ودور النشر.

بدأت الكتابة في سن مبكرة، ونشرت أولى قصصها «البنت البيضاء» عام 1935 في أسبوعية «يدي غون». تابعت نشر قصصها وتحقيقاتها الصحافية ورواياتها في الصحف مثل «آخر بريد» و«الجمهورية» و«تان» و«ميلليت».

يمكن تقسيم نشاطها الأدبي إلى مرحلتين: المرحلة الأولى ما نشرته في الصحف والمجلات في بداية حياتها الأدبية، ولم يكن سوى روايات غرام وقصص رومانسية، المرحلة الثانية ما كتبته في النصف الثاني من حياتها الأدبية، وقد امتازت أعمالها في هذه المرحلة بالتركيز على الحياة الملتوية

والفاسدة للبورجوازية التركية بأسلوب عالي الرقة والمشاعر والواقعية.

من أعمالها في مجال الرواية: الشعلة المنطفئة (1938)، مطر الصيف (1940)، الفتاة الأم (1941)، أنا لم أقتل (1941)، الباشق (1944)، ولادة عشق (1944)، القمة الأربعون (1945)، الطريق الضيق (1949)، قصة ثلاث نساء (1954)، الغرفة الأربعون (1958)، نور في طرف الليل (1963)، أغنية الخريف (1966)، من يوميات امرأة متزوجة (1971)، الذئاب (1990)، العشق المجنون (2002).

ومن أعمالها في مجال القصة القصيرة: جاكوار (1978)، موت سيدة (1981)، صراع الحصص (1985).

أصدر الكاتب سليم إلري عام 1996 بمشاركة ستة عشر كاتبا، كتابا بعنوان «جائزة لبريدة جلال» تقديرا لها ولدورها المهم في الأدب التركي الحديث.

نالت عام 1977 جائزة سدات سماوي الأدبية عن روايتها «أربع وعشرون ساعة».

ونالت عام 1991 جائزة أورهان كمال عن روايتها «الذئاب».

الهاربة

البنت تقف أمام النافذة.. في الخارج، الهواء كان بلون رمادي خانق، يجثم فوق المدينة. الساحة، حيث يلعب الأطفال الكرة في الأيام غير الماطرة، أصبحت مستنقعا وحليا. على الطريق الإسفلتي المتشقّق والهابط في أنحاء متفرقة منه، أعقاب سجائر رميت من العربات، أوراق قذرة وأكياس من النايلون المتسخة كانت تتطاير بفعل الريح. قطة سوداء هزيلة، متمددة عند آخر عتبة من درج البيت الحجري، تربض هناك دائما، تأكل بقايا الطعام الذي تضعه أمها أمامها كل مساء، تلعق وتلعق، ثم تنسحب وتذهب. «لعنكِ الله!» قالت البنت، دون أن تُسمع أمها. كانت تنفر من القطة السوداء والشارع القذر والساحة مستنقع الوحل.

أمها، في الخلف، كانت تخيط الملابس التي سترتديها في رحلة المدرسة، الأسبوع القادم، وقد وضعت ماكينة الخياطة فوق طاولة الطعام. بانت على شفتيها ضحكة شريرة. «إذا ما كنتُ هنا الأسبوع القادم!» قالت. وثب قلبها فرحا، ولفّت كل جنباتها رعشة ممتعة تشبه رعدة الخوف. خلفها صوت طرطقة الماكينة. «هيا!.. هيا!.. هيا!» كانت تقول. أمس في الصف قالت بصياح: «لقد سئمت من وجوه المعلمين المقطبة، والعلامات السيئة،

ورائحة المراحيض!». «ألســتِ أنتِ من لا تعرفين الخوف، ألستِ أنتِ من إذا ما هب على عقلك أي شــيء تدوســين على أكثر ما تحبــين وتمضين!.. هيا» كانت تحدث نفســها، «اجمعي جرأتك وامضــي من الغرفة. اليوم هو هــذا اليوم!». وخرجت البنت من الغرفة.

صعدت الدرجات بهدوء، دخلت غرفتها، ســحبت درج خزانة الملابــس؛ ملابس داخليــة وجوارب ومِشــدّات صــدر صغيرة متســخة، جميعها فــي حالة فوضى.. كانت أمهــا تغضب كثيرا من إهمالها. لكنها بعد الآن لن تغضب. فكّرت بحقد، ســأجعلهم يندمــون. أخذت حقيبة الكتــف التي كانت ملقاة فــي الزاوية، وأفرغت كتب المدرســة، وضعت في داخلهــا بعضا من الملابس الداخليــة، وبعضا من التيشــيرتات، والأثير إلــى قلبها بنطالها الأحمــر القصير الــذي يلتصق بعجيزتهــا، وصندلها. أخرجت علبة شــوكولاته كانت قد خبأتها بين الملابس الشتوية في الدرج الأسفل من خزانة الملابس. في داخلها، رزمة من النقود الورقية، وضعتها في محفظة نقودها. منذ أشــهر لم تأكل ولم تشــرب، جمعت مصروفها اليومي للمدرسة. كانت نقودها كافية للطريق وللأيــام الأولى. ســتبحث هناك عن عمل. قالــت صديقتها إن ذلك ســيكون سهلا. تمتلئ المرافق الســياحية وتفيض بالطلاب صيفــا. البنات المقبولات الجمال مع قليل من إجادة لغة أجنبية، حظهن أوفر. صديقتها، ذهبت مــع مجموعة في بداية الصيف إلى الجنوب. روت في المدرسة، عن الأيام التي أمضوها في قرية الساحل، وعن ليالي بودروم. امتلأ قلب زميلاتها بالغيرة. «الدور الآن عنــدي»! قالت البنت متبســمة. علّقت حقيبتها على كتفها،

خرجت من البيت بهدوء، نزلت الدرج متسللة كقطة، بهدوء ردّت الباب واندفعت إلى الشارع.

كانـــت تعلم جيدا من أين ســـتحصل على التذكـــرة، ومن أين ستصعد الحافلة الصغيرة. ستفعل كما أوصتها صديقتها: يجب الذهاب أولا إلى مكتب الخدمات في كاديكوي. ســـتأخذ التذكرة من هناك، ســـتخرج إلى الشارع عبر الأزقة الخلفية كي لا تلتقي بأحد يعرفهـــا. فكّرت بذلك منذ أيام وخططـــت له. كانت تعلم جيدا ماذا ستفعل، من أين وإلى أين ستذهب. سيصابون بالحيرة، هذا ما فكرت به. أمها، أكثر من ســـيصاب بالحزن لأجلها. «فتاة صبيـــة مفقودة»، «هـــل اختُطفت؟ هل قُتلت؟» لـــم تكن تريد أن تنشر الصحفُ مثل تلك الإشاعات؛ ذلك سيكون فضيحة. كانت ستهاتف أمها فور وصولها، لعل من الأنسب إرسال برقية. «ماذا أقول؟» فكّـــرت قائلة: «أنا بخير، أعمل، لا تقلقوا من أجلي، هنا مكان رائع». أقوال من هذا القبيل.. أبوها ما كان يعنيه أي شيء، عصبي مثل كل الآباء، رجل منهك، يصيح لأتفه الأسباب..

قـــررت ركوب حافلة صغيرة تقلّهـــا أولا إلى هارِم. «تأخذين تذكرتـــك من محطة الحافـــلات. يبدأ المنـــادي بالنداء، تجدين الحافلة بكل يسر وتصعدين» قالت صديقتها. توجد قمرات على جانبـــيّ الحافلة، يضعون الحقائب داخلهـــا. لكن حقيبتها كانت خفيفة إلى الحد الذي يمكن إبقاؤها إلى جانبها.

صعدت الحافلة وهي تأرجَـــح حقيبتها على كتفها. قررت أن تجلـــس إلى جانب النافـــذة. قلبها كان يخفق بســـعادة.. لم تكن خائفـــة، كانت تعلم بأنها ســـتنجح وأن كل شـــيء ســـيتم كما خططت له. عندما تنطلق الحافلة، سيقدمون الكولونيا للركاب،

«يا لها من كولونيا!» قالت صديقتها. «لن أمدّ يدي، سينتهي الأمر» فكرت قائلة. المنادي فتى يعاكس البنات، سيبتسم وينظر إلى وجهي. كانت معتادة. الفتيان في الصف كانوا ينظرون بنفس الطريقة أيضا. كانت تعلم أنها جميلة. «أنا أريد أن أعيش!» قالت في سرها. لا تعلم جيدا لماذا قالت ذلك. «بعدما تنهين عملك، تستطيعين الدخول إلى البحر»، قالت صديقتها. البحر، آه البحر! لم تنسَ أن تحضر معها ملابس السباحة ذات القطعتين. كانت ستقابل هناك خليطا من الناس وعددا كبيرا من الفتيان.. أكثرهم من الأجانب. الجميع سعيدون، الجميع بوجوه بشوشة، ودودون.. العاملون في الفنادق، النادلون، أصحاب المحلات، الجميع، الجميع!.. صديقتها، لم تجامل أحدا لأنها لم ترغب بالابتعاد عن جماعتها. ومن خوفها قليلا. يُشاع أن هناك من يخطف البنات الوحيدات في السواحل، وفي الحقول، ويشاع أنه يتم بيعهن هنا وهناك.. كما في الأفلام، يباع هؤلاء الأطفال، وأولئك البنات في الشرق الأقصى.. ارتعدت. لم تخلع صديقتها الجزء العلوي من المايوه عندما نزلت إلى البحر. «لها ثديان ضخمان، من الطبيعي ألا تخلعه!» فكّرت قائلة. هي أيضا ما كانت لتخلعه، يجب أن تكون حذرة جدا. كانت تعرف كيف تحمي نفسها، كل ما كانت تريده سماء زرقاء، وشمس، بحر وحرية. «تتوقف الحافلة من حين لآخر لاصطحاب ركاب جدد، مزعج قليلا»، قالت صديقتها. «ليكن!» تهز البنت كتفيها. «أنا في الحافلة! أمضي، وأبتعد»..

غبزة، طافشانلي.. في العتمة أنوار مشعة هنا وهناك.. على أطراف الطريق، بيوت مختبئة بين الأشجار.. «رائع!» تقول البنت

وهي تغمض عينيها بهدوء. أفضل من أزقة المدينة القذرة، ومكاب النفايات، والجدران السوداء الملطخة بالسخام، وضوضاء حديقة المدرسة القذرة!.. والدها يثب من مكانه قائلا «لعنكم الله، لعنكم الله!» بعد أن يقرأ العناوين السـوداء في الصحف.. يغلق مفتاح التلفزيون عندما تُعرض جنـازات ملفوفة بالأعلام!.. أمها ذات الوجه الذي لا يضحك، تصغي للراديو باكية أثناء تسلسل أخبار الموت، بدلا من سـماع أغنية لسـيزان أكسـو! بيت الممنوعات! سـتفعلين، لكن ليس ما تريدين، بل مـا يريدونه هم: «كوني فتاة مجتهـدة ومهذبة ومؤدبـة. لا للأفلام الخليعـة، لا لمغني البوب المجانين، لا تلفزيون قبل إتمام وظائفك المدرسـية..»، سأرد لكم الصاع صاعين. «حيوانات. حيوانـات!» تلقَّ الاحترام الذي يليق بك! مولع بالشـتائم. تقول في سـرها: «لعنك الله!»، «لا أبالي»، «لا يعنيني»، «رائع». بعيدة عن أمها، وأبيها، والبيت التعيس المليء بالشـجار.. «لا يعنيني، لا يعنيني!» تقول، تهز كتفيها، هكذا تهز كتفيها دائما، وكأنها تقول «لا يعنيني، لا يعنيني!»، دون أن يراها أبوها. وحدي، حرة.. شـعور بالخوف يغمرها أن تكون وحدها. تقول هذه هي السـعادة، السعادة! وكأنها تريد أن تُذهب خوفها. «تتوقـف الحافلة من حين لآخـر لاصطحاب ركاب جدد، مزعج قليـلا»، قالت صديقتهـا. «ليكن، ليكن».. تهـز كتفيها. «أنا في الحافلة، أمضي، وابتعد!»..

إزميت من بعد غبزة.. «عندما تشـتد العتمة، تضاء مصابيح حمـراء فوق المقاعد»، قالت صديقتها. «كل راكب يضع وسـادة صغيرة خلفه، يتوسدها وينام». هم لم يناموا، ضحكوا وتحادثوا. «أنـا أغمض عينـي، وأتظاهر بالنوم» تقـول البنت. عدم وجود

صديق أو رفيق إلى جانبها أمر يبعث على الكآبة قليلا. أليست وحيدة في المدرسة، وفي البيت أيضا؟ «هذه البنت منطوية على نفسها، لا تتحدث معنا أبدا، بعيدة عن العائلة..» ألا تقول الجدة والخالات ذلك دائما؟ ليذهب جميعهم إلى الجحيم.. عليهم اللعنة!.. تبا لهم! توبيخات أمها بلا توقف: «بدأت تتكلمين مثل كلام التلفزيون، انتبهي! تقضمين أظافرك، لا تدرسين كفاية»، «حسنا! ابحثي وحاولي أن تجديني الآن، كي توبخيني!».. تمتمة أمها تشكو وهي تتحدث على الهاتف: «يا للهول قتلوا أطفالا ثانية، آه اشتباكات مسلحة في الجبال ثانية، أزواج مقطعون، أطفال رضّع في أقمطة ملطخة بالدماء..». وصوت أبيها المتذمر «مجتمع أضاع طريقه في هذا الانحلال الاجتماعي والاقتصادي. العالم ينزلق نحو الهاوية تحت أقدام المحافظين والمستغلين!». عمها الذي أصبح غنيا بعد عمله في سوق الأوراق المالية، ليحصل في النهاية على سيارة أحلامه لسنوات، بصوته المستهزئ الصافر: «ما يقال عن المدنية وحش لم يبق له سوى سن واحدة!» ثم يجرع كأس العرق بفمه الممتلئ بالمازة وشفتيه المبللتين، ويرفع عقيرته بمرارة: «لقد تأذينا يا شعبي، لا تستخفوا بنا..».. وحيد القرن! تقول البنت، وحيد القرن!

علّق أبوها، في وسط حائط أجرد لغرفة الطعام ملصقا لمومجو. كانت تمر دون أن تنظر إلى ذلك الملصق، «لا يعنيني، لا يعنيني!» تقول. رغم ذلك كان داخلها يحترق، كلما رأت وجه مومجو الأشقر ووجهه الضحوك. لماذا علقه هناك؟ لذلك كانت غاضبة على أبيها. «كي لا ننسى!»، قال أبوها. ألكيلا ينسى يعبس وجهه دائما، ويحدق بالناس بعينيه السوداوين كالفحم؟

يبدو حانقا لأنه لم ينسَ، وســاخطا دائما! أمها تقول إنه لم يبقَ للدنيــا بهجة. لم يعد هناك محبــة، وتقطعت أواصر الصداقة. أصبح الناس يخشى بعضهم بعضا. أنا لا أخشى! أنا أهرب، أنا أمضــي!.. تنهدت بعمق. حتى لو لم يبق في الدنيا ســوى البحر والشمس والأشجار!.. «لا يعنيني، لا يعنيني!» قالت وهي ترتجف قليــلا. أغمضي عينيك، لا تفكــري، لا تفكري أبدا بما مضى.. «أخذنا معنا عددا من السندويشــات وعلب الكولا وتدبرنا أمرنا بهــا طوال الرحلة»، قالت صديقتها. ذهابها بمفردها كان الأكثر إرباكا. فكري بالتصفيق حينما ينتشــر الخبر في الصف! تتبسم قليلا باستهزاء، معتدة بنفسها ومتباهية.

محطة حافلات «إزميت» والمصابيح المضاءة ثانية. «عندما تتوقف الحافلة ينهض بعض الركاب،» قالــت صديقتها. «يذهب معظمهم إلى مراحيض ممتلئة بالغائط. كم هي قذرة، كم هي قذرة!».

«أنا، لن أتحرك من مكاني حتى نهاية الرحلة» تقول البنت.

نساء قرويات يصعدن الحافلة بملابس ملونة. من خلفهن، عدد من الرجال، وهاهو فتى أحلامها بوجه «كيفن كوســتنر»! طويل القامة، نظرات فطنة، شعره مبعثر على جبينه.. شخص «رائع».. ينظر نحوي، يتجه نحوي مباشرة! بل أكثر وسامة من «كوستنر». عيناه زرقاوان، يتبســم. «رائع!» تعال هنــا، إلى جانبي. أنت من أنتظره.. أحبك! يدرك، يأتي ويجلس إلى جانبي. رائحة كولونيا الصنوبر المنعشــة.. تغمر شــعرها وإبطيها بغزارة من الكولونيا التــي في الحمام، دون علم أبيها. أيام الســبت، عند اصطحابه أبنائه إلى الســينما.. كان لا يكف عن توبيخهم: «لقد استنفدت الكولونيا!». لعنك الله! ما كانــت تحب الكولونيا الرخيصة ذات

الرائحة كرائحة الريح التـــي تجلبها أمها. أول عمل تقوم به، ما إن تترجــل من الحافلة شــراء كولونيا الخزامـــى ماركة ريبول.. يتلامس كتفها وكتف الشـــاب الفتيّ. شعره ناعم كالحرير، طويل ومتمـــوج يلامس مؤخر عنقه. ينحني وينظـــر إلى وجهها. كانت تعلم أنه سيفعل ذلك.

«مرحبا!» يقول الفتى.

كم هو فتيّ، وكم صوته رخيم!

«مرحبا!»، تقول البنت مع ضحكة خجولة.

يجب إخفاء ابتهاجها. يجب ألا تتهافت عليه على الفور.

«إلى بودروم؟»، يقول الفتى.

«نعم، إلى بودروم».

يشرعان بالحديث على الفور. كم لحديثه عن بودروم طلاوة. هناك نُزُل لوالده. يذهب لقضاء بضعة أيام.

«أين ستقيمين؟»، يسأل الفتى.

بمـــاذا يجب أن تجيب؟ تقع الفتاة فـــي حيرة. الفتى أكثر من رائع.

«تقيمين في نُزُلنا»، يقول: «ســيقدم والدي لكِ سعرا للطلاب مخفضا، ستشعرين بالراحة».

هكذا مصادفات «رائعة» تحصل في الحياة. الأرواح ما تعارف منها ائتلف.

يصيح معاون السائق:

«استراحة لنصف ساعة».

«يتم التوقف من حين لآخر في محطات الوقود»، ذلك ما روته صديقتها.

الفتى:

«هل نترجل؟»، يقول: «نقوم بجولة تنشط أرجلنا».

يُخرج علبة سجائر حال نزوله من الحافلة. هل يجب أن أقول له إنني في السادسة عشـــرة من عمري؟ أسرق من سجائر أبي وأخبئها تحت وســادتي، أدخنها خلســة، أثناء قراءتي القصص البوليسية ليلا؟

فكرت بأنهــا أصبحت قادرة الآن على التدخين متى تشــاء، وتســتطيع الذهاب إلى المرقص ليلا بصحبة فتى «رائع» شــبيه كوستنر أتاها بنفسه. يرتعش داخلها من الفرحة.

يمشــيان على جانب الطريق. تماما مثلمــا روى أصدقاؤها: أشــجار حور طويلــة جدا، خضــراء يانعة.. بيــوت كالعلب في البعيــد.. ألوان صفــراء تلمع هنا وهناك.. أشــجار مرة أخرى، بيوت مرة أخرى.. يمســك الفتى يدها، هل يجب أن تردّه؟ كلا، لن تُصدر أية ردة فعل. تمشي بأيد متشابكة مع رجل ضخم، أول مــرة! امرأة صغيرة الحجم إلى جانــب رجل طويل القامة! كلمة «امرأة»، تجلب أفكارا معيبة إلى عقلها.. يقشعر بدنها.

أمام باب المدرســة، معاكســات الفتيان البذيئة وحماقاتهم، وبعثرتهم لشــعورهن. في الأزقة الخلفية، تلاصق الكتف بالكتف والضحــكات المكتومــة.. الهروب خلســة إلى الســينما.. تدير ظهرهــا لكل ذلك. بين شــفتيها كلمات باقية مــن عنوان رواية: الوداع لطفولتي! تتبسم بنعومة. هاهي مع الفتى جنبا إلى جنب. مــا أجمل حديثه! كم صوته دافــئ وحميم كصوت ممثل دوبلاج مشــهور في التلفزيون، يعجب أمها كثيرا. ماذا كان اسمه؟ ليس مهما، لا يعنيها سوى الفتى. حبي الذي في أحلامي! كما يحدث

في الأفلام فجأة، على طريق نصف معتم ومحاط بأشـــجار حور يانعة الخضار، ويشع لمعان على الطريق أمامهم!.. يرتعش داخل البنت. ذلك الخوف الملـــيء بالمتعة يغمر كل جوانحها من جديد، برعشة حزينة.

«تقـــف الحافلة في المواقـــف، تأخذ القرويـــين، تهزهز المرء وتهلكه»، قالت صديقتها. «ليكـــن.. ليكن.. من يُعر اهتماما؟ أنا فتيّـــة! لا أتعب، أنا قويـــة!» الحافلة تهتز أثناء المرور على الطرق الممتلئة بالحفر، تنحرف عن مسارها، مرة في هذا الاتجاه، ومرة فـــي ذاك الاتجاه.. «ليكن.. ليكن».. «بورصا»، ثم مفرق «يالوفا»، محطات الوقود. ينزل الفتى من الحافلة في أحد المواقف. يعود بعد قليل، بساندويشـــات وعلب الكولا. تضحك البنت، يا لها من مغامرة رائعة! روت صديقتها: «شـــرار أحمر ينطلق من مداخن منشـــآت تكرير البترول خلال الليل الحالـــك. أنوار في البعيد، كريّات شـــمس صفراء صغيرة في وسط الظلام!» سخروا منها قائلـــين: «تكتبين شـــعرا». يصيح المنادي: «ركاب بليكاســـير إلى العربـــة!». ثم تنطلق الحافلة، يصـــب المعاون الكولونيا على أكف الركاب الجدد الممتدة. «كولونيا من نوع رديء»، قالت صديقتها. «تقدمة من الشركة. يتهافتون عليها كأنها لبن العصفور. يا للناس الجشعين!».

الطريـــق الســـريع.. على جنبـــات الطريق أشـــجار، وأعمدة التلغراف، وشـــاحنات مارة تصدر أزيزا. كتفها مسند على كتف الفتى. أنوار اختفت، تظهر من جديد. «عند وصولنا إلى مانيسا، كنا جميعا نياما»، قالت صديقتها. هي أيضا، تســـند رأسها على كتف الفتى.. تماما كما يحدث في الأفلام!

تتفتّح زرقة السماء الداكنة. تمر الحافلة بتسارع بين الغابات. متابعة الأشـجار والبيوت والطرق الهاربة وهي على كتف الفتى! «رائع!» تتمتم البنت «رائع!» في مانيسا كل شيء أشد اخضرارا، البيوت والحدائق اختبأت خلف الأشـجار! الطريق المعبد يزداد اتساعا، تزداد حركة العربات والشاحنات كثافة، فتتباطأ الحافلة. هذه بورنوفا وتلك إزمير!

أنفاس الفتى السـاخنة، عطره الخزامـي! يهمس بهدوء في أذنهـا: «نقترب!»، «ماذا؟ إلى أين؟ ليكن.. ليكن!».. تقول البنت. رحلة «رائعة!» تقول. «سـيقبّلني، فوق أذني مباشرة، من شعري! سيقبّلني، سيقبّلني!» تقول وهي ترتعش من الانفعال.

«تفرغ الحافلة فـي إزمير»، قالت صديقتهـا. هكذا أفضل. سنستطيع الاقتراب من بعضنا على راحتنا. بنت فتيّة، في حافلة نصـف فارغة، إلى جانبها أجمل فتى في الدنيا.. يجب أن أكون حذرة، ذلك ما تفكر بـه البنت. هو أحد الغرباء، إذا ما لاطفته، من يعلم ماذا سيظن.

«هـل لك أن تصدقـي أنهم يصفون كل فتـاة ببنطال قصير وسـاقين عاريتين بعاهرات إستانبول؟ ذلك ما سمعته من سائق شـاحنة في محطة الحافلات» ذلك ما روتـه صديقتها. «رجل حقير! لأنني تحدثت قليلا مع شـاب فتي! لكن الرحلة بالحافلة تصبح مزعجة جدا، عندما تشتدّ حرارة الجو الخانقة». «حرارة الجـو لا تهمني!» تقول البنت في سـرها. الحافلة تسـرع على الطريق الإسفلتي. الأشـجار والجبال والسماء الزرقاء الصافية والطرق. أسـعى ونسعى إلى الحرية.. سلجوق، سوكة، ميلاس.. نحلّـق.. أحلّـق! النوافذ مشـرّعة. الريح، ريح بـودروم الحارة،

بحرها، شمسها والحرية، هذه هي الحياة!..

يد أمها على كتفها، تعود الفتاة فجأة من رحلتها التي انطلقت. عيناها مغرورقتان، أمام النافذة. تنظر إلى أمها بحدة. ماذا تريد، ماذا تريد مني هذه المرأة ثانية! أكرهها! هي أمامها عقبة لكل شيء جميل، بيدها قطعة قماش نصف مغضنة..

«انتهى»، تقول أمها. «غدا تستطيعين ارتداءه في الرحلة، لم يبقَ سوى كيّه».

رحلة وثياب بأزهار وردية! ليذهب الجميع إلى الجحيم! هذا البيت، هذه المرأة، كل شيء..

الأم تطوّق البنت من كتفها بهدوء. تضمها، وبصوت مليء بالحزن:

«هربت ثانية!»، تقول.

تتنهّد بعمق.

«جميعنا في عمرك بكينا أمام النافذة. جميعنا أردنا الهرب!».

تبقيان بلا حراك إلى جانب بعضهما فترة من الوقت، تنظران محدقتين إلى المياه الوحلية المنسابة إلى جانب الرصيف، إلى الساحة الخالية، إلى الغيوم السوداء المحملة بالمطر والمتدافعة في السماء. «يا للأسف، نسي أبوك مظلته في البيت!» تتمتم أمها. البنت تنسحب من بين الأذرع التي تطوّقها، وتبتعد.. تخرج من الغرفة راكضة.

الأم تصيخ السمع إلى صوت الأقدام الغاضبة التي تهز الدرج. ستدفن نفسها في سريرها وستبكي ثانية! تقول في سرها. تتنهّد وتعود إلى ماكينتها!

أتيلار – إستانبول 1994/2/11

نزيهة مريتش
NEZİHÉ MERİÇ
1925-2009

ولدت في غملك التابعة لمدينة بورصا، وأمضت طفولتها في مدن مختلفة في الأناضول. أكملت تعليمها الإعدادي في العام 1943 في ثانوية إسكيشهير. التحقت في جامعة إستانبول - قسم اللغة التركية وآدابها، تركت الدراسة عام 1945. تعلمت العزف على البيانو أثناء رحلتها الدراسية، وعملت في تعليم الموسيقى في المدرسة الابتدائية لجزيرة هيبلي على مدى عشر سنوات في الفترة ما بين (1945-1956). عملت بإدارة مجلة «الرفيق» ودار الرفيق للنشر ما بين الأعوام 1952 و1972.

نشرت أولى كتاباتها في مجلة «أوميت» (الأمل) الأدبية منذ العام 1945. ركزت في قصصها على حياة الطبقة المتوسطة في مرحلة الجمهورية، وبخاصة البنات الشابات بلغة تحمل ذوقا شعريا بسيطا يميل إلى الرصد الداخلي، وأثارت المشكلات الاجتماعية والحياتية للفئة الشبابية الطموحة من العمال والمتعلمين. حرفيتها بتجسيد التفاصيل وإسقاطاتها النفسية والتعبير عن المشاعر أعطت لقصصها طابعا خاصا، فلاقت قصصها رواجا واسعا على

مستوى القراء، كما اهتمت بمشكلات المرأة والطفل، وكتبت عن الفوضى والضياع السياسي في سنوات السبعينيات حين عانت تركيا الصراع الدامي والاغتيالات السياسية بين اليمين واليسار، لتصبح أحد أهم أعلام الأدب التركي الحديث، فنشرت أعمالها في الولايات المتحدة وألمانيا وفرنسا وروسيا.

أعمالها في مجال القصة القصيرة: الغموض (1945)، الركض الأعرج (1956)، الوعي البنفسجي (1965)، تحت الدخان (1979)، بئر عميقة سوداء (1989)، الحرق (1998)، صوت بلبل من داخل الوردة (2008).

وفي مجال الرواية: زقاق القرصان (1962)، الغزال الأرقط (2003)، الرذاذ (2005).

وفي المسرح: المياه كانت مضيئة (1969)، الحبيب (1984)، في الصباح الباكر (1984).

وكتب الأطفال: أطفال الظل (1976)، سلسلة أعرف بنتا صغيرة «7 كتب» ما بين (1998-1991)، توقف وانتظر أطفال العالم (1992)، طفل اسمه أحمد (1998).

وفي السيرة: صمت في الجندل (2004).

نالت عام 1962 جائزة المجمع اللغوي عن روايتها «زقاق القراصنة».

ونالت عام 1990 جائزة سعيد فائق للقصة القصيرة عن مجموعتها القصصية (بئر عميقة سوداء).

ونالت عام 1998 جائزة سدات سماوي الأدبية عن مجموعتها القصصية الحرق.

ونالت عام 2007 جائزة مرسين الأدبية تقديرا لأعمالها الأدبية.

الأمل خبز الفقير

امــرأة نحيلة واهنة، كانت تمشـــي هائمة على جانب الطريق بـــلا هدف. غطـــاء مورّد على رأســـها وقد بَهِت لونـــه، وترتدي معطفا أســـود نســـلت خيوط أطرافه وبَهِت لونه. تســـقط أشعة شـــمس أغســـطس الحارقة على رأســـها، وقدماها في حذائها البلاستيكي كانتا تخزانها بفعل العرق والتعب. لا أحلام تستسلم لها. على يمينها روض اصفرّ عشبه وجفّ وانتشرت فيه القمامة والنفايات، وأصبح مكبا لرماد الفحم، ويمتد على امتداد البصر حتى المقبرة، وفي وسط الروض لا يوجد سوى حصانين هزيلين يحاولان أكل ما تيسّـــر من أعشاب. شـــجرات سرو المقبرة بدت تحت أشـــعة شمس أغسطس التي تخطف البصر بلمعانها ككتلة ســـوداء. الطريق المرصوفة بالحصباء لا نهاية لها، وتمتدّ وتطول نحو المجهول. كادت المرأة لوهلـــة أن يُغمى عليها. نظرت حولها وهي تحـــاول ترطيب شـــفتيها الجافتين بلســـانها المتضخم في فمها، وبعد أن شـــاهدت بائع شراب متجوّلا اتخذ مكانا له تحت الشـــجرة الوحيدة علـــى الطرف الآخر للطريـــق، اتجهت نحوه. توقفـــت بعدما مر بذهنها أمر ما، ثـــم تخلّت عن الفكرة وذهبت لتجلـــس القرفصاء جانبا. أســـندت ظهرها على جـــدار ترابي، وقالت بصوت خفيض: «آه يا أمي!».

عربة مطلية باللون الأخضر، وأباريق نحاسية صفراء تلمع، وأكواب براقة، وبقعة أرض ظليلة رُشّت بالماء، تُنعش قلب الإنسان ولو قليلا. بائع الشراب رجلٌ كهلٌ، يجلس على كرسي منخفض بلا مسند، وقد عصب رأسه بمنديل ويستند على الشجرة غافيا. لم يُعر انتباها للمرأة. كانا يجلسان متقابلين، أحدهما مستندٌ على الجدار والآخر مستندٌ على الشجرة. حلّت المرأة غطاء رأسها، واستخدمت طرفه كمروحة لتخفّف على نفسها وطأة الحر الشديد. كانت المرأة ما بين الثلاثين والخامسة والثلاثين من العمر، سمراء نحيلة، بعينين عسليتين غائرتين.

يُطبق على الجو سكون ثقيل حار. بضع ذبابات كانت تحوم حول إبريق الشراب، والعربات تمر مسرعة على الطريق الحصوي.

أغمضت المرأة عينيها لفترة من الوقت. بدا لها أنها تبتعد بحالة منهكة من شدة الحر عن كل شيء حولها من بائع الشراب الغافي، إلى الطريق البيضاء اللامعة، إلى الروض المقابل، والسكون. أسندت رأسها على الجدار وغفت.

بعد قليل، وبعدما فتحت عينيها جزئيا، تقابلت نظراتها بنظرات بائع الشراب. نامت ما يقرب من خمس دقائق إلى عشر. وبعدما مرّر بائع الشراب منديله على رأسه الأصلع، نظر نحوها وتأفف:

«يبدو أنك مرهقة تماما».

«إيييه!».

«هل تقيمين قريبا من هنا؟».

«هناك، غير بعيد من هنا، في كيصيكلي».

«يبدو أنكِ إستانبولية».

«أوسكودارية».

«يااااا! وأنا أيضا من أوسكودار».

«لقد مضى وقت طويل جدا على مغادرتي لأوسكودار. تغرّبنا طويلا».

«وماذا يعمل زوجك؟».

«لست مع زوجي».

مرّت لحظة صمت، ثم تتهدت المرأة قائلة:

«كنت متبناة لعلمك».

صمتا لفتــرة وجيزة، ثم تابعت المرأة ثانيــة كمن يتحدث مع نفسه:

«كانوا أناســا طيبين. آه.. آآه.. بفضلهم لم يبقَ مكان لم أره. ذهبنا بعيدا حتى كارس».

«وي! حســنا. يقــال إن تلك النواحي موحشــة جــدا، أليس كذلك؟».

أشــارت المرأة بيدها بحركة مبهمــة، وجفّفت عرقها بطرف غطاء رأسها. كانت تبدو مهمومة جدا، وتهز رأسها يمينا ويسارا. أشاح بائع الشراب وجهه وبصق، ثم مرّر منديله على رأسه. نظر طويلا خلف عربة مارة، وتأفف ثانية:

«لو تنسم قليلا..».

لم تنبس المرأة ببنت شــفة. تقابلــت نظراتهما للحظة. وقال بائع الشراب:

«وجهك مألوف لدي، لكنني لا أستطع التذكر».

وأجابت المرأة بلا مبالاة:

«من يعلم. يخلق من الشبه أربعين».

«هل أنت متزوجة؟».

«متزوجة، منذ أربع عشرة سنة».

«يبدو أنك تعانين محنة ما، أليس كذلك؟».

اغرورقت عينا المرأة العسليتان، وكأنها تنتظر هذا الكلام، فشرعت من فورها بالبكاء. بعدئذ، بدا على وجنتيها الشاحبتين بعض من الحيوية، ومن حين لآخر تغطي وجهها بمنديلها وترتجف باكية، وهي تشكو همها لبائع الشراب.

على طرف الطريق الحصوي الممتد أمامهما، يقع المستشفى النموذجي، وبعيدا جدا على الطرف الآخرِ أطلال قصر. كان يقيم في المستشفى رجل توعك بعدما أُجريت له عملية المرارة. زوج المرأة، حسن الكلّاس، أصفر، بشعر جعدي، وعينين زرقاوين، على الرغم من ضخامة جثته، لكنه ببراءة الأطفال، رجل طيب القلب. من «غيفا». كانا يعيشان في سعادة ووئام قبل أن يسقط طريح الفراش. ما كانا بقادرين على الاهتمام بلباسهما، لكنهما كانا يدرّسان ابنتهما، وينعمان بأكل جيد. كانت البنت كالجوهرة؛ جوهرة زرقاء، هادئة، رقيقة، ومجدة. كانت في الصف الثالث الابتدائي، كما أنها دائما الأولى على مجموعتها. لكنها الآن ومنذ يومين، تُهرق الدموع من أجل زوج من الأحذية البلاستيكية البيضاء. كانوا يقيمون في إحدى غرفتين بقيتا في حال جيدة في ذلك القصر المتهدم، وفي الغرفة الأخرى يقيم رجل عجوز وزوجته يعملان بحراسته. لم يستطيعوا دفع أجرة الغرفة منذ شهرين. كانوا أناسا طيبين، لم يسألوهم عن الأجرة، إذ إنهم متفهمون لحالهم. ذهبت المرأة اليوم لتساعد زوجها على المشي. لا يوجد معها الآن سوى خمسين قرشا. كانت ستشتري

خبزا وقلما أحمر لابنتها، بينما كانت معه. ما أجمل الرسـومات التي كانت ترسـمها! ما شاء الله، رسومات تثير الإعجاب. كتبوا العديد من الرسائل إلى أهل حسن لكن.. كان حسن يذوي ويهزل دون حراك. من جهة الغسيل وزراعة ركن في الحديقة بالخضار، الشكر الجزيل لله! لكن ما عادت تحتمل.

سكتت المرأة وهي تجفف دموعها بشدة، وتنهدت:

«آه، آآه!».

صمتا ثانية لفترة من الوقت. ضجيج المدينة، يتردد صداه من بعيـد، ومازالت ذبابتان لا تكفان عن الطنين. كان بائع الشـراب ينظـر أمامه بحزن وذهـول. هبط عليه حال مـن طيبة القلب والمـودة.. وأخيرا قـال: «يا الله!» ونهـض. وبعدما هش الذباب بمنديلـه، ملأ كاسـا بعصير الليمون. صلصلـت الكؤوس بمرح غير مكترثة بحرارة الجو. الرجل وبحركة معتادة مسـح العصير المهروق على السـطح الزنكي، وقدّم الكأس للمرأة. جفلت المرأة علـى حين غرة، ورفعت ذراعها كمن يريد اتقاء شـيء ما. فقال بائع الشراب:

«اشربي يا عزيزتي، ستنتعشين. ليس دائما مقابل الثمن. هذه ضيافة منا».

شـربت المرأة وعيناهـا مغمضتان وقلبها يحتـرق، ثم مدّت الكأس:

«أوه! ليرضَ الله عنك. ليوفق الله كل أفراد عائلتك».

فتحت كلمة «العائلة» المجال لبائع الشراب ليتحدث؛ زوّج ابنته الكبيرة لشـاويش، تبيّن أنه كلب ونذل، فعادت البنت وفي بطنها طفل. تصنع الآن حشـوات الأكتاف لخياطي الرجال في البيت.

الوسـطى تعمل لدى خيـاط. الصغرى مازالت فـي الابتدائية. زوجته مدبرة، وبنت أصل. وهكذا يعتاشون من هنا وهناك. وقال بائع الشراب بنبرة أبوية:

«ما العمل يا ابنتي، إن الله مع الصابرين. إيييه!.. الحمد لله. إن شـاء الله سيتعافى زوجك. عندنا ابن خال، يكون صهر راسم الأوسـكوداري. هو الآخر بعد أن أجريـت له عملية المرارة، كأن شـيئا لم يكن. كم يوجد من أمراض أسوأ من ذلك بكثير. يجب أن نشكر الله، أليس كذلك؟».

«الشكر لك يا ربي!».

«ألم تجدي عملا في المدارس كفرّاشة مثلا؟».

«يا حسرة.. أنا لا أعرف أحدا».

فكّر بائع الشراب مليا، ثم قال:

«يقيـم في جوارنـا المحامي عاصم بيه، لسـت أدري إن كان يستطيع فعل شيء ما».

انحنت المرأة إلى الأمام وقالت دون أمل ولكن بعينيها العسليتين بريق غريب:

«حقا؟ هل تظن أنه سيفعل شيئا؟».

«إإإ.. كل شيء ممكن. تأتيك من حيث لا تحتسب. سأستشيره بالأمر هذا المساء».

انتصبت المرأة بحماس:

«لوجه الله أرجوك، وأنت لديك عائلة. آه يا أخي، اسأله لنرَ. آه يا الله، أنت العالم بكل شيء..».

وشـرعت بالبكاء ثانية. نهض بائع الشراب وغسل الكأس، ثم أعاده إلى مكانه. وبعد أن أشعل سيجارة قال:

«لا تبكـــي، لا تبكي، الله كبير. مرّي غـــدا إلى هنا، لنرى قد نستطيع فعل شيء ما. وفي حال لم نتمكن، تعلّمي عمل حشوات الأكتاف، مثل ابنتي الكبرى. أو..».

جلســـت المرأة أمام النافــذة، تتابع في ضـــوء القمر، الطرق المؤدية إلـــى المقبرة البعيدة، كانت تبكـــي، وتلهج بالدعاء. تركت بائع الشراب والسعادة تغمرها، وفكت قطعة نقدية من فئة اثنين ونصف ليرة كانت قد خبأتها ليوم شديد السواد، واشترت فحما وأرزا وخضراوات نيئة وســـمنا لابنتها الصغيرة ســـماحات ذات العينين الزرقاوين، التي لم يدخـــل معدتها طعام كما ينبغي منذ أيام.

وصلت إلى البيت مســـرعة، ومســـحت ونظفت أثاث الغرفة الخرب، ولمّعت مرآة الطاولة الحائطية المشـــروخة، وكنست فناء الدار المغبر ودلقت عدة دلاء ماء وشطفته، ثم روت الحديقة.

وبينمـــا كان ماء الأرز يغلي فوق المنقـــل، وصوت قبقاب أمها يســـمع من فناء الدار الرطب، شـــعرت سماحات أيضا بالحيوية والنشاط. غســـلت يديها ووجهها وقدميها النحيلتين بالصابون، وأغدقت بغزارة من ماء البئر، ثم صعدت على كرســـي أمام مرآة الطاولة الحائطية، ومشطت شعرها الأشقر. روت لها أمها الكثير: حالة أبيها جيدة.. ســـيخرج قريبا .. الأسبوع القادم، سيحصلون على مال وفير بإذن الله، سيســـتقلان الترامووي ويذهبان ســـويا لرؤية أبيها. ســـتطبخ الأم الأرز دائما لسماحات. سيعدّون يوما شـــرائح اللحم مع الضلع. ستشـــتري لها أمها حذاء بلاســـتيكيا أبيض، وجـــوارب بيضاء قصيرة. كما خطر ببال عقلها الطفولي فكانت تقول لنفسها: «لعلنا نشتري في العيد شريطا من التفتة».

تنظر المرأة إلى ابنتها الصغيرة النائمة وقد أسـندت وجنتها على كفها فوق الفراش الممدود على أخشاب رطبة، استحوذ عليها البـكاء من جديد. فكّها كان يرتعش، ودموعها كانت تنهمر فتلمع في ضوء القمر، وهي تتأرجح يمينا ويسـارا، تتوسـل متضرعة: «أنـت تعلم يا ربي، أنت تعلم يا ربي، يـا الله، آمنت بك، وتوكلت عليك يـا الله، أنت كبير يا الله». وكانت تفكر: لا بد أن المحامي عاصم بيه سـيجد لي عمـلا يا عزيزتي. محـام عظيم. إن لم يتمكن، فسـأعمل في خياطة حشوات الأكتاف. أو.. كانت ترفع ذراعيهـا النحيلين وتطل بوجهها باكية من النافذة إلى السـماء ذات النجوم: «أنت أعلم بحالنا يا الله، أنت أعلم بحالنا يا الله..».

عدالت آغا أوغلو
ADALET AĞAOĞLU
1929

ولدت في نالّي هــان - أنقرا، حيث أكملت تعليمها الابتدائي ثـم أكملت تعليمها الثانوي في أنقرا بعـد انتقال عائلتها للعيش هناك. وفي عام 1950 أكملت دراسـة اللغة الفرنسـية وآدابها مـن جامعة أنقرا. بـدأت حياتها العملية عـام 1951 مترجمة وكاتبـة دراما في راديـو أنقرا الذي أصبـح لاحقا ضمن جهاز مؤسسـة الإذاعة والتلفزيون. تولت مناصب عدة في المؤسسـة إلى أن أصبحت مديرة الدراما والمسرح الإذاعي في راديو أنقرا. اسـتقالت من منصبهـا عام 1970 بعد تدخّـل الحزب الحاكم باستقلالية المؤسسة، وتفرغت للكتابة. أثناء عملها في المؤسسة شاركت بتأسيس أول مسرح خاص في أنقرا باسم مسرح الميدان، وشـاركت بالتمثيل والإخراج المسرحي، وأصدرت مجلة «مسرح الميدان».

عـام 1981 جُمعت الطبعة الرابعة من روايتها «وردة أفكاري الرقيقـة» وصودرت ورُفعت بحقهـا دعوى تحقير بحق الجيش. اضطـرت خلال فترات الأحـكام العرفية إلى الكتابة بأسـماء

مستعارة. شاركت عام 1986 بتأسيس رابطة حقوق الإنسان، لكنها استقالت عام 2005 من الرابطة لعدم حياديتها. كما شاركت في حملة طلب الاعتذار من الأرمن، وتعرضت عام 2010 للاعتداء أثناء مشاركتها في حوار عام حول الاستفتاء الدستوري المطروح من الحزب الحاكم.

بدأت حياتها الأدبية أثناء المرحلة الثانوية بكتابة الشعر، وبعد أن اتجهت نحو كتابة المسرح، ونشرت أول دراسة نقدية حول المسرح في صحيفة «أولوس» عام 1946، تابعت كتابة الشعر في مجلة «كايناك» خلال الأعوام 1950-1948. وقد أُذيعت لها أول تمثيلية إذاعية بعنوان «أغنية عشق» من راديو أنقرا عام 1951. نشرت أولى رواياتها «النوم حتى الموت» عام 1973.

تعتبر من أهم وأغزر أديبات وأدباء مرحلة الأدب الجمهوري الكلاسيكي الحديث، واحتلت موقع الريادة بين كتّاب المسرح بعد كتابتها كمّا كبيرا في سنوات الستينيات والسبعينيات، كما كتبت في المسرح الإذاعي والرواية والقصة القصيرة والمقالة والدراسات الأدبية والتراجم العامة، ونُقل العديد من أعمالها إلى السينما.

تناولت في أعمالها، تأثير العملية السياسية وما أفرزته على شخصية الفرد من انحلال اجتماعي واضطراب معيشي، وعلى علاقة الفرد بالعائلة بتعابير مميزة وإبداعية خصوصية.

من أعمالها في مجال المسرح والتمثيليات الإذاعية: البقاء حيا (1955)، لعبة الزواج (1964)، عشق على الحدود (1965)، شقوق في السقف (1965)، تومبلا/ لعبة الحظ (1967)، شقوق في السقف (1967)، عشق وشتاء وسلام على الحدود

(1970)، ثلاثية: موت بطل، الخروج، الشرانق (1973)، الأغنية التي كتبت نفسها (1976)، بعيد جدا - قريب جدا (1991)، قصة جدار - مسرحية غنائية راقصة للصغار والكبار (1992)، سمسار عصرنا (2011).

الرواية: النوم حتى الموت (1973)، وردة أفكاري الرقيقة (1976)، ليلة فرح (1979)، نهاية صيف (1980)، بضعة أشخاص (1984)، كلا.. (1987)، برودة الروح (1991)، صيف رومانسي في فيينا (1993)، متخصص باستماع الهموم (2014).

الدراسات الأدبية: أثناء المرور (1986)، مكاشفات (1993)، مكاشفات أخرى (1996)، هكذا فوضى في هكذا مكاشفات (2002)، مكاشفات جديدة (2011).

اليوميات والسيرة: صفاء الرحيل (1985)، حياتي الليلية (1991)، مراسلات بالاشتراك مع محمد بايدور (2005)، أيام قطرة بقطرة (2004)، أيام قطرة بقطرة - 3 أجزاء (2007).

القصة القصيرة: التوتر العالي (1974)، أول صوت للصمت (1978)، هيا نذهب (1982)، أشكال الدفاع عن الحياة (1997).

نالت عام 1974 جائزة المجمع اللغوي التركي للمسرح «ثلاث مسرحيات».

ونالت عام 1975 جائزة سعيد فائق للقصة القصيرة عن مجموعتها القصصية «التوتر العالي».

ونالت عام 1979 جائزة وقف سدات سماوي الأدبية عن روايتها ليلة فرح.

ونالت عـــام 1980 جائزة أورهان كمـــال للرواية عن روايتها ليلة فرح.

ونالت عـــام 1980 جائزة مدارالي للرواية عـــن روايتها ليلة فرح.

ونالت عـــام 1991 جائزة بنك العمل التركي عن المســـرحية بعيد جدا - قريب جدا.

ونالـــت عام 1992 نادي لوبون للســـينما الجائزة الأدبية عن برودة الروح قشعريرة.

ونالـــت عام 1997 جائـــزة آيدن دوغان للروايـــة عن روايتها «صيف رومانسي في فيينا».

ونالت عـــام 1995 الجائـــزة الأدبية الكبـــرى للثقافة والفن لرئاسة الجمهورية.

ومنحت عام 1994 لقب كاتبة شرف لمعرض الكتاب الشامل.

ومنحـــت عام 1998 دكتوراه فخرية من جامعة الأناضول في إسكيشهير.

ومنحت عـــام 1998 دكتوراه فخرية فـــي الآداب من جامعة ولاية أوهايو في الولايات المتحدة الأمريكية.

التوتر العالي

انقطـع المطر. مجاري الميـاه الترابية الممتدة عبر السـهول ضعيفـة الميل، صرّفـت فائض المياه المتجمعة فـي الجرف إلى البحـر، وتكاثر البعوض والضفادع علـى ضفافها. حفظت تلك الأقنية الرطوبة في الحقول والتربة، وساعدت على نمو القطن.

في نهاية شهر مايو، بدأت الطائرات أحادية المراوح بالتحليق فـوق السـهول. حلقت مـرارا فوق الحقول، ورشـت السـهول بالمبيدات. رائحة السـيولان تغلغلت في طعـم الزهور الناضجة في حقـل فراولة علـى جانب الطريـق. ثم تغلغلـت في مذاق الخبـز، واللحم، والخضار. تغلغلت حتى عصارة كل النباتات من قرنفل الشاعر، والوسـتارية، وإبرة الراعي، إلى تروس مسننات آليات المشـاغل، في الإسمنت والحصمة، في البطانيات وأدوات الطعام، والأسرة المتنقلة بين أماكن العمل، وفي ألحفة، وسراويل، وقمصان الباحثين عن العمل.

المبيـد الذي ألقته الطائرات أحادية المراوح، جفّ فوق غراس القطـن. ترك خلفه بقعـا بيضاء ذرور على أسـطحها المعرقة. في بداية الأمر، الأعشـاب التي بين الأثلام التي تقسـم السهل المنبسط إلى قطع، امتصت الماء الفائض الذي ملأ حقول القطن، فنمـت وتكاثرت وكبرت. وكلما جـرت المياه الفائضة في الأقنية

نحو البحر، تضاءلت حصة الأعشاب من الرطوبة. مع امتداد الصيف انخفضت هذه الحصة فجفت الأعشاب، وأصبحت هشيما. التقطت سيقان النباتات اليابسة، المبيد مع غبار الطريق، فتلطخت بلون رمادي مائل إلى البياض. بعض النباتات كالجواشير والخلنج والطرفاء، قاومت الجفاف بأزهارها الهزيلة الأرجوانية التي شحبت بين الركام الأبيض القذر، فطغى بياض المبيد على ألوانها الشاحبة.

في سبتمبر، شُرع بجني القطن الجاف. قطن الغراس المروية نضجت وامتلأت. انتظروا حلول موسم جنيها قبل هطول الأمطار. أوراقها كانت كبيرة، لكن لطخات المبيد مازالت متراكمة فوقها.

الشمس، جعلت سطح البحر يغلي، غلته وبخّرته، ثم جلبته من أمكنة بعيدة ونشرته فوق السهول. تشرّبت طبقة البخار جزءا من المبيدات التي رشتها الطائرات. وشكّلت سحابة كثيفة من الضباب. عند عودة الطائرات ثانية لرش المبيدات حلّقت فوق السهول على ارتفاع أخفض. كلما حلّقت تحت السحاب، انخفضت أكثر حتى آخر طلعة رشة مبيد، حلّقت في الممر الضيق المتبقي بين طبقة البخار الكثيف والغطاء النباتي الملطخ.

المياه المنسابة من الأقنية ذات الميل الخفيف غُطي سطحها بشوائب دقيقة بنية اللون بلا حراك تشبه التبن. تجر هذه الأقنية الماء الفائض بما يحمله من بعوض ميت وتصبه في البحر. لكن الضفادع كانت تواصل العيش في عمق تلك الأقنية الرطبة. ولاذت داخل الأقنية محتمية من السيولان وتكاثرت وكبرت. ليلا، عندما يخترق نور القمر طبقة البخار الكثيفة ويضيء الحقول، تهتاج ويرتفع نقيقها عاليا.

في الأعلى، في الشـــمال، كان السد يجمع ماء النهر. يحجزه ليســـقطه من أعلى فيدير توربينـــات عملاقة. يصبه محولا هذا الشـــلال إلى طاقة كهربائية ثم ينقلها إلى خـــط التوتر العالي. ينقلها بلا توقف.

امتدّ خط التوتر العالي، على أعمدة منتصبة فوق الســـهول، وفي الحقول، وعلى جانبي الطريق، متجاوزا أقنية الري والأقنية الفرعيـــة، وتفرعت منه خطوط تغذية، هنا وهناك إلى الجنوب، وامتدّ إلى أماكن التجمعات السكانية المزدحمة. امتدّ وجلب معه إلى تلك الأماكن، حمولتـــه من الطاقة التي تحيي وتميت. يترك بصماتـــه الجبارة فـــي كل مكان يمر منه أو مـــا يتقاطع معه من حـــي أو جماد، ويواصـــل التقدم. لكن خط التوتـــر العالي، وهو يمتدّ إلى تلك الأصقاع، لا يســـمح لأي جسم بالاقتراب منه لأقل من خمســـين سنتيمترا. في الأجواء الماطرة يوسّع حدوده، ويعزز هيمنته في دائرة قطرها مئة وخمسون سنتيمترا. يمضي حاميا حماه، بطاقة تتجاوز المليار، ليفرغ جزءا ضئيلا منها في مصباح كهربائي من خمس وعشـــرين شـــمعة متدل من السقف القشي لبيت سائق الرافعة قادر تشيتشك.

توهج المصباح الكهربائي المعلق في سقف بيت قادر تشيتشك ساعة من الزمن. أرقدت زوجته الأطفال، وغسلت الأطباق، ثم غطـــت جيدا ما تبقى من اللبن الرائب بغطاء ســـلكي، ووضعته أمام النافذة. أســـدلت ســـتارة من النايلون الرقيق على النافذة التي بلا روح، وخرجت إلى فناء الدار.

سحب قادر تشيتشك وعاء الماء المالح أمامه في ضوء المصباح ذي الخمس والعشـــرين شمعة الســـاقط أمام الباب. غمر يديه

المتوزمتين في الماء المالح:

«يجب الذهاب باكرا إلى موقع العمل. يجب تشحيم بكرة الرافعة. يجب قيادتها حتى الأقنية المسبقة الصنع. يجب أن نبذل جهدنا لنثبت أكبر عدد منها على القواعد، قبل حلول الظلام».

أخرج يديه من الماء المالح، ومسحها بالفانيلة الرياضية التي يرتديها. نظر إلى يديه في الضوء الباهت المنسل من الباب:

«اللعنة على الرافعة!» قال. ثم ضحك.

انحنت زوجته بجسدها نحو الوعاء الممتلئ بالماء المالح:

«هل اكتفيت؟» قالت.

«اكتفيت، اكتفيت» قال قادر تشيتشك «خذيه وادلقيه».

أخذت سكينة تشيتشك الوعاء، وغابت في عتمة الفناء. أشعل زوجها سيجارة. نظر إلى أخيه حسن المتمدد على المصطبة جوار الحائط: «مرحى يا فتى» قال بصوت مرتفع قليلا: «طفل أمس.. بدأ كمزحة، أتقنت جيدا هذا العمل.. تعلمت سريعا عمل مساعد حبل الوسط..»».

تمتم حسن في منامه. ثم صاح وانتفضت قدمه اليسرى المدلاة من المصطبة. رفع قدمه إلى أعلى. استدار جانبا. كان ينام بعمق.

سفر أخوه الأصغر من حسن وابنه الكبير كمال ينامان على السطح. كانت أصواتهما المسموعة تعلن أنهما لم يناما بعد، يتدافعان ويتقارعان تحت الناموسية. كان كمال يضحك ضحكة مكتومة لسبب ما. سفر:

«اسكت، هيا نم!» صاح.

رفع قادر تشيتشك رأسه إلى أعلى. نظر وكأنه يرى سفر وكمال. مع أن السطح أعلى من رأسه.

«نادِ عليه، ليتركه بحاله. كل ليلة يجد دعابة. اللئيم، لا يدع عمه الصغير لينام».

صعدت زوجته السلم الموصل إلى السطح. نادت من فوق:

«كمال! حذار، أبوك قادم إليك!».

رغم أن كمال كان يحاول كتم ضحكته بصعوبة لكن دمدمته كانت تُسمع.

«إذا أنهيت أشغالك أطفئي النور» قال قادر تشيتشك لزوجته.

«إذا كنت تريد النوم هل أحضّر لك الفراش؟».

سكينة تشيتشك اتجهت إلى الداخل ثانية.

«لا تحضّريه بعد. الجو حار جدا. يبدو أنه لا مجال للنوم. أطفئي النور. كي لا تمتلئ الغرفة بالبعوض».

انقطع النور الأصفر المتسرب من الباب إلى الخارج فجأة، فبدا قادر تشيتشك كبقعة بيضاء أمام الباب.

الضفادع تنق من بعيد، بلا توقف. يرتفع هذا النقيق من كل الأقنية، والجداول، وتجمعات المياه، وينعكس في فناء قادر تشيتشك، فيطغى على ضحكات كمال.

خرجت سكينة من الداخل بهدوء، وتكلمت بصوت خافت:

«ما عاد البعوض كثيرا كالسابق. قلَّ».

«هل نامت البنات؟».

«نمن. بعد أن يستغرق الصبي بالنوم، سآخذه إلى جانبي».

سحبت صندوقا إلى يسار زوجها. جلست فوقه. حاولت تمييز وجهه في الظلام. لم يتجاوز عمر زوجها الثلاثين، لكن وجهه

مليئ بالتجاعيد، متغضّن كلحاء سـميك لشـجرة معمرة؛ يعمل طوال اليوم فوق الرافعة، بلا توقف. شمس السهل أهرمته خلال ثلاث سنوات.

تنهدت:

«كيف حال يديك؟».

حك قادر تشيتشك كفيه بركبتيه. لم ينبس ببنت شفة.

«لا تقلق يا قادر. بماذا تفكر يا تاج رأسـي؟ ديوننا على وشك السداد. انتبه لعملك. سنركّب زجاجا لنوافذنا مع حلول الشتاء».

أدار زوجها رأسـه ونظر إليها. «يا للشمس العظيمة. أججت عيني قادر طوال الصيف، والآن أيضا، جاءت، في وسـط الليل لتشـع من عينيه». مر ذلك بذهن سكينة تشيتشك. أحنت رأسها ولعا بلمعان عيني زوجها.

حدثت حركة على المصطبة. استيقظ حسن واعتدل.

«لا يمكن النوم يا زوجة أخي. الجو حار جدا..».

انتصب الشـاب بجسده الضخم أمام المصطبة، وذهب بحكم العادة، ورشـق الماء على وجهه من صفيحة ذات حنفية في زاوية الفنـاء. بلل ذراعيه جيدا. رافعا بنطـالِ منامته المخطط وطاف في وسـط الفناء. أشعل أخوه الكبير عود ثقاب، وأشعل سيجارة أخرى:

«حسـنا..» قال ثم تابع «قبل قليل كنـت تتكلـم أثنـاء نومك يا مغفل..».

اندهش حسن منزعجا:

«حقا يا أخي؟.. ماذا كنت أقول؟».

استعاد سـائق الرافعة في ذاكرته، مشـهد حسن واقفا فوق

المقطورة. لم يغب عن عينيه طوال اليوم. مساعدون آخرون فوق المقطورة، يشبكون خطافات حبال الأطراف في مرابط بلاطة القناة الإسمنتية المسبقة الصنع، وما إن يشبكون الخطافات حتى يعطي حسن لأخيه إشارة «أنزل ذراع الرافعة»، ثم يدير سريعا حبل الوسط الفولاذي، ويشبكه بذراع الرافعة، ليعاود النظر إلى أخيه، ويعطيه إشارة «ارفع» في الوقت المناسب.

في بداية الأمر، كان يعطي إشاراته بالصوت. مع مرور الوقت، أصبح الأخوان يتفاهمان بعيونهما. عمل حسن يحتاج إلى دقة شديدة. بدأ يظهر مهارته العالية بإدارته الحبل الأوسط، وإعطاء إشارة «أنزل» أو «ارفع» في اللحظة المناسبة.

دائما، كانت نظراتهما تحمل جدية وحذرا طفوليين. كان يدغدغ مشاعر قلب قادر، بذل حسن جهدا لا يكل، بعضلات ذراعيه المفتولة كمن يشارك بمباراة مصارعة، وتوتر رقبته الدائم كرقبة البلشون.

«هل أقول؟» قال، ناظرا في عيني حسن الجزعة.

«قل..».

«بحضور زوجة أخيك؟».

تردد حسن. إذا ما تفوه بعبارات غير لائقة، فسيشعره ذلك بالخجل من زوجة أخيه، أشد منه تجاه أخيه الكبير.

«على أية حال، ما قيل قد قيل. لقد سمعتك»، قال.

رفع بنطال منامته أكثر قليلا. مشى وقرفص ثانية أمام الصفيحة ذات الحنفية. أخذ جرعة ماء وتمضمض، بصق. ودون أن يستدير، قال مكابرا من حيث قرفص:

«لتسمع زوجة أخي أيضا، وماذا سيحصل؟».

«هيا انطق يا قادر..».

«آه يا بني، لو بُحتَ باسم البنت لكان أفضل..».

«ماذا قلتُ إذن؟».

«ارفع، ارررفع!.. أنزل، أنززززل!..».

ضحك الجميع. أخذ حسـن نفسا عميقا. جاء وقرفص عند ركبة أخيه الكبير:

«وماذا غير ذلك؟».

«وماذا سيكون سواه؟».

«كأنك أحببت كثيرا هذا العمل يا حسن.. أحببته كثيرا.. ليتنا لم نفعل.. لو ذهبت إلى العسكرية لكان أفضل، بدلا من ادعائكما الباطل بذلك..».

لم تكمل سكينة كلامها. توقف الضحك. صمتوا طويلا.

تعكر الجو، فدخلت سكينة الحديث من منحى آخر:

«هذا ما رغبت به، وهذا ما حصل! ماذا أقول؟..».

«بربك يـا زوجة أخي! دائمـا تقولين نفس الشـيء. أكملت دراستي الإعدادية بفضل أخي الكبير. قريبا سينهي سفر أيضا الإعدادية بمساعدتي.. وبعدئذ كمال، ومن بعده غولتان، ثم آيتان ثم يأتي الدور على أورهان.. ألم نقل إننا سنساعد بعضنا؟».

«ليتك أنهيت عسكريتك أولا..».

أدركت تأثر وانقباض قلـب زوجها، صمتت تماما. لم تكتفِ، وضعت أصابعها على شـفتيها، وكأنها قفلت فمها بمفتاح. رمى قادر تشيتشـك سـيجارته التي وصلت إلى نهايتها على الأرض، وداسها بحفايته.

«كم مترا أكملنا هذا الشهر؟».

تجاوز حسن خوفا شبيها بخوف الرسوب في المدرسة. مرت سريعا في مخيلته، عينا المعلم، واختفت. الوقت الحالي لا يعنيه. الأمور على ما يرام في الوقت الحالي.

«اليوم، تجاوزنا مئة وسبعين مترا يا أخي.. طبعا، مع آخر بلاطة ركّبناها على قاعدتها.. وإذا ما أنجزنا غدا خمسمئة متر إضافية، فستصل مكافأتنا إلى ثلاثة آلاف ليرة. أليس كذلك؟».

«إذا ما أنجزنا ذلك»، قال قادر تشيتشك.

«وإذا ما وُزّعت الثلاثة آلاف على أربعتنا..».

أجرى حسابه في ذهنه.

«يا معلم قادر..» ثم قال «يا معلم.. مع ساعتَي عمل إضافي علاوة على مياوماتي، هل تعلم ما سأحصل عليه وحدي هذا الشهر؟ ألف وأربعمئة وخمسون ليرة بالتمام والكمال. هل تعلم أني أحصل أول مرة على هذا المبلغ؟ أعلى ما حصلت عليه حتى الآن كان تسعمئة وخمسون.. أول مرة أربعمئة وخمسون ليرة. هذا مبلغ كبير! .. سأذهب على الفور وأشتري لنا ثلاجة.. بالتقسيط.. سأضعها في الفناء.. سأمد خطا كهربائيا إلى هنا من الخط الداخل إلى المصباح.. عندئذ، نشرب ماء باردا كالثلج.. وسنبرّد لبننا..».

غمز بعينه لأخيه الكبير:

«سنبرّد مشروبك من العرق. عرق الثلاجة على حسابي! كُتُب الأولاد، وأقلامهم، ودفاترهم.. دائما على حسابي.. دائما..».

حاول أخوه الكبير إظهار سروره، لكن قلبه ظل منقبضا.

سكينة، وكي لا تطفئ جذوة بهجة حسن، فكّت أصابعها عن شفتيها، وضحكت:

«بربكم انظروا إليه!.. لقد كبر وأصبح رجلا..».

لـــم تفلح في محاولتهـــا. لا ردة فعل مناســـبة. متى فُتح هذا الموضوع، يبقَ الحديث معلقا.

«لتسلم يا حسن.. لتسلم على كل شيء..».

«كان أخي يريد الذهاب إلى ألمانيا. كنا سنتشتت هنا وهناك.. لكن الآن، أليس وضعنا في تحسن؟..».

«والله كبرت وصرت تغرّد يا مشرّد!»، قال قادر.

قفز قلب ســـكينة. لكنها رأت عيني زوجها تشعان في العتمة بوهج جميل، ودودة وحنونة. حسن رأى ذلك أيضا. لا سخرية في عيني أخيه الكبير. لا غضب، ولا استخفاف. احتضنه:

«بابـــا قادر.. معلم قادر.. بابا قادر أخي الكبير المعلم..» قال، وقد خلط هذه الأسماء والألقاب بعضها ببعض.

انعطف خط التوتر العالي من الأعلى ونزل إلى الأسفل. عاد ثانية، وانعطف منتظرا، في وســـط الليل، بأســـلاكه النحاسية المسودّة لنقْلِ جــزء أقل من واحد بالمليار من طاقته، بـــل ربما دون ذلك بكثير. كان يعد لنقله، ذات يوم، إلى فناء دار قادر تشيتشك حيث سيضع الثلاجة.

تقدمت المقطورة المحملة بست وعشرين بلاطة، بضعة أمتار، والتي ســـتخف حمولتها قبيل المساء. وقفت على نحو مستعرض مع خط القناة الإسمنتية المسبقة الصنع، وانتظرت.

حل ســـائق الرافعة قادر تشيتشـــك المنديـــل البرتقالي اللون والمربـــوط حول عنقـــه، وتحرك في مكانه فـــوق الرافعة. جفف عـــرق جبينه، فرد أصابعه، وحرك ذراع القيادة، وتقدم إلى حيث توقفت المقطورة لتثبيت البلاطة الرابعة والعشـــرين في مكانها. أرخى خطاف الرافعة وانتظر.

هرع، قبل قليل، مساعدا الجانب الاثنان إلى جانب القاعدة، وبأيديهما الفتيل المقطرن، وثبتا البلاطة الثالثة والعشرين. ثم حلّا خطافات حبال الرافعة المرخية، وصعدا ثانية على ظهر المقطورة، ليشبكا البلاطة الرابعة والعشرين. وبعد أن تأكد حسن تشيتشك من أن الفتيل المقطرن قد وُضع في مكانه بشكل صحيح، أعطى إشارة «مضبوط» إلى أخيه الكبير. وبعد أن تم تثبيت البلاطة الثالثة والعشرين، في مكانها فوق القاعدة، صعد فوق المقطورة، ووقف متوسطا البلاطة الرابعة والعشرين. ثم أمسك الحبل الفولاذي المتدلي من رأس الرافعة وانتظر.

اتخذ مساعد اليمين بلال، ومساعد اليسار عثمان، مكانيهما عند طرفي البلاطة الرابعة والعشرين، وانتظرا. نحّى حسنُ حبل الوسط، ودفع حبلي الطرفين المتدليين، واحدا باتجاه عثمان والآخر باتجاه بلال. ابتسم لأخيه الكبير، الذي كان لا يرفع عينيه عنه متابعا كل حركاته، من فوق الرافعة، بصرامة المعلم. صاح بصوت يطغى على ضجيج محرك الرافعة العالي:

«بلغنا الرابعة والعشرين!».

رفع صوته أكثر:

«نجحنا! لقد تخطينا الآن، التسعة كيلومترات بأربعمئة وتسعين مترا بالتمام والكمال!».

قادر تشيتشك، انحنى قليلا على الذراع التي أمامه. سحب الذراع. تعاظمت الدبدبة.

«توقف عن الحسبة! لننه العمل!..» زعق على أخيه. ارتعش فكه. عندئذ، أشاح حسنُ بصره نحو طبقة الضباب الكثيفة كستارة تحجب البحر البعيد عن السهل، كي لا يرى أخوه نظراته

التي تحمل عميق خجل واحترام نحوه.

مالت الشـــمس كثيرا نحو الأفق، خفّ وهجها إلى حد بعيد، بدت وكأنها تعكس صورتها من خلف زجاج مغشّـــى. كانت تنشر بخارا عديم اللون كأنه أوراق هندباء سُـــلقت حتى تفسخت على شـــكل شـــرابات عديمة اللون كجذورها. تغير مـــن حالها وهي تمشـــط السهل. هل كان الســـهل هو ما يطلق البخار، أم الشعاع المنعكس من خلف الزجاج المغشّى يعاني شيئا فشيئا من الظهور.

بعيدا، في حي ناء، مشتّت الأطراف، يطل على جنوب المدينة الكبيرة، صرير منشـــار أخشـــاب، كان يضرس أســـنان ســـكينة تشيتشـــك، طوال اليوم. بعد أن اعتـــادت أذناها على الضجيج، انتقلـــت حساســـيتها إلى فمها، وإلى لثتهـــا. أخرجت موقد غاز البوتان الصغير إلى الفناء. أدارت مفتاح أسطوانة الغاز، وأشعلت عود ثقاب. تيقنت من اشتعال الموقد، بعد سماعها نشيشا شديدا. وهج اشتعال الغاز، ما كان ليطغى على وهج أشعة الشمس الذي يغمر السهل رغم انحسار شدته.

قالت سكينة تشيتشك لكمال الذي يحاول قيادة دراجة قديمة في الفناء، رغم تكرار وقوعه:

«انطلق يا بني، قل لأخيك الكبير سفر، ليحضر، عند عودته، قطعة سانا[1]».

وضعـــت وعاء ماء على موقد غاز البوتـــان. ظل كمال يتمايل بالدراجة داخل الفناء، وكأنه لم يســـمع ما قالته أمه. مر بموقد الغاز، حتى كاد يلامســـه. شيء ما جثم على صدر سكينة فجأة. تناست صوت المنشار الذي يتردد في الفناء، ونادت ثانية:

(1) اسم تجاري لنوع من المارجرين (المترجم).

«هل أنت أطرش يا كمال؟ أتكلم معك!».

«سمعت» قال، كمال. لامس إطار الدراجة الحائط. صكت سكينة بشدة أكثر على أسنانها. مرّرت لسانها فوق لثتها. بلعت ريقها.

«ما دمت قد سمعت هيا اركض سريعا. إنهم على وشك القدوم. لنعد لهم طعامهم..».

«مازال مبكرا..».

«مبكرا.. باكرا عليك. كل شيء متأخر بالنسبة لي، هيا.. هيا اركض!».

سند كمال الدراجة على الحائط بامتعاض. رفع الإبريق البلاستيكي، الموضوع أمام نافذة من دون زجاج، نحو فمه، وشرب.

«فاترة. مثل الدم»، قال.

«سيشتري عمك حسن ثلاجة. ذلك ما قاله مساء أمس. سيتعاون مع أبيك..».

«متى؟».

«في بداية هذا الشهر..».

«أي بعد غد؟».

«ربما بعد غد. وربما في الأيام المقبلة.. بعد أن ينهيا حساباتهما.. وتسديد ما بقي من الديون، ثم يتشاوران»..

«لنضع فيها فروكو[2] أيضا يا أمي. لنضع قنينة من كل طعم».

«سنفعل. ربما. ربما نحضر يوما ما».

«ليتنا اشتريناها في بداية الصيف يا أمي!».

(2) اسم تجاري لنوع من المشروبات الغازية (المترجم).

«الكلام سهل بالنسبة لك. هيا اذهب سريعا!.. يلزمني سمن. اركض على الفور قبل عودة أخيك الكبير سفر..».

كان أورهان فوق المصطبة يلعب بكوز ذرة. يضع الكوز على فمه، ويحك أسنانه التي تنمو، ولعابه يسيل. كانت آيتان وغولتان، عند الصفيحة ذات الحنفية تغسلان حفاضات الأطفال. خرج كمال من باب الفناء. هرعت سكينة تشيتشك نحو البنات، وأبعدتهن.

«هدرتن كل المياه من جديد!.. لم يبقَ عندي ماء..».

أقنية الري الإسمنتية كانت جافة. الينابيع جفّت منذ فترة طويلة. تشكّلت طبقات رقيقة خيطية بيضاء تشبه هباء الطباشير، على حواف الأقنية الترابية ذات الميل، بعدما أسالت المياه الفائضة عن حقول القطن إلى البحر، مع بداية الصيف. تكررت الخطوط غير المنتظمة، مع تكرار هبوط منسوب المياه، على الجدران المقعرة، التي ظهرت عليها شقوق رفيعة.

مشروع إنشاء أقنية لري أعلى كفاءة لقطن السهل، خرج من الورق، وبدأ يتمدد ويتوسع مع مرور الأيام ليغطي كامل السهل. شاهد طيارو طائرات رش المبيدات الصغيرة، طوال الصيف، مسارات الأقنية العريضة ذات اللون الرمادي الباهت، التي تقسم السهل إلى قطع منتظمة وهي تتقدم على الأرض.

أنتج مصنع الأقنية الإسمنتية المسبقة الصنع، الواقع على الطريق الإسفلتي الذي يوصل بين مدينتين كبيرتين في الجنوب، أعدادا من البلاطات يتزايد كل يوم. في ورشة التصنيع أمام المصنع، مهندس يغرز، كل مساء، على خارطة السهل المعلقة على الجدار، عددا من الدبابيس الملونة بازدياد. يربط بنظره المسافة بين الدبابيس، ويضرب كل سنتيمتر واحد بألفين، ويحول محاسب

موقع العمل، حاصل هذا الضرب من أمتار وكيلومترات إلى نقود ويقسمها على الأجور. يشرف مهندس الشركة، كل مساء، على البلاطات حتى آخر ما ركّب منها، ويتحقق من عدد البلاطات التي ثبّتها العمال على قواعدها. يعاين مهندس الإشراف التابع للدولة، في نهاية كل شهر، ويقيس أطوال البلاطات التي تم إنجاز تركيبها، بقدمه، ثم يعود إلى مكتبه ويحسب قيمة الدفعة المستحقة من الدولة بما قاسه بقدمه. في المساء، يكرم مهندسو الشركة مهندسي الدولة، في مطاعم مكيّفة تقدّم المشروبات الكحولية. في الأوقات التي لا تتم فيها استضافتهم، يتأخر تسديد الدفعة الشهرية المستحقة للشركة من الدولة، ولا تُدفع إلا بعد طول انتظار. عندئذ، تتضاعف فوائد البنوك، وتتراكم ديون العمال، في محلات البقالة والمخابز.

لكن كل ما يجري، في هذا المحيط الواسع الذي يدير ما يضم من أعداد كبيرة من البشر، بسرعة تزداد كل يوم، لخدمة عدد محدود من مالكي أراضي السهل، والعمل على رفع إنتاجه من القطن لصالح مالكيه. أحد مهندسي المشروع، قال «كل ذلك لصالح البنوك». وقال أحد مهندسي الإشراف «ذلك لصالح مالكي الأراضي». شكّك كل منهما بأقوال الآخر، وتخاصما ثم أعطيا صوتيهما لحزبين مختلفين. ترقبا بانتظار نتائج الانتخابات.

سطعت الشمس ونشرت ضوءها قليلا.

خلف ذراع تطويل الرافعة، جلس سائق الرافعة قادر تشيتشك، ينتظر ويده على ذراع القيادة. كان ظله يسقط خلفه. نظر مساعد حبل الوسط حسن تشيتشك إلى يمينه مساعد حبل اليمين

بلال، بينما كان يشبك الحبل بالطرف الأيمن للبلاطة الخامسة والعشرين، ثم استدار سـريعا نحو اليسار. شاهد مساعد حبل اليسار عثمان يشبك الحبل بالطرف الأيسر للبلاطة. تلفّت ثانية حواليه، منتظرا استكمال شبك حبلي الطرفين بمكانيهما. وازن حبل الوسط المتدلي من خطاف الرافعة بيده. شعر بالتوازن في كفيه. لوى الحبل الفولاذي ليؤمّن حركة سليمة لخطاف الرافعة. تابع قادر تشيتشـك حركاته، ثم ركز نظراتـه على عيني أخيه. تقاسـمت عيونهما دائما هذه اللحظة، باعتبارها المرحلة الأكثر أهميـة في العمل، بما تحتاج إليه من حذر شـديد. بريق لمع في عين حسن، يدرك قادرُ معناه جيدا: «ارفع!».

ما إن التقط قادر بريق الإشـارة، حتى شـغّل الرافعة. رفع ذراع تطويل الرافعة ببطء وشـرع بالـدوران. نزل بلال وعثمان مـن فوق المقطـورة بقفزة واحدة. انطلقا في السـهل، يحملان الحبال المقطرنة بأيديهما، نحو القواعد المنتصبة المتباعدة عدة أمتار عن بعضها على امتداد السهل، والتي تشبه شوكة برأسين مزدوجين. وقف كل منهما، عند أقرب قاعدتين لطرفي البلاطة الإسمنتية، ومدّدا الحبال المقطرنة على حافتي القاعدتين. كان حسنُ يوجه أخاه بالإشارات، أثناء قيام المساعدَين بتمديد الحبال المقطرنة. البلاطة الإسـمنتية الثقيلـة، أخذت وضعية التركيب على قاعدتيها، تنتظر معلقة بطرف ذراع تطويل الرافعة.

قفز حسـن على الأرض من فـوق المقطورة. انطلق نحو بلال وعثمان. تأكد إذا ما كانت الحبال المقطرنة قد مُدّت بشكل سليم فوق القواعد. الحبال مُدّت بشـكل سليم. رفع رأسه، ونظر إلى أخيه الكبير:

«أنزِل!» قال. كان إعطاؤه الإشارة، هذه المرة، بالصوت.

سحب قادر تشيتشك الذراع. نزل ذراع تطويل الرافعة ببطء إلى أسفل، فوق الحبال المقطرنة التي على القواعد. ظل حسن يعطي الإشارات لأخيه حتى تم ركوب طرفي البلاطة بشكل سليم على القاعدتين. في تلك الأثناء، تقدمت المقطورة إلى حيث ستوضع البلاطة التالية. صاح حسن:

«تمّ!».

حل مساعدا اليمين واليسار، خطافات الحبال المرخية بسرعة عالية، وتركا الرافعة حرة. صعدا مع حسن على ظهر المقطورة ثانية. ساق قادر تشيتشك الرافعة إلى حيث تقف المقطورة، لرفع وتركيب البلاطة التالية والأخيرة.

توقّفَ منتظرا.

كان خط التوتر العالي يهبط من أعلى ويتقاطع مع مسار مشروع القناة الإسمنتية، حيث يعمل فريق العمل. آخر بلاطة باقية في المقطورة، ستنصب، بعد قليل، على الأرض ليقطعها ظل خط التوتر العالي كالمنشار. سيقطعها ويكمل مساره بعيدا. كل متر إضافي، يتم تمديده من هذه القناة الإسمنتية، هو بمثابة وجبة طعام لكل فرد من فريق العمل.

سقت سكينة تشيتشك، نباتات إبرة الراعي والعطرية النامية أسفل الجدار، وقرنفل الشاعر المتطاولة بأزهارها الأرجوانية تحت النافذة التي من دون زجاج، حتى أنعشت جذورها. رشقت سريعا، ما تبقى من ماء في الإبريق البلاستيكي، داخل الفناء. حلقات وخطوط ملتوية قاتمة اللون بدت على حجارة الفناء، ثم اختفت سريعا. أضفت تلك الخطوط، رغم ضآلتها، انتعاشة

خفيفة على الفناء، ثم مضت.

حملت سكينة طاولة قابلة للطي إلى جوار العطرية. فتحتها، ووضعت اللبن المخلوط بمبشور الخيار فوق مشمع الطاولة الأخضر والأبيض. لاحظت بوادر ظهور فقاعات على سطح اللبن.

وقفت سكينة تشيتشك جوار موقد غاز البوتان. وضعت معكرونة بيتية في الماء المغلي. رفعت رأسها ونظرت إلى السماء ثانية. حاولت معرفة الوقت. طلع القمر. بدأ صراع بين ضياء بلون القيح يسطع من خلف زجاج مغشّى، مع ضياء أزرق مائل إلى البياض. «حان وقت عودتهم»، قالت سكينة تشيتشك. قامت لإطعام أورهان المنبطح فوق المصطبة شاكيا. انقطع صوت المنشار.

تدلّى خطاف ذراع الرافعة. شاحنة صغيرة بلون أخضر باهت قادمة من الجنوب. أبطأت سرعتها. ركن مهندس المشروع نظيف شاحنته الصغيرة على جانب الطريق، وترجّل. قفز عن خندق، حتى وصل إلى جوار الفريق. أعطى إشارة بيده «توقفوا». انزعج قادر تشيتشك. أرخى حسن تشيتشك حبل الوسط في يده، دون أن يتركه. حرّر قادر تشيتشك ذراع التشغيل، نهض، وأطل برأسه نحو نظيف.

«ترى خط الكهرباء، أليس كذلك يا معلم؟».

«أعرف»، قال قادر تشيتشك.

«يجب توخي الحذر. أبقِ ذراع الرافعة بعيدا. لا تقربه».

«نعم، نعم»، قال المعلم قادر.

«الوقت معتم. تأخر. الآن، الأبعاد تغالط..».

اندفع حسن تشيتشك:

«بقيت بلاطة واحدة!»، قال.

«ليكن. من الأفضل أن تتوقفوا عن العمل. تركّبونها في الصباح..».

«لا داعي لتأخير الرافعة من أجل بلاطة واحدة»، قال المعلم قادر.

«غدا صباحا، نباشر العمل بالخط ي 12».

تنفّس حسنُ الصعداء. نظر إلى أخيه باعتزاز.

مضى ستة أشهر، منذ أن أبرز لأخيه الكبير، هوية مزورة، تظهر أن عمره تجاوز الثمانية عشرة، وأنهى خدمته العسكرية. طارده أخوه الكبير ذلك الصباح، وضربه مساء في البيت. جابهه حسن بالقول: «أتعلم كم شخصا التحق بالعمل بهذه الطريقة؟ لن يعلموا. حتى لو عرفوا سيتجاهلون الأمر. هذا بلال! أتدري كيف يعمل معهم؟». أخوه الكبير لم يلن. «أنت في ضائقة مالية.. ضائقة شديدة جدا. أتظن أني لا أعلم؟»، قال حسن. نال عندئذ صفعتين من أخيه الكبير. «ويحك، وما شأنك أنت؟ هذا شأني أنا! ستذهب إلى المدرسة. ما عندي سوى هذا الكلام!..».

كان هذا، أول شجار كبير مع أخيه الكبير. ارتعد الأطفال. خافوا جميعهم، وبكوا. نهض قادر تشيتشك، وذهب إلى المقهى. عاد في ساعة متأخرة من الليل. لم يفتح الموضوع ثانية. لم يتكلم مع حسن. أملى حساب دين خشب البيت على كمال. في اليوم الثالث، بعث سفرا لاقتراض مال إضافي من ابن بلده عوني. عاد سفر خالي الوفاض. في اليوم الرابع، حمل سرير عثمان الهزاز. المهد لم يُسترجع ثانية، لكن قادر بعث مساء مع سفر

ثلاثة أرغفة ومعلاق خروف. هو لم يأتِ. اليوم الخامس، كان يوم توزيع المياومات. سكينة تشيتشك، لم تبعد عينها عن باب الفناء. انتظرت عودة زوجها لتشعل موقد غاز البوتان: «إذا أحضر لحما مفروما فسأطهوه مع البطاطا على الموقد..».

لم يتوقف هطول الأمطار. لم تستطع الرافعة والمقطورة دخول الأراضي الزراعية طوال الشهر إلا نادرا. العمل الإضافي، والحوافز المالية، ما كانا موضوع بحث. حتى أيام العمل كانت معدودة. «لن يتجاوز السبعمئة هذا الشهر. لن يكون أكثر من ذلك»، قال قادر تشيتشك. ما عادت زوجته، منذ وقت طويل، تجري حسبة مصروف البيت لكامل الشهر. أصبحت حسبتها لقضاء أقرب مساء وأقرب صباح فقط. صعد حسن فوق السطح، ليثبّت قطعة زينكو على مواقع تسرب مياه الأمطار. كان يرى زوجة أخيه كلما انحنى وانتصب فوق السطح. تناقص عمل زوجة أخيه يوما بعد يوم. أصبحت تغسل عددا أقل من أواني الطبخ يوما بعد يوم. راكمت الغسيل. وعندما لا يبقى مجال لتأخير أطول، كانت تغسلها بماء غزير فقط. كانت تدعك ياقات القمصان المصبوغة بالعرق بقبضة من تراب صلصالي.

أدخل حسن يده في جيبه، وأخرج هويته المزورة. نظر إلى البطاقة وكأنها الإكسير الناجع للجميع، ثم نزل عن السطح. رأى زوجة أخيه تدفع تجمّع مياه بطرف حذائها البلاستيكي الأخضر دون أن تلوثه. «كم هو عنيد أخي الكبير هذا!.. كم هو عنيد..»، قال. أرادت سكينة تشيتشك الدفاع عن زوجها. لكنها في تلك اللحظة لم تجد مبررا للدفاع.

«لأنه يفكر بك..»، قالت فحسـب. «لـو أعمل هذا الصيف.. ولاحقا أعود للمدرسة..».

قبل أن ينهي حسـن كلامه صرّ باب الفناء. اندفعت سـكينة نحـوه. رأت يدي زوجها غير خاويـة. امتدت نحو الرزم الملفوفة بأوراق جرائد قديمة. «خذي.. أعدي لنا شيئا نأكله». بدا صوت قادر تشيتشـك مختلفـا، ووجهه كان مختلفا أيضـا. «هل أنت مريض يا قادر؟».

لم يجب قادر. منذ عدة أيام، وهو لا ينبس ببنت شـفة. اتجه نحو حسـن دون أن ينظر إلى وجهه. تهيأ حسـن لينال صفعات جديدة من أخيه الكبير. رتب ما سـيقوله في داخله جملة جملة. مـرّ أخوه الكبير من جانبه، حتى وصل إلى جوار المصطبة. نظر إلى يديه. شبك أصابعه وفرقعها. «اذهبي أنتِ، ضعي شيئا على النار»، قال مكررا لزوجته. حكّ حسن الحائط الترابي بالشاكوش الذي بيده، فتساقط التراب المنتفخ من فوره على الأرض.

«حسن..»، قال قادر تشيتشك، تعال إلى جانبي».

تقدم حسن نحو أخيه الكبير، دون أن يقترب كثيرا.

«غدا سـنذهب سويا إلى المشروع. سـيدققون بأوراقك. إذا كانت مناسبة، ستحصل على عمل».

شعر حسن بوخز في غدده اللعابية. أحس بحرقة في عينيه. «لتسلم يا أخي»، قال، كاتما الوخز والحرقة.

«تم اقتطاع دين النجار من يومياتي، بعلم رئيس الورشة، فقد وعدت أن أسددها هذا الشهر».

لم يقـدّم قادر تشيتشـك أي توضيح آخر. ثـم تابع كلامه: «ستعمل معي. ربما ستصبح معلم رافعة ناجحا أنت أيضا». وقال

حسن «سـأصبح». «ليقتطعوا ديونك، لا بأس. أما أنا فلا ديون علي»، قال متلعثما. «يعني مـا أقصد قوله.. على الأقل، نُقتطع من جهة، فتنقط من جهة أخرى.. أليس كذلك يا أخي؟».

كان المهندس نظيف يقف مترددا.

«مـن الأفضل إفـراغ المقطـورة. ليذهب، ويبقَ بـلال جوار الرافعـة»، قال. «في الواقع، أجل.. من أجل بلاطة واحدة.. على أية حال، أنزلوها».

تكلم قادر تشيتشك بتصميم:

«سيكون عملا إضافيا يا سيد. سنركّبها الآن. نركّبها ونذهب».

لـم يُجب المهندس نظيف. سـار متفحصا مـا تم تركيبه من بلاطات طوال اليـوم. طاف بجانب القناة الإسـمنتية الجاهزة مـن أولها حتى آخرها وسـجّل في ذهنه موقـع إحدى القواعد المتشققة، ثم عاد إلى شاحنته.

«على الرغم من ذلك كونـوا حذرين»، صاح قائلا للفريق، ثم ركب الشاحنة، وانطلق باتجاه الشرق.

أمسك ذراعُ الرافعة آخر بلاطة بإحكام، ورفعها.

جذب حسنُ حبل الوسط الفولاذي بشدة.

دار ذراعُ الرافعة ببطء، ودخل أسفل خط التوتر العالي بحذر. لم يتجـاوز مجال الخط ولا بمليمتر واحد وكما عايره السـائق بعينه. أخذ اسـتقامة البلاطـة، وهبط قريبا مـن القاعدة، ثم انتظر هناك برأس محنيّ.

انتظر قادر تشيتشـك بصبر نافـذ. ما عاد قادرا على تمييز نظرات حسـن. انتظر سـماع صوته. هو، يزداد رجولة كل يـوم، ولم يبقَ سوى سـماع صوت أخيه كأنه صوته هو ليقول «أفرغ».

لكن عثمان مدّد على عجل، قطعته من الحبل المقطرن على نحو غير سـليم. الحبل ما كان في مكانه الصحيح. حسـن، ودون أن يترك حبل الوسط الفولاذي من يده، نادى على مساعد اليسار:

«اضبط الحبل! اضبط الحبل!.. ركّبه في مكانه يا عثمان!..».

دفع مسـاعد اليسـار البلاطة قليلا ليضبط الحبل. أراد أن يُفسح مجالا لحركته. لكنه لم يكن كافيا. أزاح البلاطة أكثر. أراد قادر تشيتشـك أن يصيح: «هل تلعبون؟»، فجمع أنفاسه ليطغى صوتـه على ضجيـج الرافعة، فتح فمه، لكنه لم يسـتطع إكمال قوله:

«هل..».

انزلقت البلاطة واختل توازنها فارتطم أحد أطرافها بالأرض. عندئـذ، أفلت الحبل فارتدّ ذراع الرافعـة إلى أعلى. دخل ذراع الرافعـة المرتد إلى أعلى فـي مجال نفوذ خـط التوتر العالي، فأحكـم قبضته على حسـن الذي كان ما يزال ممسـكا بالحبل الفولاذي بيده، وأفرغ في جسـده ما يقل بكثير عن واحد بالمليار من طاقته. تحول إلى قطعة فحم سوداء ضخمة، ظلّت معلقة في طرف الحبل الفولاذي.

بـدأ العمل باكرا. أما الآن، فقد طلـع القمر منهكا من خلف طبقـة بخار كثيفة، بعد صراع ولهـاث، صاحَبَه تعرّق طويل بلّل السـهل. نور مبلّـل كان يداعب قطعة الفحـم الضخمة المعلقة بطرف الرافعة.

شاهدت سكينة تشيتشك، تصاعد الفقاعات على سطح اللبن بازدياد. طال انتظارها. هبطت الفقاعات إلى الأسـفل. عندئذ، نفد صبرها، وما عادت تحتمل الانتظار أكثر. تركت الأطفال عند

ســـفر. توشّحت وانطلقت مصطحبة كمال، تتابع إشارات أعمدة خط التوتر العالي المنتصبة في وحشة حقول القطن السيالونية، متجهة نحو حشــد متجمهر وسيارات حكومية لا تتوقّف أنوارها الزرقاء والحمــراء والصفراء عن الوميــض. لكن، وقبل وصول سكينة تشيتشك إلى هناك، مرت عربة شرطة من طريق إسفلتي مطلقــة صفارات إنذارها. اتجهت نحو المدينة بالاتجاه المعاكس.

أحد الرجال في عربة الشرطة:

«تدعي أنه أخوك؟» قال لقادر تشيتشك.

كان قادر تشيتشــك يبدو أكثر ســوادا من قطعة الفحم التي بطرف ذراع الرافعة. كمثل قطعة الفحم الســوداء لا يصدر عنها صوت، هو أيضا لم يصدر عنه أي صوت.

«هكــذا إذن، حادثة عمل؟» قال، شــرطي آخر فــي العربة: «أتمنــى أن يكون لديكم تأمــين. إن كان حادثة فذلك لصالحك. مال أخيك سيؤول إليك».

نظر بريبة إلى قادر تشيتشك.

«عمل في عمر مناسب. كما لأخيك تأمين»، قال آخر.

نظر إلى قادر تشيتشك بحسد.

عادت الأمطار للهطول ثانية.

الأقنية الترابية ضعيفة الميل والمخترقة السهل باتجاه البحر، لم تســتوعب الماء الفائض عن حقول القطن، فتشكلت بحيرات صغيرة ساكنة في الحقول.

أنتج الســد الواقع في الشمال، طاقة كهربائية أكبر، وأفرغها في خط التوتر العالي. أفرغها بلا توقف.

امتد خط التوتر العالي على السهل، من فوق الأعمدة، حاميا

حماه، متفرّعا عند مداخل المدن الكبيرة يتابع مسـيره، باسـطا أذرعه في الشـوارع، ليخترق أحدُ أدق أذرعه المتفرعة السـقف القشي لبيت قادر تشيتشك، بينما تكمل أذرعه الأخرى الانقسام بأقطار تزداد صغرا لتحمل من طاقته ما هو أقل بكثير من واحد بالمليار إلى السـجون المتزايدة باسـتمرار لتصـل إلى المصابيح الكهربائية المعلقة في أسقف المهاجع لتنيرها حتى الصباح بضوء ميت أشـبه بلمعان أبعد نجم. لم يُبعد قادر تشيتشك عينه أبدا عن الضوء الباهت في المهجع. نظر طويلا بلا كلل. نظر لشـهور طـوال حتى أدرك نور الكهرباء جيدا. أدركه وأفرغه في دماغه، فتوتّر. كان كل صباح، يتوتّر عاليا أكثر.

فوروزان
FÜRUZAN
1935

ولدت في إستانبول. توفي والدها الحِرَفي وهي صغيرة السن. لم تتهِ سوى تعليمها الابتدائي لضيق ذات اليد، فحيل بينها وبين إكمال دراستها، لكنها ثقفت نفسها إذ كانت تهوى المطالعة منذ نعومة أظفارها، كما تعلمت اللغة الألمانية أثناء إقامتها في برلين وأجادتها وكتبت بها.

عملت على خشبة المسرح لفترة قصيرة. تبتعد الكاتبة عن الأضواء والتحدث عن سيرتها، ولكن من المعروف أنها بدأت مسيرتها الأدبية عام 1956 بنشر قصص قصيرة في المجلات الأدبية التركية المختلفة.

عالجت بحساسية مفرطة معاناة النساء اللواتي وقعن في الرذيلة، والفتيات اللواتي يغرر بهن، وانحلال العائلات البرجوازية، والمعاناة من شروط الحياة الحديثة القاسية، وصراع البقاء في ظل الفاقة. قدمت أعمالا عدة في مجالات القصة القصيرة والرواية والمسرح والشعر والرحلات. كما أعادت بناء العديد من أعمالها لتعرض على خشبة المسرح والسينما والتلفزيون،

وقـد حصد فيلمهـا المأخوذ عن قصة لها بعنـوان «حياتي فيلم سينمائي» جوائز المرتبة الأولى في مهرجان كان للسينما (1990) ومهرجان فجر الإيراني (1991) ومهرجان الفيلم الآسـيوي في طوكيـو (1991)، كما حصلت على مرتبة الشـرف في معارض الكتاب في كل من أنتاليا (2007) وإسـتانبول (2008) وإزمير (2008). وتُرجم العديد من أعمالها إلى لغات عدة.

أعمالها:

مجموعـات قصصيـة: داخلـي مجانـي (1971)، الحصار (1972)، حياتي فيلم سينمائي (1973)، موسم الورود (1973)، الوجه الآخر لليل (1982)، موسم الورود (1985)، صيف مليء بالشجن (1999).

رواية: جيل السـابعة والأربعـين (1974)، زهرة رمان برلين (1988).

مسـرح: قصائد عشـق لرديفة (1981)، قبل حلول الشـتاء (1997).

رحـلات وتحقيقات: نـزلاء جـدد (1977)، أصحاب البيت (1981)، رحالة البلقان (1994)،

شعر: مدينة الرياح الغربية (1991).

وكتبت باللغة الألمانية كتابا بعنوان أطفال تركيا (1979).

نالت عام 1972 جائزة «سـعيد فائـق للقصة القصيرة» عن أول كتاب نشـر لها عام 1971 بعنـوان «داخلي مجاني»، والتي اختيرت منه قصتها ضمن هذه المجموعة القصصية.

ونالـت عام 1974 جائزة «المجمع اللغوي التركي للرواية» عن روايتها «جيل السابعة والأربعين».

الريفية

قالوا انعطفي عند نهاية الزقاق، عند نهاية أشــجار الســنط المشذبة بنفس الطول، إنه البيت ذو الأباجور الأخضر. كان قبيل مساء يوم حار قد انقضى، حين ترجلت من الحافلة، كما أنه كان يــوم أحد. لا يمكن لفتاة وحيدة مثِلي أن تعبّر عن مدى الصعوبة في أن تحب أيام الآحاد.. آحاد مهلهلة متراخية أسفلها قد خطّ..

كل البيت قد غشاه لون معتم؛ باب الحديقة كان محاطا بورد أبيض دائم التفتح.. قطة سوداء عند الورود تلعق فراءها.

عندما قرعت الباب، ســمعت كلاما غير واضح من الداخل، الحديقــة الداخلية ليســت بنفــس الاعتناء مثل تلــك الحديقة الأمامية، رائحة قمامة نتنة كانت تفوح من هناك.

آآآ أهلا وسهلا بكم.

كلام حولي قيل للخادمة الصغيرة.

أخذتْ حقيبة سفري مني، أدركتُ أن ذراعها قد عانى من ثقلها.

(علــى نحو ما مر في ذاكرتي مشــرب الشــاي حيث ذهبت الصيــف الماضــي برائحته، وصوتــه، ونافورته.. ألا يشــبه هنا كثيرا؟).

عندما فُتح الباب شاهدت خالتي، كانت كما وُصفت لي سيدة مهيبة.

(امــرأة متعلمة، إفراطهــا في نظافة بيتهــا مضرب المثل.. مقتّرة، ولكن حســنا، ذلك نوع من الشمائل، فقدتْ باشا عظيما، كتمت ألمها في داخلها بكل نبل، بكت واكتوت، لكنها حافظت على نظــام بيتها. لا أكذب، فأنا أخشــى الله، كما كانت في شــبابها واحدة من الجميلات المعدودات).

كانت تجلس خلف زهرية زجاجية ضخمة، وفي الزهرية زنابق جفت ويبســت. الغرفة بدت مثل باحــة معتمة، كزقاق تعبق فيه رائحة الغبار بعد أن غابت الشمس عنه. خالتي بثيابها الرمادية، تبســمت لي ومدّت يدها، صافحتها، فأدركت هرمها من ملمس جلدها الجاف العديم النداوة.

كانت تبدو أنها تســعى للحفاظ علــى جمالها القديم بصبغ شعرها وارتدائها ثيابا أنيقة بلوني البيج والرمادي.

(لا أعرف عمر أختي الكبرى، أظن أن بيننا عشــر ســنوات. لا تفصح عن عمرها على وجه الدقة، إما أن تقول كبيرة جدا أو صغيرة جدا. كيف لي أن أعرف يا ابنتي، لقد عانيت كثيرا، ربما من يراني الآن يظنني أختها الكبرى، وهل هذا بالأمر السهل؟..).

- كيف حال أمك؟
- بخير.
- وأختك الكبرى؟
- هي أيضا بخير.

فتاة صغيرة دخلت، في ســاقيها اعوجــاج، مذ فتحت الباب وابتســامة تعلو وجهها. لم تغب الابتسامة عن وجهها حتى وهي تتحدث.. أمر مدهش للغاية.

«يورداغول»، قالت خالتي. اذهبي وأعدّي الليمونادة، لا تتركي

باب المطبخ مفتوحا، تلـك القطط القذرة تدوس أينما يكون في الحديقة، انتبهي!

كلمة «انتبهي» خطفت الابتسامة من وجه يورداغول.

عظمة إبهام قدمَي خالتي بانت بوضوح من حذائها الشاموا. شبكت على ياقة ثوبها دبوسا بياقوتة حمراء أنيقة (اعتقدت أنها حجر ياقوت لأنها حمراء اللون).

(أختـي الكبرى أنيقة.. تجيد اختيار ما يناسـبها من ثياب. قدّم لها الباشا ساعة مطلية عندما كشف النقاب عن وجهها في حفل زفافها. قلّدها أشـياء أخرى عديدة، لكن الساعة المطلية، هي أكثر ما أبهر نظري. كم كانت جميلة تلك الزهور التي نُقشت على السـاعة، رائعة جدا. لم أتمالك نفسي، فطلبت أن أتقلدها مرتين. أنت مهملة قد تسقطينها وتضيع، قالت: وهل تقع الساعة مـن الرقبة؟ كل مـا تتقلده حقيقي. ليسـت مثلي فهي لا تحب المبهرج. خالتك زوجة باشا بكل معنى الكلمة. اِعرفي ذلك).

توقفنا عن الكلام برهة.

أغطية نظيفة منشّـاة وُضعت على مساند الأرائك الخضراء المخملية. لم أكن أوجه نظري إلى خالتي مطلقا. نفور اسـتوطن بيننا. قلّت كثافة شـعرها، فقد كان يلمع جلد رأسـها من أماكن متفرقـة. وضعت سـاقيها الضامرتين الواحدة فـوق الأخرى. عظامها البارزة من حذائها بدت أكثر وضوحا في النور.

إذن فأنـت مصممة على دخـول الجامعة. والله لا أدري ماذا أقـول يا ابنتـي. ماذا جرى بعد أن درّسـنا جالى. تزوجت وهي صغيرة، وشـهادتها الكبيرة ليست سوى زينة. كما أن وضعنا كان جيدا. أمك تعلم أن جالى العزيزة كبرت دون أن تلمس يدها ماء

الجلـــي بفضل أبوّة المرحوم وقلبه الكبير (تنهدت بعمق وضغطت أنفهـــا بمنديل نظيف). كان الخدم جاهزين دائما لخدمتها. لكن الآن، بعد ذلك الدلال وفتيّ عمرها كالأميرات..

ركّزت نظراتها على وجهي، وسكتت.

عندئذ، أدركت موقف خالتي العدائي مني.

ما زلت حتى الآن أســتغرب من حال أمـــك، ليتها أبدت ذلك الاهتمام نحو رجل آخر..

(أنت لا تعرفين أباك يا ابنتي. كنتِ في السادسة من عمرك عند وفاته.. أذكر كيف كان يملأ الماء من أقنية المدينة في وسط الأناضول ويســقي الحدائق. كان دور حديقتنـــا يأتي دائما في الليـــل، كان لتلك الليالي تأثير على مشـــاعري. أمي تدثر أصغر بناتها جيدا وهي شـــبه نائمة، فليالـــي الأناضول باردة حتى في الصيـــف، وعبق الماء الصافي يجلب النعاس. جنة الطبيعة تجلب الصحة حتى خمس ســنوات من عمر المـــرء. هيا اصحي فالمياه تســيل نحوك.. رائحة اليانســـون تصل حتى الصالون من غرفة نـــوم الكبار. فالأب أبي.. رغـــم معرفته بضيق حال أمي، يمضي كل ليلة فـــي مطعم المحطة ذي النافورة الذي يقدم المشـــروبات الروحية. بعض من الجبن الأبيض مع العرق، وفي الصيف يقضم بطيخا. زجاج قطارات نائمة تأتي من المدن الكبيرة وإليها. أليس في قلبك مخافة من الله؟ وهل يحتسى المشروب كل ليلة؟ أشفق على نفسك على الأقل. كان رجلا جميلا. طول وطلة..).

كان أبوك رجلا وسيما يا بنيّتي.

تناولت خالتي الليمونادة التي جلبتها يورداغول.

الكؤوس كانت بمقابض من فضة.

لكن ليس ذلك أول ما يؤخـــذ بعين الاعتبار في الزوج. أليس لعزيزتـــي جالى عواطف؟ لم تعدّ فنجان قهوة قبل زواجها. لكنها الآن تدير رجلا اعترك الحياة ويكبرها بعشرين عاما، بالإضافة لخـــدم البيـــت. لا أريد أن أقدم نفســـي مثالا آخـــر أيضا. لقد أخطأت أمك يا ابنتي. أنتـــم من يعاني. أنت الآن بهذه الضائقة وتحصيلك الجامعي..

رأيت لوحة واحدة معلقة في الغرفة. كانت لوحة لخريف تعج أنحاؤها بألوان بنية وبرتقاليـــة. امرأة اختفت خلف قبعة كبيرة جدا عند نهاية الطريق.

كانـــت خالتي تنظر إلي بابتســـامة زائفة لتتجنب إظهار طقم أسنانها الصُّنعية.

الليمونادة طيبة المذاق، قلت.

سكّرها زائد.. أنتم مازلتم شبابا لكن نحن من مضى عمرنا. بدأت مشكلات القلب والضغط. كيف ضغط أمك؟

(أنت أرملة شابة جدا، تزوجي، قال الدكتور. يبدو أن هذا التعرق وهذا الخفقان منه يا بناتـــي. هاهاهاي قلت للدكتور. لدي بنتان، ذلـــك يعني أن لدي زوجين. تندفع أختـــي الكبرى. صحيح ما قاله الرجل يا أمي العزيزة. لماذا تمانعين؟ تسكن عينا أمي الخضراوان العســـليتان. الزواج ليس من أجل الزواج فحســـب، تقول. من بعد رجل كأبيكما.. هناك خلال النهار، كل شـــيء يصطبغ بلون التراب الطاهر. يهتز الســـوق على وقع خطوات حمير القرويين القادمين بتواتر، ويمرون من أمام النافذة. ستائرنا من قماش قطني شفاف. جمال أمي بألبستها السوداء الأنيقة عند ذهابها لحفلات الزفاف في نادي الجيش، كان مدار حديث في تلك المدينة.

- لو نرسل لجديك رسالة في العيد على الأقل يا زوجي العزيز.

- دعكِ من هذا، وهل ذلك لإسعاد أختك الكبرى التي بقيت في ذلك البيت؟ من قال إن المال هو كل شيء يا بناتي، لقد عانيت كثيرا، لكنني امرأة تشمّر عن ساعديها عند استقبالها الجيران. لقد أسعدني أبوكم بقدر ما أحزنني. أنا امرأة بسيطة. لم أنتعل خفا قط في بيت خالتكم).

لقد أعددنا لك الغرفة الوسطية.

صورة للباشا بلباس مدني، أعلى البوفيه الذي يضم أطقما من الفضة. لم يكن كالباشا الذي عهدناه في طفولتنا. كان الباشا أكثر حيوية وبلا تجاعيد.

كم ساعة مضت على مجيئي.

أتوقع أن الغرفة الوسطية قد فُركت ونُظفت بعناية شديدة. هذه المرأة المسنة بما تفرض حولها من شخصية مهيبة، لا بد أنها تضيف إليها صرامة في النظافة.

(الطعام يجب أن يكون نظيفا جدا. لا يُغسل هذا الخس دون عناية زائدة، أقول لكم. لكن في الواقع، لا أقدر على مواجهة كل فوضى البيت وحدي. أبوكم السكّير من جهة، وبناته المهملات من جهة أخرى.. كان غضب أمي يتحول على نحو غير عقلاني. في الحديقة الخلفية «كنا نكبت قهقهاتنا». جسم أختي الكبرى الذي كان ينمو أكثر فأكثر، في الخس لذة الربيع، كانت تدعوه بالحياة الحقة).

أجد غرابة في أكبر المدن هذه. أجد نفسي خارج هذا العالم. اذهبي وأقيمي هناك، فهي خالتك، قالوا لي. أدرك من حديثها

وتساؤلاتها التعجبية. وما الذي سألته؟

تحدّق بي، كأنها تزداد غضبا وهرما. تستأنف الكلام.

لن تقصي شعرك، أليس كذلك؟

هه، أقول.

رغم أنني سأقصه.. كما سأقصه قصيرا جدا. سأحمل كتبي في يدي، ليست كتب دروسي ولكن كتب كتّابي المفضلين، وأتجول في الأماكن المزدحمة. سأبحث عما قرأته لدوستوفسكي عن سكون عتمة أشجار المشمش التي تظلل الشرفة المطلية بالشيد وعن رائحة المياه الدائمة.

أفهم أن خالتي لا تريدني حتى أن أتذوق مرارة كوني فتاة ريفية.

فتحت يورداغول الغرفة. تطل نافذتها الوحيدة على جدار البيت. شجرة برقوق أوراقها هزيلة ومريضة، في قاع النافذة.

أستيقظ في السادسة صباحا يا آنسة، أوقظك في الساعة التي تريدين إذا كان عندك عمل ما.

أخرجت من حقيبة سفري قطعة قماش بزخارف ملونة، أرسلته أمي هدية ليورداغول.

(حذار لا تقدميها لها بنفسك يا ابنتي. لا تحب خالتك «رفع الكلفة» مع من يخدمون عندها، لتعطها هي).

هذه لك يا يورداغول.

شكرا جزيلا يا آنسة.

لا تعرف اسمي. كان يجب أن أخبرها. يجب أن أعلم أن البيت الذي لا تُرفع فيه الكلفة لا ضرورة فيه لمعرفة الأسماء.

سوف تُصفّ الجوارب والمناديل والمنامات في الخزانة.

لا مــكان للإهمال فــي هذا البيت. أنا أيضــا انخرطت بقواعد نظام هذا البيت.

أصوات طعام العشــاء تصــدر من المطبــخ. قرقعة الأطباق والشوك.

على الفور عللت نفسي برائحة زعتر تفوح من بعيد.

بعدئذ سأبكي.

يناير 1968

سيفغي سويسال
SEVGİ SOYSAL
1976-1936

ولدت في إســـتانبول. أكملت الثانويــة في أنقرا عام 1952. درســت علم فقــه اللغة في جامعة أنقرا، ثم تابعت دراســة علم الآثار والمسرح في ألمانيا بين الأعوام 1956–1958. بعد عودتها إلــى تركيا عملت في المركز الثقافي الألماني وراديو أنقرا ومعهد الدولة للفنون المســرحية، ولعبت دور المرأة الوحيد في مسرحية «وســام النصر» على مســرح الميــدان في أنقرا. ثــم عملت في مؤسسة الإذاعة والتلفزيون عام 1965 حتى اعتقالها ومحاكمتها بتهمة الانتماء لتنظيم يســاري، وذلك إثر تولي الجيش الســلطة عــام 1971. وبعد أن أمضت ثمانية أشــهر فــي المعتقل، كتبت خلالهــا روايتها «ظهيرة يوم في يني شــهير»، كما شــاركت بعد خروجها من الســجن بتأسيس وكالة أنباء «أنكا» ورابطة الثقافة الاشتراكية.

نفيت عام 1972 إلى أضنا لمدة شــهرين ونصف. بعد انتهاء محكوميتها عادت إلى إســتانبول لتعمل كاتبــة زاوية يومية في صحيفة «بوليتيكا»، كما نشــرت في الصحيفة نفسها مذكراتها

في السـجن جمعتها لاحقا في كتاب بعنوان «مهجع النساء في معتقل يلدرم»، حتى إصابتها بالسـرطان عام 1976، فسافرت إلى لنـدن للمعالجة، وهنـاك كتبت على فراش المـوت روايتها الأخيرة «أهلا بك يا موت».

بـدأت حياتها الأدبية عام 1960 بكتابـة المقالة والقصة في مجلات «المشبك» و«الرفيق والشراع»، وامتازت كتاباتها بالفكاهة السـوداء من الواقع ونقد المجتمع والعملية السياسـية، وجعلت من نضال المرأة لإثبات هويتها الشـخصية موضوعا أساسيا في أعمالها.

مـن أعمالها في مجـال القصة القصيـرة: خصلة عاطفية (1962)، الخالة روزا (1968)، طفل يدعى سلام (1976).

وفـي الرواية: المشـي (1970)، ظهيرة يوم في يني شـهير (1974)، الفجر (1975)، أهلا بك يا موت (1976).

جمعت عام 1976 مذكراتها في السـجن بكتاب تحت عنوان «مهجع النسـاء في معتقل يلدرم»، وجُمعت مقالاتها عام 1977 بكتاب بعنوان «الرؤية».

عام 1966 ترجمت من الألمانية «حارس القبور» لفرانز كافكا، وعـام 1969 «وصل جودو» لميـودراج بولاتوفيتش، وعام 1972 «البنسات الثلاثة» لبرتولد بريخت.

عام 1991 حُوّلت قصتها «الخالة روزا» إلى فيلم سينمائي.

نالت عام 1970 جائزة المؤسسة العامة للتلفزيون للفنون عن روايتها «المشي».

ونالت عـام 1974 جائزة أورهان كمـال للرواية عن روايتها «ظهيرة يوم في يني شهير».

خصلة عاطفية

هي الأمور مختلطة هكذا، الناس في الشـــوارع لا يرونني، مع ذلـــك، فعواطفي تتنقل بين خصلات شـــعري ليـــلا ونهارا. بعيد ظهيـــرة رطبة، توقفت عنـــد مفترق طرق؛ عفونة تســـبب دوارا بالرأس، الســـيارات تمر بلا انقطاع، تمـــر وعلى زجاج نوافذها وجهي الأحمر الغاضب، عبرت ممر المشـــاة ثلاث مرات، شرطي المرور لم يرني، «اســـتعراض،، اســـتعراض!» صرخت في وجهه، لم يخفف ذلك من غلواء قهـــري. الغضب يغمرني حتى أخمص قدمي، أخمـــص قدميّ يحترقان كأنني أتجـــول حافية القدمين علـــى رمل شـــاطئ متأجج تحت شـــمس الظهيـــرة. غضبي من الرجال، جميع الرجال وبخاصة الذين لا يحبون ســـوى أنفسهم من بعد أنفســـهم. حشد غفير من متبلدي المشاعر بمعاطف بزرّ أو بزرّيـــن أو ثلاثة، يمرون بكثافـــة. كان لدي بصيص أمل بمـــن لا يرتـــدي معطفا أو ربطة عنق، لكن هؤلاء لا يتجولون وحيدين، إنهـــم عاجزون، لم أصادف، لم أصادف أحدا منهم، لو تصادفنا أو لم نتصادف فنحن ذاهبون للصيد.

وصلت إلى موقف الحافلات، نساء بصحبتهن أطفال، نساء مع حقائب وبلا أطفال، حقائب بلا نساء، فتيات يمضغن اللبان، دائما ينتظرن وقد ربطن شـــعرهن كذيل الفرس وهن يمضغن

اللبان، لأنتظر معهن، ليت المطر يهطل، فيغسل هذه المواقف. فتيان اثنان من المدرسة الثانوية يجلسان على الرصيف، هما ينتظران أيضا، اقتربت منهما، أشرت بيدي ليتباعدا، توسّطتهما بلطف، حدقا باندهاش، أحدهما «عجبا» قال، «الحافلة» قال، وقال الآخر «دعنا نمشِ»، لمست وجنتيّ الاثنين في آن واحد، قلت لمن على يميني «لحيتك خشنة، استخدم الموسى لحلاقتها». لم يحد كل منهما نظراته عن صندلي، بدأت بتحريك أصابع قدمي، نهضا فجأة وابتعدا مسرعَين، نظرت إلى الواقفين في الموقف، عبروا إلى الرصيف المواجه، هل كانوا سينتظرون معي، هل كانوا قادرين على الانتظار؟ لو وصلت الحافلة، لكنت لقنتهم درسا. جاءت الحافلة واقتربتُ من رصيفهم، نهضتُ ونفضت تنورتي.

هل كانت هذه المدينة هي المكان لإطلاق عواطفي في وضح النهار؟ هذه المدينة كانت على شارع باتجاهين، قادمون وذاهبون بالاتجاهين، بضع واجهات زجاجية، وبعض من الأبنية لا أعلم كم يبلغ عددها، وعدد كبير من مراكز الأحزاب. كل الذنْب يكمن في خصلات شعري، لو لم تتموج على هذا النحو، لما كنت عرضت عواطفي بأطرافها ولما استطعت عرضها، تمنيت تثبيت عمود كهرباء جديد، أو مرور مدحلة، أو وقوع شجار، حينئذ، كانوا سينظرون، لن يقاوموا المشهد، مجبرون على ذلك، بقاؤهم مرتبط بذلك.

شرعت بالسير صعودا في واحد من الشارعين اللذين يؤلفان المدينة، عندما وصلت إلى الأعلى، أضاءت المدينة أنوارها، حدقنا ببعضنا بيله.

هو ذا ثمرة نتاج اليوم - كوّة إطلاق النار - دوار الرأس هذا، كان ثمرة نتـــاج اليوم تحت قدمي، انهرت أمـــام الكوّة، أخرجت رغباتي من خصلات شـــعري، الواحـــدة تلو الأخرى، وألقيت بها من كوّة الرمي إلى الأسفل، اختلطت بمجاري المدينة، أووه! «هذا هو،» قلت، وهذا ما كان.

آيلا كوتلو
AYLA KUTLU
1938

ولـــدت في أنطاكيا عـــام 1938. أكملت تعليمهـــا الإعدادي في إســـكندرونة والثانوي في غازي عنتاب. درست العلوم السياسية في جامعـــة أنقرا وتخرجـــت عام 1960. بعد أن عملت في مؤسســـات حكومية لمدة عشـــرين عاما تقاعـــدت عام 1980، لتتفـــرغ للكتابة وأعمال السيناريو للإذاعة والتلفزيون والسينما.

بدأت حياتها الأدبية بالكتابة في مجلة «الإنسان الحر» في بداية الســـبعينيات. جعلت من تداخل التطـــورات الاجتماعية والتاريخية للمجتمع التركـــي موضوعا لرواياتها، وكتبت عن الحقب القريبة من منظور تاريخي. كما تعرضت بوضوح لقضايا المرأة واستقصت عالمها الخفي وبخاصة في روايتها «ملحمة المرأة» التي كتبتها بنفس هيكلية الملاحم الكلاســـيكية الشعرية، وربطت بين حكاية المرأة في العصور الأسطورية بحكايتها هذا العصر. كما كتبت للأطفال وفي السيرة.

كتبت ســـيناريو العديد من أعمالها، وحصـد الفيلـم عن قصتـها «لا تذهبـــي أنت أيضـــا يا ترياندافيليس» 14 جائـــزة محلية وعالمية كأفضل فيلم وسيناريو.عام 1996.

أعمالها في مجال الرواية: الهروب (1979)، الشمس المبللة (1980)، شجرة الحيزبون (1983)، المعتقلون (1983)، كان طيرا مهاجرا (1985)، دمت بالخير يا أوموت (1987)، ملحمة المرأة (1994)، بنات أمير بيه (الجزء الثاني من «كان طيرا مهاجرا» (1998)، المشي فوق النار (2004).

القصة القصيرة: قصائد عشق قرنفلية (1984)، لا تذهبي أنت أيضا يا ترياندافيليس (1990)، مقبرة النساء البغيضات (1995)، قصص مريرة (2001).

قصص للأطفال: مرحبا بالمحبة (1989)، صغير النجوم (1993)، طفل برأس عصفور (1995)، سيرك الخرق (1995)، الدب القطبي والعنكبوت الجوال (1995)، الروبوت ذو الزهرة (1995)، القطار الصغير الأزرق (1995)، الحذاء الذي يظن نفسه كلبا (1995)، ثلاثية التوائم المعجزة (2000-1997)، ثلاثية السلطان الصغير (2000)، هوفافا أول حامي للبيئة (2009).

وفي السيرة: الزمان يهرم أيضا -الجزء الأول- (2006).

نالت عام 1985 جائزة مدارالي للرواية عن روايتها «كان طيرا مهاجرا».

ونالت عام 1987 جائزة رشتو كوراي عن روايتها «دمت بالخير يا أوموت».

ونالت عام 1990 جائزة سعيد فائق للقصة القصيرة عن مجموعتها القصصية «لا تذهبي أنت أيضا يا ترياندافيليس»، والتي اختيرت منها قصتها ضمن هذه المجموعة القصصية.

ونالت عام 1995 جائزة يونس نادي للرواية عن روايتها «مقبرة النساء البغيضات».

القمر والماء

مرحبا! يراسـيم يتحدث مع الأطباء من أجلكِ، هو من طلبَ مني انتظاره، هل تذكّرتني؟ أنا من إسـكندرونة، درسنا سويا في نفس الصف فترة من الزمن، تركتِ المدرسة دون أن تكملي السنة الدراسية، لا أظن أنكِ نسيتِ أنني الصديق المقرب ليراسيم أخي زوجك، كان زوجك خريستو أكبر منا سنا، في الثامنة أو التاسعة عشرة من عمره، كان يُعدّ رجلا كبيرا عاملا يعيل أسرة، ما كانوا يعيرون انتباها للصّبْية أمثالنا.

كانت أعيادنا تتشـارك وتختلط ببعضهـا، وحدة الحال هذه استمرت حتى غادرنا هناك. بعد ذلك، تفرّق الناس في كل مكان وانقطعوا عن بعضهم، نُسـيَتْ مشاركة الأعياد والأيام السعيدة، أطلقوا كلمـة تدعى «الاندماج»، الاندماج مرسـوم أُجبرنا على قبولـه بالإكـراه، رغبة الاندماج بين البشـر تحولـت إلى كلمة بجرّة قلم، أشـمئز من الاندماج، رمتني بعيدا عن سعادة الحياة والصداقات التي أحن إليها.

لو قيل لي إننا سنبقى كلانا في غرفة واحدة يوما ما، ما كنت لأصدق، لكن، أبهذه الظروف! لا أحد يرغب.

هـل تريدين ماء؟ هل أفتح النافذة؟ أعلم أنكِ غير قادرة على الكلام، لا أفهم لغة عينيك، باعدتنا سـنوات طويلة، كلما مضت

الأيام تباعدت الأشـياء التي نتقاسـمها، ألا تستطيعين تحريك ذراعيك وقدميك؟

لقـد ازداد وزنك كثيرا، قال يراسـيم إن ذلـك من المرض، قال ستجدها قد تغيرت كثيرا لكن، مع ذلك، رؤيتك أعادتني إلى سنوات خلت، كنتِ فتاةً حيّنا، كان أخي الكبير يعشقك، كنتم تقيمون وأبوك في بيت كبير خرب، ما كان يراسيم وخريستو هناك في ذلك الوقت، كان بيتكم محاطا بسـور مبني من حجارة مستديرة ومن طين نهري خاص، وقد تهدمت بعـض جدرانه، كان في زقاق ضيق غير نافذ، أشـجار كاميليا كانت عند جدار البيت، أنا كنت صغيرا، الأشـجار كانت كبيرة، أنا كبرت، لكن الأشجار لم تصغر، لم أرَ بعدها شجرة كاميليا بهذا النمو، صدقيني، رغم أن المكان الوحيد الذي لم أره في هذه الدنيا هو الهند الصينية، لكن أزهاركم كانت مختلفة.

النافذة الوحيـدة المطلة على الزقاق كانت نافذة غرفتك، من بـاب الحديقة وحتى البيـت كان مزروعا بالبصـل والباذنجان، والبندورة، والنعناع، والرشاد، والفجل، باقات من المنثور والنجيل الهنـدي كانت تتفتّح بين الخضراوات، كنت أنتِ من ينثر بذورها بكفّيك، كان المنثور الأصفر والفوشـيا، وحنك السـبع والنجيل الهندي الوردي يتفجر بين سواد زرقة الباذنجان، وحمرة البندورة، لكن الأزهار كانت تسيطر على المشهد متغلّبة على الخضراوات.

شـاهدت النضـال ما بين أحـلام شـبابي وحصيلة عمري، لسـنوات طوال في معركة الحياة ما بين الأزهار والخضراوات، أحنُّ دائما إلى تلك الأزهار.

كانـت أشـجار الكاميليا تصطبـغ كل صبـاح، بحمرة آلاف الأزهـار، براعم مؤلفة من خمس وريقات بحجم اللسـان تتفتح

سريعا، وفي المساء تنغلق بنفس السرعة، اليوم الذي يليه، موجة حمراء تغطي الشـــجر من جديد، وفي ثلاثة أيام، كانت الأزهار الذابلة تطبع خاتم الموت الأحمر على التراب أسفل الشجرة.

كنت أظل منقطع الأنفاس.

في الأمســيات، وبعد العشـــاء، كنا ننهض، بإشـــارة من أخي الكبير، نضع أيدينا في جيوبنا مقلدين الرجال الكبار، ونخرج من البيت، نتظاهر أمام أهل البيت وكأننا ذاهبون إلى ساحل البحر، كنا نتجه إلى الجادة الرئيسية، لذلك كان الطريق يطول، ليكن..

نعود، ونمر زحفا من أمام باب بيتنا كي لا يرانا أحد، لم يكن هناك مغامرات مثيرة أخرى في حياتنا.

كنـــا نرى المصباح أولا، كان في غرفتك، كان أبوك في الغرفة الخلفية، يشـــرب نبيذه وحيدا، في نور الفانوس المرتعش، الذي لا يبدد العتمة، وأنت تكونين راكعة على ركبتيك، أمام أيقونة في الزاوية، يكون رأسك مرفوعا قليلا، أيٌّ خطيئة تلك التي تطلبين من أجلها المغفرة؟

كان المصباح يظهرك بوضوح، ما كنا نرى ســوى شعرك الذي تفردينه حتى أســفل خصرك، لكننا كنا ندرك أنه أطول من ذلك بكثير، ليغطي كعبيك ثم ينفرج على الجانبين، ويجرُّ على الأرض.

موســيقى الليل التي كانت تملأ أجواءنا، ما كان أحد يسمعها ســوانا، رغم عدم سماعنا لأنفاســنا، كنا على يقين من سماعنا أنفاســكِ، كنا نعتقد أنكِ تصلين ليكفّ والدك عن الشرب، رغم أن شعرك المتهدل كجدول أسود ورأسك المنحني يحجب الإضاءة عن عينيــك، لكنهما جعلتا ليالي أخي الكبير بيضاء، كانت أياما ماطرة، كانت المدينة تعيش شــتاءات لا تختلف عن خريف مطير

وضبابي، الزقاق أمام بيتكم كان مقعّرا، تتجمع الأمطار في ذلك التقعّـــر، وتبقـــى خطوط جافة رفيعة جدا عنـــد قاعدة الجدار، القمر ســـواء كان هلالا أم بدرا، يلامس سطح الماء، كنا نخوض فـــي الماء بهدوء، كي لا نموّجـــه، نتبلل حتى كواحلنا، لكن دون أن نعكّر صورة القمر، التهادي الذي تحدثه خطواتنا في سطح الماء كانـــت تخلطه، كان القمر ذهبا، والماء فضـــة.. نخلطهما، فيبدو هذا الخليط فقط في أعيننا وحدنا، جميلا ورائعا، كل الأصوات كانت تختفي في تلك اللحظة، كنت في أعيننا القمر الذهبي في الماء المتموّج وفي عتمة السماء، نخطو خطوة أخرى ثم نخرج من الماء الفضّي، نرجع إلى الخلف، لنخوض ثانية في الماء، وبعد عدة خطوات كنا نشعر بالبرودة في أقدامنا.

في منتصف الشتاء كانت الأمطار تكتسب صفة الاستمرارية، ما كانت المياه تملأ الحفر وحســـب، بـــل تغمر كامل الأزقة بمياه يصل ارتفاعها من إصبع إلى شـــبر، كانت الأزقة وكأنها ســـواق، أكثر ما كان يسبح على سطح المياه قطع الأخشاب، قشور قصب السكر والخروب، تتعتم ألوان قطع الأخشاب، ويظهر الزبد على أطرافها، تتمســـك بحواف الأرصفة الضيقة وتقاوم، يمر وقت، حتى تجـــف الأزقة فتتعفن القطع الصغيرة وتخرج منها الديدان بأعداد كبيرة، لتختبئ بين الرمال وتختفي سريعا.

لمـــاذا تفتحـــين عينيك؟ هـــل تريدين شـــيئا مـــا؟ أم أصابكِ الضجر؟ ألا تشـــعرين بأي من أطرافك؟ هل تريدين أن أحكّ لك جلدك؟ أدغدغك؟ يا ليديك كم تهالكتا! الماء، والصابون السيئ، والســـناج، والبرد سببُ تشقّقِ يديكِ، ما كنتُ أرغب برؤيتهما على هذه الحال، إذن لم تتغيّر حياتكِ.

كان والدك يستعد لبيع «القضامة السكرية» بحلول موسمه، مع بدء الهواء بالاعتدال.

بعد أن كنا ننهي تناول طعامنا في بيوتنا، ننطلق على طريق المدرسة، كان يقف منذ الصباح أمام مرجل القضامة السكرية المصنوع من الصفيح، يتصبّب عرقا عند فتح غطائه، فتتدفق نعمة إلهية من القضامة السكرية بلون أبيض نصف شفاف، رطبة قليلا، وساخنة قليلا.

ما كانت تحرق أكفنا، لكن وبعد وضعها في جيوبنا بفترة قصيرة، كنا نشعر بدفء يلامس أفخاذنا، مع هذا الدفء اللطيف، ورائحة القرنفل، نستمتع بلذة الطعم الذي يذوب سريعا في الفم، كان يبدد ضجر المدرسة ويختلط برذاذ المطر.

ما كان هناك فصول أربعة، الخضار يعمّ الأرجاء بكثافة شديدة، ما كان المرء يشعر أن الزمان يمضي، يتجدّد من النهار إلى الليل، ومن الصيف إلى الشتاء، القامات تطول، الصفوف تتغير، الأصوات تخشوشن، أحاسيس ورغبات كنا نجهل كنهها بدأت بالعدو كمهور برية في سهوب داخلنا.

كنت تصلين متأخرة إلى المدرسة، عندما يشعر والدك بالتعب أثناء إعداد القضامة، فيتوقف ليتجرع عدة أقداح من النبيذ عند البقال الذي في الجوار، أنتِ كنت تأتين متأخرة عنا جميعا، وقد تصلين في أحيان كثيرة، بعد دخول المعلمة، كانت خصلات شعرك الملتوية فوق أنفك وصدغيك تتخضل بالعرق، كانت نظرات عينيك الواسعتين ذات الأهداب، خجلة، كنت تغطين شعرك بعناية، مع هذا كانت بضع خصلات من شعرك تفيض من فوق أذنيك ومؤخرة عنقك، كنت تقصّينها بشكل غير منتظم، كان واضحا عدم رضاك عنها.

مــا كان يرضي أبــوك نمو نهديك، وتشــكّل قوامك، وامتلاء شفتيك. نموك، كان يعني له وقوعك على طريق الخطيئة.

قال يراسيم في الهاتف:

«أنا قادم وزوجة أخي، لاقيني في مستشــفى باليكلي للرُّوم، حتمــا، لا بد أن تأتي..». قال، لم يخطر بذهني أنه يعنيكِ بقوله زوجة أخي، الشــلل انتشر بجســدكِ، أليس كذلك؟ ماذا حصل؟ أعلم عدم قدرتك على الكلام، في الواقع، ما كنتِ تتحدثين أبدا، وإذا ما لزم الأمر، كنت تختزلين كلامك بكل اختصار.

يراســيم، لا يريد تركك وحيدة ولا للحظــة واحدة، يبدو أن زوجك قادم هذا المساء، لا شك أنك تعلمين.

كنتُ هناك، عندما ظهر والدك من مكان ما من خلف الدكان، نقودنــا كانت في أيدينا، ننتظر ما تعطيه لنا من حلوى بســخاء، بقلبــك الطيب دون أخذك الوزن بعــين الاعتبار، اختلط غضبه المدمر بتأثير المشروب، ضربَكِ بلا رحمة ولا شفقة، لم يوجّه لنا أية كلمة، مع هــذا، فررنا من الخوف كفراخ الدجاج البري، بعد ذاك الظهر، لم تأتِي إلى المدرسة.

ما أتيتِ ثانية أبدا، أمضيتِ الوقت ببيع القضامة الســكرية، تُعطينا بما يقابل نقودنا، دون زيادة، ودون أن تتكلمي مع أحد.

حــل الربيع، ثم حــل الصيف، عندما تفتحت شــجرة أزهار الحريــر في حديقتنــا، وتدلت منها لفائفهــا الوردية، حلم أخي الكبير أنه شــبكها كشريط زينة على رأســك، كل صباح يشبك جديدها، فــي البدايات، بدا لي وجــده وأحلامــه مضحكــين، ثم اعتدت في فترة قصيرة؛ وبينما تجلســين على كرسي القش، لحظة خلو الدكان المعتم من الزبائن، تضعين يديك على ركبتيك،

رأيت عناقيد أزهار الحرير الوردية المتلوية تغطي شعرك المتموج المتدلي.

كان أخـــي الكبير على حق، العشـــق دائما علـــى حق، عندما يأسرنا سحره، لا شيء أكثر متعة من العيش معه.

عندمـــا كنا نخرج من البيت باتجاه الشـــارع، كان أخي الكبير يقف تحت المصباح عند الناصية، يرفع رأســـه وينظر إلى النور، كان يتمثـــل له لـــون وجهك كذلك النور الأصفر الشـــاحب، ذلك كان واقعا، بعد ذلك بوقت لاحق، أصبحنا نرفع رأسينا معا حين وصولنـــا تحت المصباح، لقـــد أذن لي أخي الكبيـــر بالوقوع في غرامك.

هو، ذهب إلى المدرســـة العسكرية، نســـي حب الطفولة بعد وقت قصير، أنا، لم أنسَ.

مـــا عدتِ تأتين إلى المدرســـة، أخي الكبيـــر أصبح في مكان بعيـــد، ألحق والـــدك صبيا صغيـــرا ليعمل عنـــده، بعدما تعلم الصغير العمل، حبســـتِ نفســـكِ في البيت، كل التعاويذ بطُلت، كانـــت أزهار الكاميليا تطلي واجهة بيتكم بأحمرها القاني، أنتِ، مـــا عدت النور في عتمة الدكان ولا في عتمة منعطفات الزقاق، كنتُ أختنق لعدم تحدثك مع أحد، كان القمر يســـقط على سطح المـــاء، أدخل وحدي إلى الماء على نحـــو أخرق، كنتُ أجعل القمر يهتـــز ويحزن، أخـــوض في الماء، ودون انتظـــار القمر حتى يعود إلى مكانه من جديد، لأقـــف أمام باب حديقتكم، ما كنتُ أراكِ.

استأجرت عائلة يراسيم القسم الأمامي من البيت، لست أدري، ربما لهذا الســـبب أردتُ أن أصادق يراســـيم، مهما كان السبب، فالنتيجة كانت حسنة.

حتى أني ويراسيم قسنا شيئينا، كان لشيئه قلفة، ضحكت، كانت حركة طفولية، هو أيضا شعر بإهانة طفولية، لهذا السبب توقفنا عن المقايسة، كانت جدتي من أبي تقول إنه قد يولد غير المسلم مختونا، كان ذلك دائما يمر في ذهني كي أرويه له، لكنني نسيت.

لو كنتِ قادرة على الضحك، لضحكتِ..

مارو.. كان اسم أم يراسيم، أليس كذلك؟ حماتك، كانت تُعد طعاما ساخنا بزيت الزيتون، محاشي البندورة والفلفل الأخضر بالحمص والنعناع، أرز بالمحار، وسلطات لذيذة بأنواع عديدة من الأعشاب لم أعرف اسمها، وما عدت ذقتُ بلذتها، ما كنا نأكل بل نزدرد.

ليلا، كنت أضع يديّ في جيبيّ، وأخوض وحيدا في ماء يسبح فيه القمر، لم أتوقف رغم قناعتي بعدم رؤيتك. حتى لو كنتِ زوجة خريستو الفتية.

بعد مغادرة المدينة، بدأ الزمان بالتسارع، كبرتُ، بينما بقيتِ أنتِ بنفس العمر في تلك المدينة، بالنسبة لي، أعتقد كنت في السابعة عشرة من العمر.

هل أصبحتِ سعيدة، هل أصبح لديك أطفال؟ إن كنت غير قادرة على الحركة، افتحي وأغلقي عينيك.. يا سلام! أربعة أطفال؟ ظننتُ أنك من الغناجات اللاتي لن يلدن سوى طفل واحد، يبدو أني لم أحسن الظن، كيف لفتاة بائعة قضامة معوزة، أن تكون غناجة.

ليلة شاهدتك في الكنيسة، كانت ليلة مهمة، أصبح الصباح، ولم أنطق طوال اليوم بحرف، بعد صلاة عيد الميلاد، كنا سنذهب مع يراسيم لمشاهدة غرفة نوم نادل تزوج حديثا، انتظرت طويلا خارج الكنيسة، من كان يدخل ما كان يخرج، دخلت الكنيسة، وأنا في خوف من بطلان ديني، بحثتُ عنكِ بين الجالسين على

المقاعد الخشــبية الطويلة المطلية بالورنيش، ليس يراســيم من كنت أبحث عنه، بل أنتِ، كنتم واقفين، كنت مستندة إلى الحائط، وضعت شــالا من الدانتيل حالك السواد على رأسك، وجهك كان أصفر يانعا، كان لونه صدفيا، كلون العشــب الجاف الذي لوّحته شمس الصيف، كان يراسيم يكاد ينفجر من الضجر.

أدركت أن الحــب تحول إلى هيام، عنــد رؤيتي لذلك الوجه الصدفي الملتف بشــال أســود، خرجنا مع يراسيم، أنعش الهواء العليل تعرّق يراســيم، كنت آمل أن يخفّف الهواء من واقعي، لكنه كان ينــكأ جراح قلبي، ما عدت أشــعر برغبة لمشــاهدة النادل الغاضــب الذي يخلــع ملابس زوجته عارية تمامــا ويضربها ثم يضاجعهــا كل ليلة، كان عليّ أن أفكر بــكِ، ما عدت قادرا على النظر بوجه يراسيم لإحساسي بالذنب الشديد.

طال حديث يراسيم مع الطبيب.

كأن المستشــفى خال تماما، لعل يراسيم ذهب لشراء أدويتك من خارج المستشــفى، لمــاذا تنظرين هكــذا، بعينين جاحظتين؟ عيناك خضراوان، ألم تكونا سوداوين؟

لعلكِ فتــاة أخرى؟ لم تتبســمي، لم تظهري ألفــة لما رويته، حدقــتِ كصبية تصغي لقصة حب جميلــة، يبدو أن لون عينيك في ذاكرتي كان مغايرا.

سألمســكِ، من بعد إذنكِ، لم ألمســكِ قط حتى هذه اللحظة، يداي ترتعشــان، أشــعر بانفعال، عليكِ إغلاق عينيك، هو ذلك، يجب أن ترتكز يداك فوق صدرك، سيؤنّقانكِ..

ماذا يقال في مثل هذا الموقف؟ أستودعك السلامة..

يونيو1990

أويا بايدار
OYA BAYDAR
1940

ولدت في إســـتانبول. درست في مدرســـة البنات الفرنسية، وكادت أن تفصل بســـبب رواية كتبتها في نهاية المرحلة الثانوية، نُشـــرت على حلقات في صحيفة «حرّييـــت». أنهت عام 1964 دراســـتها الجامعية بعلم الاجتماع من جامعة إستانبول، وعملت بنفس الســـنة معيدة في نفس الكلية. قدمت أطروحة الدكتوراه بعنوان «نشـــوء طبقة العمال وبنيتها في تركيا». وعندما رُفضت رســـالتها من قبل هيئة أســـاتذة الجامعة، احتـــج الطلاب على القرار باحتلال مبنى عمادة الجامعة، وكانت تلك الشرارة الأولى لانطلاق أحـــداث الطلاب فـــي الجامعات التركيـــة لحين قيام الجيش بالاستيلاء على السلطة في 12 مارس من عام 1971.

تركت جامعة إســـتانبول وانتقلت إلى جامعة «هاجي تبى» في أنقرا. فُصلت من الجامعة إثر اســـتيلاء الجيش على الســـلطة واعتقالها بتهمة الانتماء إلى حزب العمال التركي ونقابة معلمي تركيـــا المحظوريـــن. عملت كاتبـــة زاوية في صحيفة «الوســـط الجديـــد» اليســـارية حتـــى إغلاقهـــا (1972-1974)، ثم في

صحيفة «بوليتيكا» (1976-1979)، ثم أصدرت وزوجها مجلة «المبدأ». نظرا لانشغالها عن العمل الأدبي بالعمل السياسي، فقد اضطرت للسفر إلى ألمانيا بعد استيلاء الجيش على السلطة مرة ثانية عام 1980، وأمضت في المنفى 12 عاما، حيث عاشت هناك سقوط المنظومة الاشتراكية في تلك الفترة لتصدر عام 1991 مجموعتها القصصية «الوداع أليوشا» عن الهجرة السياسية القسرية. عادت عام 1992 إلى تركيا لتعمل مع وزارة الثقافة على إصدار موسوعة إستانبول.

أعمالها في مجال الرواية: رسائل القطة (1992)، العودة إلى اللامكان (1998)، بقي رماده الساخن (2000)، بوابة الأرجوان (2004)، الكلام الضائع (2007)، جنرال المزيلة (2009)، عصر الحروب، عصر الأمل (2010)، حياتكم المترفة (2012). وفي مجال القصة القصيرة: الوداع أليوشا (1991).

أعمال أخرى: «ألبوم عائلة الجمهورية»، «من القرى إلى المدن في 75 عاما»، «من المسننات إلى رقائق الحاسوب في 75 عاما»، «محركو المسننات في 75 عاما»، «الأنماط المتغيرة لحياة إنسان الجمهورية في 75 عاما»، «أنماط الجمهورية»، «موسوعة الحركة النقابية في تركيا». كما أصدرت و«ملك أولاجاي» عام 2011 كتابا بعنوان «امرأتان وحقبة واحدة»، تناولتا فيه ما عاصرتاه من أحداث في مرحلة الشباب، وتحدثتا عمّا كانت عليه آمالهما وعن الكفاح الثوري والمنظمات اليسارية وعن الاعتقال والتعذيب والمعاناة، عن المنفى والعودة إلى الديار، من إستانبول إلى معسكرات التنظيمات الفدائية الفلسطينية، عن أحداث عام 1968 في فرنسا والأحداث التي صاحبت استيلاء الجيش

على السلطة في تركيا مرتين، عن بدايات الحركة الكردية وعن التنظيمات السرية التي أنشأتها المخابرات الأمريكية لمواجهة نشاط الحركات اليسارية في العالم، وعن خطط أميريكا وإسرائيل لتصفية القضية الفلسطينية، وعن سقوط جدار برلين وانهيار المنظومة الاشتراكية.

نالت عام 1991 جائزة سعيد فائق للقصة القصيرة عن مجموعتها القصصية «الوداع أليوشا».

ونالت عام 1992 جائزة يونس نادي للرواية عن روايتها «رسائل القطة».

ونالت عام 2001 جائزة أورهان كمال للرواية عن روايتها «بقي رماده الساخن».

ونالت عام 2004 جائزة جودت قدرت للآداب عن روايتها «بوابة الأرجوان».

ونالت عام 2011 جائزة البحر الأبيض المتوسط الإيطالية للثقافة عن روايتها «العودة إلى اللامكان».

الوداع أليوشا

في صباح يوم ضبابي باهت من بدايات ذات صيف، كانت رائحة العُتُم تعبق، ساعات الفجر الأولى تكون باردة باعتدال ومنعشة حتى لو كان النهار حارا، هطول مطر غزير فجأة، يُطلق آلاف العصافير المزقزقة من أشجار الأكاسيا الوارفة على جنبات الشوارع، فيعتم الجو ويُذهل الناس، معاناة عشق قد انتهى وانتظار طويل خنوع عند أبواب مكاتب البريد لبرقيات منتصف الليل، كانت هجرانا أو أملا بلقاء، فساتيني بألوانها، الأخضر الفستقي والأرجواني الباذنجاني، حياتي عادية في النهار ووحدة موحشة ليلا، وما كتبته على حيطان بيتي من أبيات شعر بطباشير ملونة للتحرر من عاطفة لم تنتهِ، كانت هروبا أحمقَ، بدايات البرقوق في أطباق المقبلات ونبيذ «بوزباغ» بلونه الكرزي الغامق في أقداحنا، تسلّقنا في الليالي المقمرة قمم تشناكايا شوقا إلى بحر غير موجود، ركوبنا حافلات الأناضول دون تحضير مسبق لنستيقظ في الصباح التالي في إستانبول وإزمير وبورصا وبودروم، مرورنا من جوار بحيرة الملح عند انطلاقنا إلى «كبادوكيا» خلف الشاحنات المحمّلة بالبطيخ، في سَكينة المعابد السرية للنصارى الأوائل، في متعة امتطاء الخيل والانطلاق بلا حدود لطرح تعب الحياة، في لهاثنا وتلظي أكفنا

وجباهنا أثناء تسلق مرتفعات حجرية نحو القلعة وتماثيل إلهات حيثية من آلاف السنين، ثم تمددنا على الأرض المرمرية الباردة.

كانت هناك التجمعات الميدانية والمسيرات واللقاءات والاعتصامات، وكانت المؤتمرات والاجتماعات والخطب النارية الحماسية والمعارضة الحادة، مناوبات حراسة مساكن الطلبة وحرم الجامعات حتى طلوع الصباح، كل الساعات وكل الحياة ثورة لا حدود لها، هتافنا: «هو، هو هوشي منه، إلى الأمام يا فيتنام» و«نحن على الطريق، كفاحنا سيبدأ من جديد»، كانت أيامنا مليئة بالأمل والمجازفة، نمضي الليالي حتى طلوع الصباح بكتابة المقالات ومناقشة المقالات والعالم والحياة والثورة والاشتراكية والإنسان، كانت أعمارنا ما بين الخامسة والعشرين والثلاثين، وربما لم نأخذ أنفسنا على محمل الجد بهذا القدر في أي وقت من الأوقات، مؤمنين، متحمسين، منكرين لذاتنا ومفعمين بالأمل.

كنا نحشر أنفسنا في سيارة فولكس فاجن زرقاء بالية كعلبة سردين، وفي حقائبنا كتبٌ حول الاشتراكية والفاشية. ننطلق بحثا عن ركن خفي تحت أشجار الصنوبر الباسقة، نجد حلولا رومانسية وتدابير صبيانية عند استشعارنا قرب هبوب عاصفة، نخرج صباحا من بيوتنا ولا نعود، أحرار كالطيور، محلقون في الجو كالسحب، ثم تشتتنا في أرجاء العالم الأربعة..

قيام رجال الأمن ذات يوم بسحبي في منتصف المحاضرة من منصة التدريس واعتقالي، قيام «رجال الخاكي» برشاشاتهم التومسون وبساطيرهم بنبش بيوتنا وحياتنا وتدقيق هوياتنا متمحصين، كانت حالي مضحكة وتحاكي أفلام ميكي الكوميدية

وأنا محاطة بفرقة جنود مدججين بالسـلاح، وقد ضبطوا عددا من الملصقات وعديدا من المجلات والكتب وآلتي الطابعة البالية. قطتي الصغيرة السـوداء تنظر خلفي بحزن، وشـعوري بنظرات ريبـة وخوف جيران شـقتي، أخـذي معصوبة العينـين لثكنات عسكرية رطبة، وخوفي من غرف التعذيب الحجرية كفأرة وقعت في المصيدة، عشـوائيات الفقراء المدهونة بالأزرق كانت تُرى من باحة التهوية لمهجع النسـاء، حكايات تحويل سـحابات الخريف للسـهول إلى حدائق وأشـجار الصفصاف، وبعد إغلاق الأبواب الحديدية، الشاي المخمر الساخن الذي نشربه كان السعادة المرّة.

اليـوم، تذكرتك يا أليوشـا وفي داخلي حـزن عميق، كنتَ في حينه الأبعد عن الحزن من بيننا، ما كتبتُه من أشـعار العشق على جدراني: «أحبك كمن يغمس الخبز بالملح ويأكله/ في الليل أستيقظ فـي داخل النيران أضـع فمي على الصنبور كمن يشـرب الماء».. اعتبرتَـه لا يليـق بالثورية حتى لو كانت من أشـعار ناظم حكمت، ومحاولتك محوهـا بغضب طفولي. واثق إلى النهاية من نفسـك وأفكارك، ولا تشعر بأدنى شك من صحة ما تؤمن به أثناء إلقائك الخطـب النارية في التجمعات الميدانيـة للطلاب وفي اجتماعات الحوار وفي لقاءات العمال، تضع نهاية لما يدور بيننا من نقاشـات بقولك ضجرا: «العمل الجدي يحتاج إلى قليل من الكلام»، أما في أيام المناسبات السعيدة، كنت تعد صينية كبيرة من سمك الأنشوجة بـالأرز، تلتهم نصفها قبل إعداد المائدة، لكن الحزن ما كان ليجرؤ على الاقتراب منك حتى وأنت تنظر إلى الأرض وتبتسم بحرج.

كنـت تحب الأنشـوجة والمربيات وصنع القطـط وآلاف من أنواع الحيوانات من الورق، لقد استحققت اسم أليوشا بتفاؤلك

الطفولي وبراءتك وتهورك وتدبرك ومبادرتك للعمل والجد.. في الحقيقة، فقد كان حسّك المرهف ما يشدني إليك، يمكن أن يقال إنــك تمتلك في جوانبك كل الصفــات الجميلة، حتى إنك تحمل نقاء الطبيعة بحبك الأشجار والأعشاب والغزلان والقطط والماء! كنت بعيدا عــن الغموض والكتمان والانفعال وتغلّب مشــاعرك الإنسانية في مواجهة الأمور، فكيف يكون للحزن عندك مكان؟

كــم كنا نعمل بحماس ونشــاط وبلا كلل بــين كتب ومجلات وأوراق مبعثرة في الاتجاهات الأربعة.. الأخت خديجة تضع في الثلاجة ما أعدته بالأمس من ســلطة الفاصوليا وسلطة الجزر ومحاشٍ بزيت الزيتون، ينبغي عدم احتســاء الخمر أثناء العمل! مع هذا، في ذات مســاء خريفي، وبينما كنتُ أضع على الطاولة بتردد وحرج زجاجة خمر كنتُ قد خبأتها، ما كانت عيناي تبحث ســوى عن عينيك، لا أحد منا ينســى ذلك اليوم الذي نلت فيه لقب أليوشــا باستحقاق.. زمجرة غاضبة! سنذكر ما كان يخبئه جناسك بما تحمله من اسم، كلما اجتمعنا سويا على مائدة طعام أو مائدة مشــروب، حتى لو بلغت أعمارنا مئــة عام، ذلك اليوم الذي سُــجّل لك فيه مرة أخرى كيوم أليوشــا، عندما ضبطناك تسكب خلسة زجاجة ويسكي إسكتلندي برقعة سوداء في حوض المطبخ، لتتجنب قول: «أنا لا أشرب الخمر».

موقــف الحافلة الأخير كان في «بهتشــلي إفلر».. أحمل في يدي ما اشتريته من بائع المكسرات؛ كيس قضامة وفستقا حلبيا وتوتــا مجففا وبندقا وزبيبا. في حقيبتي زجاجة كونياك صغيرة ومحاضرات وأوراق وكتب ومجلات.. كنا قد تهيأنا للعمل كجنود مجهزين تجهيزا كاملا، ســنعمل حتى يطلــع الصباح، يجب أن

نتـم إعداد مواضيع المجلة، نحمل على أكتافنا مسـؤولية العالم والتاريخ وتركيا وجميع البشر، كل أيامنا المفعمة بالإيمان والأمل والاشـتراكية والثورة موهوبة لـ«أنقرا»! نعـدّ «أنقرا» على الآلة الكاتبة حتى الصباح، إيمانا منا بأن المستقبل والعالم في أيدينا، نأخذهـا إلـى المطابع لنوزعها فـي حافلات الليـل على أحياء العمال في إسـتانبول، وفي سـاعات الفجر البـاردة في الطرق العبقة برائحة العُتُم، في ذهابنا إلى بيوتنا وإلى أماكن عملنا، هي ارتباطنا بالإضرابات والأنشطة الطلابية، «أنقرا» هي حياتنا..

ربما اليـوم، الحزن الذي يخيم عليّ فـي الصباح الباكر وما أذكره بعد عشرات السنين وعلى بُعد آلاف الطرقات من الليالي البيضـاء العبقة برائحـة العُتُم، هو ليس ما أنـت الآن ولكن ما كنته أليوشـا في تلك الأيـام الخوالي، ما واجهناه في حياتنا من حقيقـة وواقع وأحلام ومشـاعر وآمال لا حدود لها، بما لم نكن قـد واجهناه من معاناة وفراق وموت وعذاب وزنازين ومسـتقبل مؤلم ومظلم..

ربمـا رؤيتي فـي الصباح الباكـر، لصورة صغيـرة لك في الصفحـات الداخليـة لصحيفة وصلت من تركيا، سـببت لي الحزن، ظني أنك لن تشيخ أبدا، بوجهك الطفولي البريء الذي لا يخفي شـيئا ولا يحمل غموضا أبدا.. ربما في تعابير الحزن والشـحوب والتعب الظاهر في الصورة، في شعرك الذي خطه الشـيب وفي تجاعيـد وجهك التي بدت عميقـة، في نظراتك الواهنة، ربمـا أيضا في إجاباتك المحسـوبة والجدية على ما طرحه الصحافيون من أسئلة، ما كان مخفيا في مزاحنا «أليوشا قمة عصية على اقتحامها»، بدا واضحا في ما سطرتَه في آخر

رســـالة لك «أشـــعر بأنني تعب، ما عدت أســـكب الويسكي في حوض المطبخ، بل أصبحت مـــدار حديث في محيطي بإدماني الشـــديد ..».. كلا، لم يكن حزني لما بـــدا على وجهك الطفولي من تعب وهرم، ولا لإدمانك على المشـــروب ولا الشعور بالشوق إلـــى ماض لن يعـــود! مكمن الحزن في مـــا حاولت إظهاره من منطق سليم بعيد عن العواطف وعقلانية بإجاباتك على أسئلة الصحافيين، الانكفاء وقبول الأمر الواقع بقولك: «لا أســـتطيع أن أكون متفائلا»، ما عدت تســـتطيع أنـــت أن تكون كما كنـــت، وما عدنا نحن نستطيع أن نكون كما كنا سابقا ..

أيامنـــا في إســـتانبول، ننطلق منهكين مـــن التعب من «جا آل أوغلو» إلى «سيركجي» لنرتاح برهة في بواخر «أوسكودار»، نتابع غروب الشـــمس ونحن نتحدث بهدوء - كم كنا نتناقش، وكم كان عندنا الكثير من الأحاديـــث! - كنت دائما أفكر بأنـــك لا تتابـــع ما تتركه الشـــمس الغاربة من أطياف علـــى البحر المتموج أمام «ســـراي بورنو»، كنت أفكر بأن التهامك المقبلات بنهم قبل قيام الموائد يحول دون اســـتمتاعك بتذوق طعمها، كما أن مشـــاعرك المعقدة نحو المشـــروب تحول دون استمتاعك بتذوق طعمه. ربما عـــدم نجاح أحد منـــا بإتقان عمـــل كامل، ونجاحـــك بأن تكون أليوشـــا، ما جعلنا نحبـــك. الآن، وبعد أن غربت الشـــمس على جهات العالم الأربع، وغاب ســـحر أشـــعتها في الأفق، ومع تذوق المقبلات النفيســـة ببطء واحتســـاء الكونياك في كؤوس بالونية بعد تدفئتها براحة الكف، لم يبقَ هناك مكان للمشـــاعر المعقدة والآلام المخادعة ولا للانتصارات، وبخاصة منذ أن تعلمت تقديم التنازلات. اسم أليوشا ما عاد يناسبك، ما عاد يناسبك أبدا.

في زاوية من الصفحات الداخلية للصحيفة، إلى جانب صورتك الصغيرة، صورة كاتدرائية أسطورية في زاوية الميدان الأحمر، عندما لمعت ليلا نجمة الكرملين الحمراء في السماء الزرقاء الحليبية، كان نصب ضريح لينين يعج بالقادمين لمشاهدة تبديل الحراسة الاستعراضية مقابل كاتدرائية الأساطير بقببها ذات الأزهار الملونة وأبراجها. إلى الخلف، الكرملين ذو العلم الأحمر والنجمة الحمراء، الرمز المقدس لأجمل أمل وأعظم أسطورة في قرننا، ما ظنناه قد تحقق كان مختبئا خلف جدران القلعة. كان مكتوبا أسفل صورة الكاتدرائية الأسطورية: «الميدان الأحمر يتغيّر».. وإلى جانب صورتك بأحرف سوداء كبيرة اقتباس من أقوالك: «ينبغي علينا رؤية تغيّر العصر، والتلاؤم مع التغيّر».

ليتك لا تتحدث بهذا القدر من الصراحة والواقعية والحكمة يا أليوشا! ليتك تسكب أغلى وأنفس الخمور في الحوض ثانية، لا تجلس بهذا القدر من التهذيب، واهجم على الطعام بنهم، ليتك لا تكتفي بنزع كل قصائد العشق عن الجدران فحسب، بل من الكتب أيضا وارمها! ليتك تعود إلى سابق عهدك مندفعا لا تحسب نتائج تصرفاتك، متحمسا وعجولا ومحتدا وصلبا لا تقبل المساومة، العن خصومك السياسيين واشتمهم! اكذب، قل «لم يتغيّر أي شيء، ما زلنا صامدين لم ننحنِ»! ارمِ قناع الشيخوخة الذي على وجهك والجمود الذي في عينيك، اضحك ضحكتك الطفولية على صفحات الجرائد، ليت الأسطورة لم تنته ولم تُهدم قلاعها يا أليوشا! ليت النجوم الياقوتية الأسطورية التي ترشد الأطفال للطريق لم تقع منهم وقد ضلوا طريقهم أثناء هروبهم من الساحرات والغيلان، ولم تتكسر!..

كل شـــيء يتهــاوى.. الجــدران والحصون والقـــلاع والنجوم والتماثيــل والأحـــلام والمعتقــدات والقيـــم، وكل مـــا له علاقة بالماضي.. كل شيء تهشم وتحطم!..

مرحبا بالعالم الجديد!

الوداع أليوشا!..

نورسل دوروإل
NURSEL DÚRUEL
1941

ولدت في إسبارتا، أكملت تعليمها الثانوي في إستانبول، ثم درست علم الآثار في جامعة إستانبول.

عملت عام 1965 في مؤسسة الإذاعة والتلفزيون، وأعدت برامج شتى في مجال الآداب والفنون، كما عملت في إذاعة خاصة في قبرص، ومن ثم في مؤسسات الدعاية والإعلان.

نشرت قصتها «الغزلان وأمي وألمانيا» في مجلة «اللغة التركية»، ونالت عنها جائزة القصة لدار أكاديمي للنشر عام 1981، ثم فازت مجموعتها القصصية التي تحمل نفس الاسم عام 1983 بجائزة سعيد فائق للقصة القصيرة، ثم حولت قصتها إلى عمل تلفزيوني من إنتاج مؤسسة الإذاعة والتلفزيون عام 1978.

فازت قصتها «الدوامة» عام 1990 بجائزة يونس نادي للقصص التي لم تنشر، والتي صدرت عام 1992 ضمن مجموعة قصصية بعنوان «كتابة على الصخور».

عملت على كتابة سيرة المشاهير؛ فأصدرت كتابا بعنوان «شعر وسيرة جمال ثريا»، كما أصدرت كتابا بعنوان «مقتطفات مختارة من جائزة سعيد فائق للقصة القصيرة».

رغم أنها مُقِلّة في الكتابة، لكنها تناولت بشفافية العالم الداخلي والخارجي للفرد، ونقلت بحس خيالي بديع قضايا وعدم استقرار حياة المرأة.

الغزلان وأمي وألمانيا

تلـــك الليلة، كانـــت ليلتنا الثالثة في إســـتانبول، ليلتنا الثالثة والأخيرة، كانت أمي ســـتذهب، في اليـــوم التالي، عند أبي، إلى ألمانيا، وجدتي وأنا كنا سنعود إلى «تشاي».

نحن نقيم في مقاطعة تشاي من ولاية أفيون، نعتاش من راتب الأرملة العائد لجدتي من جـــدي، أخي أيضا هناك، تركناه عند خالتي.

أقمنا في إســـتانبول، في ضيافة إحـــدى القريبات البعيدات لجدتي. صاحبة بيتنا، ســـيدة أرملة مســـنة تعيـــش وحيدة، كان زوجها موظفا في الخارجية، زارا في شبابهما العديد من الدول، تعرفا على أناس كثيرين، لم ينجبا أولادا أبدا، تحب الأولاد كثيرا، تلك الليلة روت مسلســـل شـــبابها، قالت طرائـــف، وأرتنا صورا أمتعتنـــا كثيرا، عندما جاء وقت النـــوم وبينما كانت تتمنى لأمي ليالي ســـعيدة، قالت «أغبطك»، «ســـتذهبين إلى ألمانيا، ألمانيا.. آه يـــا ألمانيا.. كم هي جميلة الأيـــام التي قضيناها هناك!.. هي إحدى أكثر البلدان التي استمتعت فيها».

الغرفة، حيث نمنا، كانت مكتظة بالأشـــياء: أرائك، وطاولات، تحف مختلفة على الطاولات، صور ولوحات على الجدران.. وفي الزاوية أكياسنا وأشـــياؤنا، نبّهتني جدتي لحظة مجيئنا: «لأجل

اللــه، كوني حذرة، مقتنيات الســيدة مهريبــان تحف من طراز عتيق، ليس في اســتطاعتنا تســديد ثمنها، إذا ما أتلفت شــيئا منها». خلعتُ ملابسي وأنا أحاول ألا ألامس أي شيء، اندسست في الســرير إلى جانب أمي، بعد مضي بعض من الوقت، غادرت أمــي الفراش بهدوء، ظنا منها أني نمت وذهبت إلى جوار جدتي حيث تســتلقي على الأريكة، بدأت نقاشها معها همسا، كان اسم أبي يتردد من حين لآخر، بعد فترة ارتفعت حدة النقاش، وعندما ازدادتا غضبا نســيتا الحديث همسا، وهكذا أصبح باستطاعتي ســماع كل ما يقولانه، كانت جدتي تقول لأمي «اُطلبي الطلاق»، «أنت تعلمين أن لا خير يرتجى من هذا الرجل، كما أنك ستذهبين إلى ديار الغربة لتعيشــي في الفقــر، اطلبي الطلاق، على الأقل ســتتخلصين من الشــجار. رجل، لم يؤدِّ حتــى الآن، حق الأبوة لأبنائه، وهل سيصبح رجلا بعد الآن؟». كانت أمي تعارض: «أبَعْدَ هذا العمر؟». كانت تقــول: «الأولاد..». كانت تقول: «كيف يمكن ذلك؟ ماذا أفعل؟» كانت تقول..

وماذا لم يناقشــا!.. بعد سفر والدي إلى ألمانيا ازداد وضعه ســوءا، وتوقف عن تزويدنــا بالنقود.. وماذا، ومــاذا أيضا.. يســافر الرجال إلى ألمانيا للعمل، لكنهم يقتّرون على أنفسهم، ويعملون سعيا لتأمين مستقبل أبنائهم، لكن أبي أحمق وطائش، لم تعد أمي تحترمه وتحبه كالســابق. تصبــر عليه، الآن، من أجــل أبنائها، ولخاطــر الأيام الماضية، ســتكون هذه المحاولة الأخيرة، كي تصلح من سلوك أبي، إذا لم تفلح فعندها سيكون الانفصال، كما إذا ما استطاعت إيجاد عمل في ألمانيا ستكون صاحبة الوصاية علينا.

«هذه نصيحتي الأخيرة، غدا ستغادرين بالطائرة، ما دمت مصرّة إلى هذا الحد، نامي مبكرا، على الأقل نامي، كي لا تصلي إلى بلد لا تعرفينه من دون نوم، ابقي يقظة» قالت جدتي، وتمنّت ليالي سعيدة وغطّت باللحاف رأسها.

تسلّلت أمي إلى جانبي بهدوء، مدّت يدها، كانت تريد تلمّس وجهي، تراجعت، استلقت على ظهرها وحدّقت بالسقف، ظلّت دون حراك متظاهرة بالنوم. نور القمر، كان يدخل عبر النافذة المنفرجة، لا حس ولا حركة، من شدة السكون، كأني أسمع صوت مرور نور القمر عبر الزجاج، أسمع صوت المصانع في مدن ألمانيا، أسمع صوت الطائرة التي ستقل أمي غدا.

كتمت أنفاسي، لم ينبض عرق عنقي على هذا النحو قط، لا أريد البكاء، سيرشح أنفي إذا ما بكيت، وإذا ما شرقت نفَسي فستدرك أمي أني أبكي، لن تستطيع النوم، وإذا لم تنم، فستصاب بالإعياء، جدتي محقة، لقد هزلتْ كثيرا، يجب ألا أبكي، كل شيء في كفة، ورؤية أمي لبكائي في كفة أخرى، سأموت من الخجل، كلا، يجب ألا تراني.. يجب ألا تعرف.. كل محاولاتي ذهبت أدراج الرياح، ما كنت لأستطيع تمالك نفسي، كانت الدموع تنهمر من عيني كالسيل، تبلّلت وسادتي كلية، دفنت نفسي كلية تحت اللحاف، ما عدت قادرة على التنفس من كثرة ما جاهدت للامتناع عن شرق نفَسي، كشفت اللحاف قليلا، عينا أمي مازالتا تحدقان بالسقف، عدوّتي هذه الدموع، التي تعيقني عن تأمل أمي، لا أمنية لي سوى أن أملأ ناظري برؤية أمي، يا لهذه الدموع الحقيرة! قاتلك الله أيتها الدموع اللعينة! انهمري غدا كما تشائين، لكن دعيني وشأني الآن، لا تحجبي عيني كستارة، أريد أن أرى أمي في هذه الليلة.

أمي، لقد هزلت أمي كثيـرا، كانت أجمل من في الكون، أنار نـور القمـر عنقها، وذقنهـا، ووجنتها، بقيـت عيناها في الظل محدقتين بالسـقف، تأمّلت وجه أمي حتى تلاشى نور القمر مع احمـرار الصباح، كلما كدت أطير من الفـرح وأنا أفكـر قائلـة «ها هي الآن مستلقية إلى جانبي»، أستدرك قائلة «لكن غدا، لن تكون إلى جانبي!».

آه لو تعلمون ما فعل نور القمر بوجه أمي تلك الليلة، لم يتوقّف عن تغيير وجه أمي، أنظرُ في لحظة، فلا أسـتطيع تمييزه بفعل أبخرة الضباب، أعاود النظر ثانية، فأراه ناعما جدا كوجه تمثال امـرأة أصم أخرجوه من تحت التراب أثناء فتح طريق في بلدتنا تشـاي، أنظرُ من جديد، فأرى وجه أمي وقد امتلأ بالتجاعيد، وبدت عليه نفس الابتسامة التي ظهرت في صورة عرسها..

وبينما أنا ضائعة بيْن البكاء وتأمّل وجه أمي ومحاولة تمييزه، أطلقت أمي زفرة وتنهّدت قائلة «أووووف»، واستدارت نحوي:

«كفى.. كفى.. كفى.. أقول لك كفى!».

كانـت تؤنّبنـي ولكـن بصوت خافت لا يسـمعه سـواي، ثم احتضنتنـي وقبّلتني مـرات ومرات من عينـي ووجنتي، أنبتني ثانية، ثم قبلتني ثانية.

«ومـاذا أفعل أنـا؟ إن كان البعد عن الأم صعبـا فالبعد عن الأبناء أصعب»، قالت.

ما إن سـمعت ما قالته أمي حتى تلاشـى ما كنت أشـعر به من خجل من بكائي، عانقنا بعضنا، واسـتغرقنا بالضحك، لست أدري، هـل حصل معكـم مثل ذلك؟ لا بد أنه حصـل، بالتأكيد، لا بـد أنه حصل، أشـدّ من حمـرة الورد، حمرة الـورد بأريجه

الفوّاح، لقد اصطبغنا بالحمرة من رأسينا حتى أخمص أقدامنا، وردتان حمراوان عند احمرار الصباح.. بتلات ورد ملء الذراعين يتطاير في الهواء.. علقت كل بتلة بإشـعاعات نور القمر المتسلل عبـر الزجاج، تدور حول نفسـها بلا توقف، بتـلات ورد يمطر من السـماء، رائحة أمي، رائحة الورد.. أمي، وأبي، وأنا، وأخي، نمسـك بأيادي بعضنا، وندور. ملابسنا من بتلات الورد، تحطّ بتلات الورد على عيوننا، وعلى وجناتنا، ندور، ندور.. كلنا بتلات ورد، أشـعة نور الصباح تمر من حولنـا، كلنا بلون وردي صاف، يبدو أني غرقت في النوم.

كنت في منامي أصغر مما أنا عليه الآن، مضى الشـتاء، وحل الربيـع، ذاب الثلج منذ وقت طويل، وتدفقت المياه، يبدو أننا في نهايات شهر مايو، جدولٌ يبدو من بعيد، كحزام لامع ملتو، وكلما اقتربنا منه يدغدغ خريره أحاسيسـنا، وصلنا حافته، يبدو أننا سنغسل بُسُطنا، السماء زرقاء صافية، وزقزقة العصافير تختلط مع صوت الجدول، التراب رطب، ذو عبق فوّاح.

تزدان هذه البُسُـط، برسـومات غـزلان، وعصافير، أزهار، ودوائـر، خطوط طولية وعرضيـة، كل واحد منها بلون مختلف، أرجواني، وأصفر، وأخضر، ووردي.. «هيا»، تقول أمي «أمسـكي هذا البسـاط الصغير من طرفه، لنغطّسه في الماء، حتى يتشبّع بالماء جيدا، ليزول عنه الغبار»، أمسكُ البساط من طرفيه الاثنين، وأمـي من طرفيه الآخرين، نرفعه ونمدّه وسـط الجدول، حيث المياه أكثر غزارة، والأسـرع جريانا. أتـى أبي وقد أحضر أربعة حجارة ملسـاء مسـتديرة كبيرة، ووضعها على أطراف البساط الأربعة، يجري الجدول فوق البساط الصغير، ثم نحضر ما تبقى

من بُسُـط ونمدّها جوار البساط الصغير، يضع أبي حجارة على أطرافهـا الأربعة أيضا، الجدول، يجري من فوق بُسُطنا، وكلما جرت المياه، تتراكض الغزلان كلها بنفس الاتجاه، تركض خطوط البسـاط الطولية، تحت الماء، بشـكل جماعي، تركض، وتركض، لكنهـا دائما ثابتة في مكانهـا، عندما أقف فوقهـا وأموّج الماء تبدأ أجسـادها بالتموّج، قرونها تتموّج أيضا، الخطوط المنسقة بالأزهار، والدوائر، وجميـع الخطوط الطولية والعرضية تتموّج معا على شكل حلقات، حُبيبات الرمل الصغيرة تنتشر وتتدحرج وتمر من فوقها..

هـذا الجمال شـديد الروعة، يبعث البهجة فـي النفوس، أنا أيضا.. لم أسـتطع تمالك نفسي، أقفز فوق البُسُط في الجدول عند أعمق نقاطه، أريد أن أحتضن كل شيء، الماء والأزهار، الغزلان وحبيبات الرمل، أثب وأقفز في الماء، أمي، تضحك مقهقهة، وأبي وخالتـي معا على حافة الجدول يضحـكان مقهقهين.. فرحٌ.. لا شـيء سـوى الفرح على سـطح الأرض، لا يوجد إحساس آخر، ألقي نفسـي على المـاء، أصفق ظهري تـارة، وأصفق بطني تارة أخـرى، كيفمـا يكون.. أحـاول أن أضرب الجـدول بقدمي في العمـق، لا أتوقف، مثل المجنونة.. الغـزلان، تحاول الإفلات من تحتي، ثـم تعود وتنضم من جديد إلى اللعبـة، كلما ضربت الماء بقدمي، يرتشـق الماء في الهواء، الماء يلعب، الماء يزداد حماسـا، الماء يطلق قهقهات.. قهقهة الماء تنتشـر في أرجاء السـهل، كأن آلاف الأجراس الصغيرة ترنّ في نفس اللحظة مرددة الضحكات.

يشـمر أبي بنطاله ويأتي راكضا نحوي، يحتضنني ويرفعني في الهواء، يطلقني إلى أعلى، أعانق زرقة السـماء، ثم أسـقط

بين ذراعي أبي، مرة إثر أخرى.. فرح.. لا شــيء ســوى الفرح.. في الســماء، في السهل.. لا شيء ســوى الفرح! أبي وأنا أيضا انقطعت أنفاســنا، يمدّدني على الحصى البيضاء الملســاء على طرف الجدول، ويتمدد إلى جانبي، «ارتاحي قليلا»، يقول: «نحن هنا حتى المساء، اُنظري ماذا أعددت لكم»، أنظر إلى حيث أشار، قِدر أسود على حجرين كبيرين، فوق هشيم مشتعل، «أسلق ذرة»، يقول، أغلق عيني، الشمس تقبّل جفني، وأنفي، وشعري، وذراعيّ المبللتين، وقدميّ، نجيمات بألوان شتى، لا تعد ولا تحصى تومض عند أطراف أهدابي، أنهض وأجلس، ثم أنظر إلى الطرف الآخر للجدول؛ لقلق مواجه لي، بســاقيه الرفيعتين الطويلتين، وريشه الأســود والأبيض المتوهج، يخطف البصر، ينقر بمنقاره الأحمر الطويــل تاك.. تاك.. تاك.. نقره وضحكه يملأان الســهل، أول مرة أشاهد لقلقا، مع هذا فقد أدركت أنه لقلق، «اُنظري هناك، اُنظــري هناك»، تنادي أمي عليّ، أنظر في البعيد إلى شــجــرة، «هو ذاك فرخها هناك»، تقول.

أركض مــن جديد نحو الماء، نحو أمــي.. أمي جمعت أطراف ثوبها، وشــدتها إلى خصرها، الماء يقطر من شعرها وثيابها، أمي أنا، هــي أجمل امرأة في العالم، هي أقوى امرأة في العالم، تفتح ذراعيها الصلبتين كي تحتضنني، وهي تقف بشعرها المبلل، وسط الجدول الجاري من بين قدميها وساقيها ناصعتي البياض، ستقف هكذا دائما وسط الماء، شامخة، إلى ما لا نهاية.. صريف الحصى تحت قدميها، وحُبيبات الرمل المتشــرذمة التي لم تستطع مقاومة جريان المــاء، والديدان ناصعــة البياض تضحك لنــا إلى الأبد، المراعي إلى جانب الحقول تبعث لنا انتعاش الخضرة إلى الأبد.

أنا كقطرة ماء إلى جوار أمي، أنا قطرة ماء مشاكسة انطلقت من الجدول وارتشقت في الهواء، أنا قطرة ماء قوية ومرحة لا تفنى، أنا قطعة من جدول جار بلا توقف ومن أمي التي لا تتوقف عن العمل، قطرة ماء تجزّأت منهما ولكنها مستقلة عنهما..

أمي تساعد أبي، أبي يهرع إلى جوارها، يسحبان البُسُط، المثقلة بالماء، إلى أرض صخرية، ويفردانها فوق سطح صخري منبسط، تشرع خالتي وأمي بطرق البُسّط بالمضارب، تتناوبان، تطرق أمي مرة، ومرة أخرى تطرق خالتي، طاق.. طاق.. طاق.. أصوات المضرب تنتشر في السهل، مثل طقطقة اللقلق، كلما اشتد الطرق على البُسّط، ازدادت ألوان الأزهار التي على البُسّط تفتحا، الغزلان، أحبائي الغزلان تعرض فرواتها اللامعة، وتقول «كم تمتعنا».

كل هذا الذي حدث يدير رأسي، أقع إعياء من السعادة، يبدأ جسدي بالارتخاء، جريان الجدول يتباطأ ويتباطأ، حتى يصبح بحيرة حليبية ساكنة، تهمس أمي لخالتي: «نامت».

صحوت على صوت رنين جرس الباب، جدتي كانت تتأملني وهي جالسة على الأريكة حيث نامت ليلة أمس:

«صباح الخير يا بنتي»، قالت.

«صباح الخير»، قلت: «هل ذهبت أمي؟».

«أجل ذهبت، ودّعناها منذ ساعة، لم ترغب أن توقظك، نمتِ متأخرة ليلة أمس».

رشح أنفي على الفور، لو أبدأ البكاء ثانية، كلا.. كلا.. لن أبكي مرة أخرى بعد الآن، أنا قطرة ماء، قطرة ماء عنيدة،

سأناضل حتى أكبر، سأناضل لأحقق أحلامي السعيدة.

لملمتُ الفراش، وطويت الشرشف بعناية، نزعتُ غطاء الوسادة، كانت جدتي تراقبني بدهشة،

«ماذا ستفعلين بهذا الغطاء؟»، قالت.

«سأغسله، وإلا ظنت الخالة السيدة مهريبان أني بنت تبول ليلا، لكنني بنتٌ تبلل الوسادة لا الفراش».

تومريس أويار
TOMRİS UYAR
2003-1941

ولدت في إستانبول، درست في مدرستي البنات الإنجليزية والأمريكية، أنهت عام 1963 دراستها في معهد الصحافة التابع لكلية الاقتصاد في جامعة إستانبول، شاركت مع عزيز نسين وآخرين بتأسيس نقابة كتّاب تركيا، وأصبحت عضوا بنادي الكتاب العالمي (PEN).

أول ترجمة لها كانت لطاغور «طفل من السكر»، ونُشرت عام 1962 في مجلة «الوجود»، وأول قصة لها «كريستين» نُشرت عام 1965 في مجلة «اللغة التركية».

توالى نشرها للقصص والمقالات والترجمات في العديد من الصحف اليومية والمجلات الأدبية، إلى أن شاركت بتأسيس مجلة «بابيروس» لتنال شهرة واسعة في الوسط الأدبي، وتحتل مكانا مرموقا في الصف الأول بين كتّاب القصة الأتراك، ونقل بعض من أعمالها إلى التلفزيون.

أعمالها في مجال القصة القصيرة: الحرير والنحاس (1971)، حكاية شاهميران وتصفية الحسابات (1973)،

نرجس حتى الرُكَب (1975)، كُلّاب في القلب (1979)، أحلام الصيف وشتاء الأحلام (1981)، البنات المتجولات ليلا (1983)، الروليت الروسي - استدر وانظر إلى الخلف (1985)، رحلة إلى الصيف (1986)، الخطيئة الثامنة (1990)، نساء الثلاثينيات (1992)، فيما بيننا (1997)، دفتر الكتابة الجميلة (2002).

وكتبت في اليوميات: سقوط الأيام - جزءان - (2003).

وصدر لها في الترجمة ما يزيد على ستين عملا في شتى المجالات الأدبية والثقافية والوثائقية لمشاهير الكتّاب العالميين، منهم على سبيل المثال: أبولينير وإدغار آلان بو وأغاثا كريستي وألكسندر بوشكين وأنطوان دوسان أكزوبري وبورخيس وبابلو نيرودا وغابريل غارسيا ماركيز وجون شتاينبك وفيرجينيا وولف وغيرهم.

نالت عام 1975 جائزة المجمع اللغوي للترجمة عن ترجمتها «في طبيعة الأشياء» للوكريتيوس.

ونالت عام 1975 جائزة المجمع اللغوي للمسرح المترجم عن «هايواثا».

ونالت عام 1978 جائزة سعيد فائق للقصة القصيرة عن مجموعتها القصصية «رحلة إلى الصيف»، والتي اختيرت منها قصتها ضمن هذه المجموعة القصصية.

ونالت عام 1980 جائزة سعيد فائق للقصة القصيرة عن مجموعتها القصصية «كلّاب في القلب».

رفضت عام 1987 جائزة خلدون تانر للقصة القصيرة لمشاركة اثنين من الكتّاب لها نفس الجائزة.

هفوات صغيرة

إلى أ.ج

1

«آآآ! مستحيل! هذه صديقتنا نورتان!»، ستقولين بينما تنظرين نحو الباب، دائما مثل مفاتيح السيارة، وولاعتها الذهبية، وعلبة السـجائر الذهبية أمامها على الطاولة، حليّ براقة حول عنقها، وعلى أذنيها، وفي أصابعها. في سـاعات النهار، ترتدي ملابس مطـرزة بخيـوط فضية وموشـاة بالخرز، كلمـات أجنبية على شـفتيها، بداع ودون داع. على محياها، تلك الابتسـامة الفارغة كالتي على وجه متحدث بالهاتف، كل هذه أسـلحة حريك، عدم ثقتك بنفسك.

أتابعك خلال هذا البون الشاسـع، منذ نصف سـاعة وعيني علـى الباب، إذ كنا سـنلتقي قبل نصف سـاعة. ارتبكتِ، هكذا دائمـا، ترتبكين في الأماكـن حيث لقب زوجـك غير معروف، لكن أعلم، لن تذهبي، سـتنتظرين قليلا، فأنت مجبرة، يجب ألا تهتاجي كثيرا إلى هذا الحد، يجب ألا تتبعي حمية قاسية هكذا. انظري، عنقك تغضّن، وجلد ذراعيك تهدل من الهزال، الشمس، تكشف سريعا الحقيقة الخفية السيئة لهذا الحرير والشامواه -

المصنوع من النايلون -.

عزيزتي سمرا

أعتقد أنك ستصابين بدهشة شديدة، حال تلقيك هذه الرسالة، لقد مضى زمن طويل منذ لم نلتقِ، أليس كذلك؟ ها قد فعلت، وقمت بالمبادرة، تعالي إلى النادي يوم الثلاثاء الساعة الخامسة والنصف، نشرب شيئا ونتذكر أيامنا الخوالي.

مع المحبة

إنجي

ملاحظة: ليس مهما، لكن ذلك اليوم هو عيد ميلادي.. ذكرى.

2

- آآآ! مستحيل! هذه صديقتنا نورتان!

لكن في الواقع، تلك المرأة التي دخلت من الباب بخطى خجولة، والتي سألت موظف الاستعلامات شيئا ما، ثم اتجهت نحو الطاولة هي نورتان! ما الذي حصل؟ لا يمكن تخيل مجيء نورتان إلى هكذا نادي، من ناحية واقعها، مع هذا يجب ألا أُظهر ذلك، حمدا لله فواقعها لا يبدو للعيان، ارتدت بشكل لائق، في الواقع، تلك الثنائية من التنورة والجاكيت الكلاسيكية لا تزول موضتها، لا يمكن أن تكون بلوزتها من الحرير، ربما من التفتى ولعلها من الحرير، مدرّمات الأظافر يكسبن كثيرا، يعملن طوال الوقت، مئة ليرة منك، ومئتان مني.

- أهلا بك يا عزيزتي نورتان، من أين خرجتِ يا بنت؟
- أهلا بك يا أختي سمرا، كيف حالك؟
- تفضلي بالجلوس.

لم تتحرر أبدا من ذلك الشعور بالاضطهاد..

- أين أختي إنجي؟

- وأنت أيضا كنت ستلتقين بإنجي؟

ارتباك..

- اتصلتْ بالهاتف على المحل منذ بضعة أيام، تركت لي ملاحظة، إذ كنت ذاهبة إلى منزل إحدى الزبونات، يبدو أنها قالت لتأتي إلى النادي يوم الثلاثاء حول السادسة.

من الأفضل عدم ذكر موضوع عيد الميلاد لنورتان، ربما.. ربما محمود على صواب، بحجة عيد الميلاد.. أدركت إنجي أنها ستضيّع الفرصة، لكنها قد تأخرت، أسعار المواد في ازدياد، في السنة الماضية، كان محمود سيعرض طابقين مقابل القصر، الآن، لن يستطيع تقديم سوى طابق واحد على الأكثر، ليتني استمعت له وأخذت صبّارا بدلا من ذلك الدلبوث، كان حمله سيكون أسهل، وقدرته على التحمل أشد.

- كم الساعة يا أختي سمرا؟

- تجاوزت السادسة قليلا، تأخرتُ بسبب زحمة السير، على أية حال، لندردش قليلا يا بنت، ماذا تشربين؟

- لست أدري، لأشرب جن - تونيك.

3

في تلك الأثناء، سيظهر النادل ومعه قدح ويسكي وقدح جن - تونيك. «سمرا هانم؟»، تقول وهي تنظر متفحصة وجهها محاولة تمييز قدحها:

إنجي هانم اتصلت قبل قليل، يبدو أنها ستتأخر قليلا، ترجو المعذرة.

ستقول سمرا: «أوه!» في داخلها.

تبدو نورتان مرتبكة لعدم اعتيادها على مثل هذا الوسط، نساء ثريات بمايوهات أحدث موضة يتجولن براحة، متمددات على مقاعد طويلة وقد غطين أحقاءهن بشالات حريرية متعددة الألوان، يصبح حوض السباحة لهن وحدهن، بعد أن يغادره طلاب مدرسة السباحة، يأتين من حين لآخر لينقعن أنفسهن، نورتان تدقق بطلاء أظافرهن، أحدث الألوان الأوروبية، لم تصل بعد إلى المحل،

رائحة ديزل في الجو، البحر، مزيج بلون رمادي.

بينما نورتان ترتشف الجن، ستشعر أن خوفها سيتلاشى قليلا، في تلك اللحظة، سيراود تفكيرها «لماذا دعتني الأخت إنجي إلى هنا؟».. البحث عن جواب للسؤال، يعني محاولة تذكّر الماضي، ستسأل هي أولا: «لماذا؟».

كانت تستقل باخرة «روملي كافايي» مع إنجي، كعك مع الشاي، من نفس الحي، الأخت إنجي تقيم في بيت من طابقين وحديقة على الساحل، (تطلق عليه سمرا ونورتان وغولر وأويا قصرا من باب السخرية)، أما نورتان فتقيم في بيت أشبه بالكوخ، في أعلى طلعة ضيقة جدا.

كلا، ليسوا أطفالا سيئين، البيت حيث يقيمون يعتبر مثالا، في المدخل الحجري البارد، نُعُل، وشباشب، في غرفة الجلوس دواوين، ومراتب، ليت البيت كان أوسع قليلا، وبغرفة إضافية أخرى، ستائره حزينة وأرائك غرفة الضيوف مجلّلة بأغطية بيضاء، على الصوان صور للعائلة بإطارات فضية، وعلى المذياع غطاء مطرز، معظمهم عائلات حرفيين وموظفين.

بعد كل ذلك لماذا لا أثور عندما أعلم أن زجاج بيتنا لا يُكسر سواه، أو يقطف أحد ما أزهار الحديقة، في الواقع، كان البيت ينهار شيئا فشيئا، بعنا البيانو الذي أملكه، وهكذا صرت أذهب لتعليم دروس البيانو في البيوت، كنَّ محقّات، أي أن جواب «لماذا؟» ليس كل هذا، ربما بعض من أجوبته.

4

- تلك الأخت غولر، أليس كذلك؟
- أجل غولر، تقول سمرا.

مازالت لم تتجاوز حيرتها لوصول الويسكي والجن قبل طلبها.

تتجه غولر نحو الطاولة مهرولة:

- مرحبا سمرا، مرحبا نورتان، أين إنجي؟ ألمّا تأتِ؟
- يبدو أنها ستتأخر، اتصلت بالهاتف، أخبرنا النادل.
- أرجو الله أن يكون الأمر مجرد تأخير، وألا يكون لسبب آخر.
- ماذا تقصدين أخت غولر؟ تقول نورتان، وقد خفق قلبها قليلا.

غولر كعادتها دائما، إما أن تردي بنطال جينز أو ساريا هنديا، لا حل وسط، لكنها دائما بوقار معلمة صارمة، لا تتغير أبدا:

- لا أدري إن كان من الصواب أن أخبركن، في الواقع، إنجي بوضع صحي خطير.
- مستحيل! تشهق نورتان، ما بها؟
- شيء كالورم، ما زلنا لا نعلم بشكل قطعي، كانت ستحصل على النتيجة هذا الأسبوع، كما قالت في رسالتها..

تنسى سمرا فجأة جدية الموقف:

- هه، هل كنتما تتراسلان؟

- في الحقيقة، لا مجال للمزاح في مثل هذه المواضيع، تقول غولـــر بصوت قاس، نحن صديقات منذ ســـنوات طويلة، أقصد ماذا سيغيّر كون مليح زوج إنجي السابق؟

- عزيزتي قلت هذا كي ألطّف هذا الجو الثقيل. تقول سمرا وقد احمرَّ وجهها: بالمناسبة كيف مليح؟

- بخير، لتسلمي، والسيد محمود؟

- هو أيضا بخير، لو علم أنك هنا لبعث سلامه، تعلمين يحبك كثيرا. تقول استرضاء لغولر.

- مليح وأنا يحزننا حال إنجي. تقول غولر: لقد انتشـــر هذا المرض كثيرا، فكروا علاوة على ذلك ضيق الحال، الأدوية باهظة الثمن جدا، بالتأكيد إذا لزم الأمر مليح وأنا..

- ســـمعت أنها اكتفت بغرفة واحدة من القصر. تقول نورتان: ويقال إنها تؤجر بقية الغرف للطلاب، لم تســـنح لي الفرصة كي أسأل عن حالها، مع أن لي في الماضي..

- لو اســـتمعتُ في الماضي لِما قاله محمود لَمَا وقعتُ الآن في هذه الشدة، وا أسفا والله. تقول سمرا: وفي تلك اللحظة يتبلور لديهـــا «لماذا؟»: لمـــاذا هنا؟ لماذا ثلاثتنا؟ فـــي الواقع، محمود قد أصر كثيرا، بعث معارفه السماســـرة، بعد أن كرر على مسامعها ما ســـيقدمون لها من اقتراحات حول البيت ومن أسعار مختلفة، لكن كل ذلك لصالح إنجي..

الكل عيونهن على ساعاتهن، لكن لا أحد ينهض، لا ترغب ولا واحدة أن تكون أول من تغادر.

5

في تلك الأثناء سيأتي النادل، سيجدد مشروبكن، واحد جن، واحد ويسكي وواحد كونياك، ما تشعرن من تراخ في التوتر، هو من تأثير المشروب، لكنه سيحيي من جديد ما بينكن من ضغائن صغيرة، في ركن لم تُنتسَ..

أُشعِلُ سيجارة أخرى، وأنا أنظر إليكن، لا تتوقفن عن التفكير بشكوككن بصمت، ردود أفعالكن ستنفجر بعد نصف ساعة، هكذا عايرته، من هذا الصمت المؤقت، نورتان على سبيل المثال، تفكر بوصولها متأخرة إلى البيت، عليها إعداد الطعام، كما أن النادل يجدّد المشروب باستمرار، ستقول لنفسها، كم ليرة يكلف الطلب الواحد هنا يا ترى؟ لكن إنجي لن تدعنا ندفع الحساب.

في الماضي قتّرتِ على نفسكِ يا نورتان للخلاص من الفقر، كنت على صواب إلى درجة ما، لكن انظري، ما زلت تجمعين المال، لن تصرفيه يوما ما أبدا، صرف المال في نظرك يعني الموت ببطء.

«في الحقيقة إنجي امرأة لطيفة جدا،» ستقول غولر: «انظرن، تملك ذاكرة جيدة لتتذكر المشروب المفضل لكل واحدة منا».

«أجل» ستقول سمرا، «فذة».

«حتى وهي تعاني من ضيق الحال» ستقول نورتان.

تضاء أنوار الجسر..

في داخلكن رغم كل ذلك، ومن حين لآخر.. دفء الإنسان.

عيشي حياتك يا غولر، هذا المساء، على الأقل، بعيدا عن ضجيج مكان العمل وصوت الآلة الطابعة، انظري كم هي هادئة

جدا ساعة المساء هذه، ألا تعطيكِ الإحساس بالاستقلالية والحرية؟ لا تكذبي، عيشي ساعة المساء تلك أولا قبل الركوض إلى البيت والاختناق بالمقالي والسلطات، على أية حال تخشين موتي، لذلك لن تنهضي من مكانك قبل مجيئي.

يغمر داخلي إحساس قريب من الشفقة، أمضيتِ أجمل أيام صباك بالغيرة مني، أردت إثارة غيرتي بعدما اتخذتُ قراري بالانفصال عن مليح والعيش وحدي، تصديتِ بلا مبرر، لما أشاعه المعارف عن علاقتي بمليح بأنني «سكرتيرة تغوي مديرها» رغم الاحترام الظاهري بيننا، حتى ذلك الوقت، لم تتورعي عن هدم مظهر المعلمة الجدية الصارمة، تقلبت بين امرأة عاملة بالبنطال الجينز وبين أنثى غاوية بتنورة طويلة، لم تتأخري بإنجاب طفل، لكنني لم أكن أريد طفلا، لعلك عانيت كثيرا، ربما تعلّلين سبب كل مشكلات زواجك وركوده وفتوره، إلى أن مليح مازال عاشقا لي، أنت لا تعرفين مليح جيدا.. أقصد، لو ما كنتِ أنتِ، لوجد واحدة أخرى سواكِ. هذا المساء، وهذه الحقيقة التي بانت على السطح ببطء، تجرحك بعمق، لأن مفتاح الحل عندك؛ تعلمين أني مريضة، وبلا مال، إذا متُّ فالكراهية التي تحييك لن تبقَى، ستدور الدائرة على رأسك، وسيبقى طفلك وحيدا، ما أقوله، دعك من التفكير، استرخي قليلا، وإذا لم تخنّي ذاكرتي، فمشروبك المفضل، ذاك الكونياك اشربيه.

ربما بدأ ذلك في صبيحة يوم مضى، شعرت بالبرد حال استيقاظي، مر كهواء أيلولي بارد عابر، نسمة حادة مقشعرة.

على الفور شرعت بالبحث عن سترتي الصوفية السوداء،

نبشت أدراج الخزانة، ليست موجودة، فتشت بين الملابس الشتوية المنثورة فوق السرير، الكنزات، والتنانير، جميعها كانت قديمة، أكثر من عشر سنوات، حينذاك فكرت أنني منذ عشر سنوات لم أشترِ أو أقدم أو أهدي نفسي شيئا، أما أسوأ ما في الأمر، أنني لم أقتنِ أبدا سترة صوفية سوداء. عماذا كنت أبحث؟ أفرغت كل الرسائل القديمة والصور الفوتوغرافية فوق السرير: ها هو كل ماضيّ معروض أمام عيني، كان خطّي يشبه خط أمي المتوفاة، شاهدتكن جميعكن من جديد في الصور القديمة.

رائحة ما التقطها أنفي، كلا، ليست رائحة النفتالين لتجدد حنيني إلى بيت أمي، كانت رائحة لاذعة، مدمعة، واصطناعية، تجولت في أرجاء البيت لمعرفة مصدر انبعاثها، بحثت في خزائن الثياب وخزائن المطبخ، لم أجد ولا حتى جيفة فأر، فكرت أنها ربما تنبعث من جسمي.

في تلك الأثناء قُرع الباب، سمسار عقارات جديد، حاول ثانية تغيير رأيي للتخلي عن البيت مرددا ما كرره محمود على مسامعي من أقوال، من الحكمة إعطاء البيت لمتعهد بناء والانتقال إلى شقة فاخرة، فالحديقة مهملة، وصيانة البيوت القديمة أصبحت مكلفة جدا.

بعدما تخلصت منه، فكرت بأنها ليست فرط رائحة منبعثة من المدينة، لا بد أنها متعلقة بي وبجسمي، لماذا لا أكون؟ ألا يمكن أن أكون قد تعفنت مع هذه المدينة الهرمة لسنوات، وقد أصبحت مع مرور الوقت، غريبة عن شوارعها، وأزقتها الخلفية، وأهلها، وغرفها، وحاناتها، وسينماتها، وقططها، وبحرها، وعنكن؟

لا أظن أبدا أن الورم قاتل يا عزيزتي غولر، وكيف لا أعتقد

أن عيد ميلادي سيعطيني الأمل بالعيش سنة أخرى يا أثيرتي سمرا، لكن يكفي أن اليوم عيد ميلادي حقيقة.

«ماذا يفعل المرء إذا ما بقي له بضعة أيام من عمره؟» حينما يراود ذهني هذا السؤال أتذكر أويا، فبعدما قلبت البيت رأسا على عقب، شرعت بمسح الغبار عن بعض الكتب، أويا تدير العالم من مكتبها جوار الموقدة، وأكثر ما في الأمر من غرابة أيضا، أنها تقنع القرّاء بذلك، رواية بلا روح لأناس بأرواح، تجسّد أويا الجريئة شخوص القصة ببراعة محكمة، وتحلّ بأفكارها أحداثا لم تشهدها أبدا، وتنقلها عن لسان من يموت من أجل مبدئه، وإذا ما سألناها: «ماذا يفعل المرء الذي لم يبق من عمره سوى بضعة أيام؟»، أجابت: عليه أن يكمل ما عليه إنجازه. انظري هذا صواب، «كلما اقترب الانسان من الموت، قلبه بالمشاعر الإنسانية يمتلئ ويفيض بالخير»، كانت تقول، كم هو مضحك!

ربما أنا مثلكن أيضا، لأنني لم أرتكب هفوات صغيرة، ولم أسلب ولا واحدة منكن أي شيء، لم أكشف عن مشاعري الحقيقية، لأنني لم أستتر بسترتي الصوفية السوداء غير الموجودة، لذلك كنت أشتم تلك الرائحة، لأبرّئ عجزي هذا، قررت العيش لبعض من الوقت، كان القلم والورقة على مقربة مني:

عزيزتي أويا

أعتقد أنك ستصابين بدهشة شديدة، حال تلقيك هذه الرسالة، لقد مضى زمن طويل منذ لم نلتقِ، أليس كذلك؟ ها قد فعلت، وقمت بالمبادرة، تعالي إلى النادي يوم الثلاثاء بحدود الساعة السابعة، نشرب شيئا ونتذكر أيامنا الخوالي.

مع المحبة

إنجي

ملاحظـــة: ليس مهما لكن أريد إهداءك قصة لســت مطلعة عليها، ستصبح قصة بمشاركتك أيضا.

6

- من المحتمل أنها لن تأتي، هلّا قمنا؟ قالت سمرا، سأوصلكن إلى بيوتكن.

الانصراف بأسرع ما يمكن، خير وسيلة للخلاص..

- هلّا انتظرنا قليلا؟ قالت نورتان، لعلها تريد إخبارنا شــيئا ما، برأيي..

- برأيــي لو نناقش الموضوع بالتفصيــل، قبل مجيئها. قالت غولر: مــاذا يمكن أن يكون؟ لو نتحدث بصراحة، لنبدأ الحديث عن الرسائل التي تسلمناها.

7

في تلك اللحظة تماما ستدخلين يا أويا، السابعة إلا ربعا.

«آاا! مستحيل! أليست تلك صديقتنا أويا؟» ستقول غولر.

عائشة كولين
AYŞE KULİN
1941

ولدت في إســتانبول، تخرجت عام 1961 في معهد الآداب، تابعت دراســة التربية الاجتماعية في لندن (1962 - 1964)، عملت مراســلة صحافية للعديد من الصحف وكاتبة في العديد مــن المجلات، كما عملت مخرجة مســرح ومخرجة فنية وكاتبة سيناريو في التلفزيون والسينما والإعلانات، وحَوّلت العديد من أعمالها إلى مسلسلات تلفزيونية وأفلام سينمائية.

أعمالها في مجال القصة القصيرة: أدر وجهك نحو الشمس (1984)، صور «فوتوصباح» (1996)، الزمان الواسع (1998)، كان يا ما كان (2007).

وفي مجال الرواية والســيرة الروائية: طلعة جميلة (1996)، اســمها آيلين (1997)، ســيفداالينكا «الوجــد» (1999)، فوريا (2000)، الجســر (2001)، اللهــاث (2002)، أصــوات الليل (2004)، ذات يوم (2005)، الــوداع (2007)، الأمل (2008)، توركان (2009)، مســافر اللحظات السرية (2011)، كتاب بورا (2012)، العودة (2013).

وفي مجال السيرة الذاتية والشعر والأبحاث والمقالة وقصص الأطفال: داخلي كوردة حمراء (2002)، إلى أبي (2002)، زهرة الثلــج (2004)، حكايــا الجدة (2008)، جــدار حجري ونافذة مشــرعة (2009)، حياة - أربعون ســنة مــن منظاري -1941 1964 (2011)، حــزن - أربعون ســنة من منظــاري 1964 - 1983 (2011).

نالــت عام 1986 جائــزة وزارة الثقافة عن ســيناريو الفيلم السينمائي «الدمية المكسورة» عن قصتها «غوليزار» التي صدرت عــام 1984 ضمــن مجموعتهــا القصصيــة «أدر وجهك نحو الشمس».

ونالــت عام 1989 جائــزة رابطة كتّاب المســرح والتلفزيون كأفضــل مخرجــة فنية عــن مسلســلها التلفزيوني «الأياشــيّ ومستأجروه».

ونالــت عام 1996 جائزة خلدون تانــر للقصة القصيرة عن قصتها «صور فوتوصباح».

ونالت عام 1997 جائزة ســعيد فائــق للقصة القصيرة عن قصتها «صور فوتوصباح» للمرة الثانية.

حصلت على لقب كاتبة العام 1997 عن روايتها في الســيرة «اسمها آيلين».

وحصلت روايتها «ســيفدالينكا» على لقب كتاب العام 1999، وسيفدالينكا كلمة باللغة البوسنية تعني الوجد، والرواية تتحدث عن مأساة حرب البوسنة.

ونالت عام 2007 جائزة اتحاد كتّاب تركيا للرواية عن روايتها «الوداع».

ونالت عـــام 2008 جائزة المجلس الأوروبي لأفضل كتاب عن روايتها «اللهاث».

تبرعت بحقوق تأليف كتابها «ســيفدالينكا» لصالح الأطفال ضحايا حرب البوسنة.

وتبرعت بحقـــوق تأليف كتابها «زهرة الثلج» لمشـــروع حماية «زهرة الثلج».

وتبرعـــت بحقوق تأليــف كتابها «حكايا الجدة» لمشـــروع دار حضانة اليونسيف.

صور «فوتوصباح»[3]
إلى أسين أ
بيانو

لم يجد جميل داعيا حتى للمس مفاتيح البيانو، قال: «من الناحية الفنية، لا يســاوي فلسا واحدا، إطاره من الخشب، تعلمين أن إطار البيانو، أصبح منذ العام 1910، معدنيا، وحتى لو دُوزِنَ، لن يجدي معه نفعا»، كان البيانو بغطائه الخَرِب وتقشّر إطاره الخشبي، يبدو كامرأة عجوز تكشّــفت للعيان بألبستها الداخلية، «لكنه قطعة أثاث نفيســة» أضاف، «لكن إن كنتِ محظوظة، فقد يأخذه أحد الأثرياء المستحدثين الراغبين باقتناء بيانو في منازلهم»، فكّر لحظة، «كلا»، قال، «حتى هم لن يأخذوه، يفضلون البيانو «جراند».

«إن لم يُدفع به، تبرعي به لصالة احتفالات».

«بل لا يُوضع حتى في حمامات صالة الاحتفالات، لقد انتهت صلاحيته»، قال جميل.

جدتي من أمي أيضا انتهت صلاحيتها، قالت أمينة في داخلها، لكنها مازالت تعيش بكامل كبريائها وأحلامها ودوحة عائلتها، كم

---

(3) إســتوديو تصوير مشهور، افتتح في شارع البي أوغلو نهاية الدولة العثمانية وحتى سبعينيات القرن الماضي، كانت عائلات إســتانبول العريقــة تحرص على اقتناء صور فوتوغرافية لأفرادها من هذا الإستوديو (المترجم).

كان قدرا الجدة والبيانو متشابهَين، رغم فقدان عينيها لتألقهما، لكنهما مازالتا تحتفظان بلونيهما وأهدابهما، في حين كان غطاء البيانــو المخملي قد بهت لونه وتلف، كلاهما من الزمان الماضي، اســتنزفا وعانيا حتى وصلا إلى هذا الزمــان الحاضر. الجدة والبيانو، رحلا قبل نصف قرن، من قصر بحديقة مشــرفة على البحر في «بيازيت»، إلى شــقة مطلة على جامع «تشفيكية» في «نيشانتاشي»، وأصبحا بعد اثنين وخمسين عاما على عتبة رحيل آخر، لكن هذه المرة، طريقهما مفترقان، ولن يستطيعا بعدئذ أن يتبادلا شجونهما، كانا حزينين.

كانــا حزينين عند رحيلهما إلى هذا البيت أيضا، كانت الجدة قــد فقدت زوجها حديثــا، وبيع قصرهم حيث ولدت ونشــأت، وجاءت مع والدها المســن، وأمها، وابنتها، والبيانو خاصتها إلى هذه الشقة مستأجرين، كانت ستعيش أول مرة في بيت مستأجر، وستعرف ماذا يعني الترمّل ومرارة ضيق الحال.

لم تلمس مفاتيح البيانو لما يقرب من سنة مطلقا، ولم تحتمل البيوت والغــرف، لكن الزمن كان علاجا لكل المعاناة، كان ينتظر الجدة حياة مختلفة في أربعينات عمرها في «نيشانتاشي»، تنزل إلى «بي أوغلو» في الترامواي الأحمر، معتمرة قبعتها ذات التول الذي يغطي عينيها، وقفازات الدانتيل تحفّ يديها، تحتسي الشاي عند «ماركيــز» و«لوبون» تعزف ‹La Vie En Rose› في ليالي الجمــع، تتنزه في الصباح الندي بفســاتينها الحريرية الهفهافة حتى «تاشليك»، تدير أحاديث ودّية في مقهى «تاشليك».. ترحل إلى الجزيرة في أشــهر حزيران/ يونيو بحقائبها الأنيقة المغلفة، تــردّ بتهذيب عــروض الأصدقاء لزواج لائق، وفــي نهايات أيام

الحياة الرغيــدة ليأتي بعد ذلك تنهد حزين على البيانو لنغمات «مــازوركاس» و«نوكتورنيوس» «إمبرومبتــوس».. أيتها الحياة كم أنت مترعة بالأشجان والأفراح..

وبعد اثنين وخمسين عاما كاملة، رحيل جديد للجدة والبيانو، البيــت الذي دخلته الجدة وهي امرأة شــابة، تغــادره وهي في الثانية والتسعين من عمرها، بسبب التضخم الاقتصادي وخسارة دعوتها لدى محكمة البداية.

«صديقــي لثمانين عاما كاملــة»، قالت الجدة عــن البيانو، «أُحضر إلى القصر وأنا في الصف العاشــر، كما أحضر الوالد مدام ســيدوني وكتاب باير الضخم للنوتة الموســيقية، منذ ذلك اليوم لم نفترق أبدا».

أمضت المرأة العجوز والبيانو اثنين وثمانين عاما معا، ووصلا في النهاية إلى مفترق طرق.

تنقلــت لفترة طويلة، يدا الجدة النحيلــة ذاتا العروق كجذور النباتــات، على مفاتيــح البيانو التي أصبحت كأســنان حصان مصفرّة لثتها ملتهبة، ليصدر أصواتا أشــبه بحشــرجة مريض مصاب بانتفاخ الرئة، بدلا من الألحان المتناغمة. أمينة، انتظرت عبثا ما اعتادت سماعه من ألحان حالمة. البيانو بصوته النشاز، أصبح يعزف لحن قصة حياة كسيرة حول صاحبته والبيت الذي أمضى فيه خمسين عاما من عمره.

عايش البيت مناسبات ولادات وخطوبات وأفراح ومآتم، كان يتسع لكل قادم كالمنفاخ، ثم يعود ثانية إلى حجمه الذاتي، القادم ذهــب، والميت دُفِن، لكن الجدة بقيت دوما، جلســت دائما أمام البيانو خاصتها وبثته أشجانها.

عندما قالت أمينة «لن يكسبوا الدعوى، القانون إلى جانب المستأجر»، «كان إلى جانبه»، أجابها المحامي، «ما عاد الآن كذلك، أصبحت الإيجارات تحتسب ببدل المثل».

لم يكن سهلا إقناع الجدة أنه ما عاد ممكنا بقاؤها في الشقة، كانت المرأة العجوز تستفسر عما بيع من قصور وكروم وبساتين في السنوات الماضية، وما كانت قادرة أبدا على فهم كيف أن دخْل عشرات الأملاك لا تسدد أجرة شقة واحدة، عندما أدركت أمينة أنها غير قادرة على إيصال معنى التضخم الاقتصادي، كفّت عن التوضيح المنطقي، «انظري يا جدتي» قالت، «تقيمين وحدك في بيت يتألف من ثماني غرف، الغرف واسعة، والبيت بارد كالثلج، ولا قدرة لنا على دفع بدل الوقود الكبير لتدفئته، أصبحت فاطمة هانم عاجزة، ويصعب عليها القيام بشؤون هذا البيت الواسع، عليك أن ترحلي إما عند أمي أو عندي..».

«لن أذهب إلى أي مكان»، قطعت الجدة كلامها، «أنا هنا منذ خمسين عاما، على أية حال، لم يبقَ من عمري سوى أيام معدودة، قد أعيش سنة أخرى وقد لا أعيش»، عرضت أمينة هذه الحجة على صاحب البيت كمخدر لخمسة أعوام مضت، بعد ما كان الرجل يقتنع بمنطقية هذه الحجة، ما عاد يتقبّلها، مات مستأجر في الطابق الرابع بنوبة قلبية، والجار المواجه لإصابته بالسرطان، وفتاة شابة في الطابق الأسفل بحادث سير، لكن الجدة لا تموت، كانت كالقلاع القديمة، كانت تُرى من بعيد، من أمام بنك العمل، بشعرها المعقود فوق رأسها، من نافذتها في الزاوية.

«نافذة الزاوية هذه، هي كل عالمي»، قالت الجدة، «أتريدين

أن أراقب النجوم في بيت أمك؟ لا قدّر الله».

«إذن ارحلـــي عندي»، قالت أمينة، «بيتي يطل على الشـــارع، تجلسين أمام النافذة وتتابعين الغادي والداني».

«إلى تلك الشقة الخراب؟».

«جدتي!».

«لا يوجد ســـوى حمام واحد في بيتك، لا يمكنني اســـتعمال مكان يستعمله الآخرون».

«الخيار لكِ، إما حمام خاص، أو نافذة مسلية»، قالت أمينة.

«لـــن يخرجنـــي من هذا البيت ســـوى المـــوت»، قالت الجدة، «إن كانـــت إدارة ثلاثة بيوت مكلفة، فالأجـــدر أن ترحلا كلتاكما عندي، بيتي الأوســـع والأجمل، إما أن تبيعا شقتيكما القبيحتين، أو تؤجراهما، أقيما هنا، فهذا البيت يتســـع لنا جميعا، كما كان يســـعنا دائما».«انظري يا عزيزتي»، قالـــت أمينة بصوت منهك، «لقد بعنا كل شيء كي نبقيك هنا، رغم كل الأيادي التي تنهب ما في جيوبنا، فقد أبقيناك هنا».

«يد من؟».

«يد التضخم، يد النظام، يد الدولة يا جدتي».

«أنـــا لا أفهم هذا الـــكلام، لكنني قلت لك مئـــة مرة، الحياة صعبة بلا رجل، بأســـوأ الظروف، عودي إلى زوجك ســـواء كان سيئا أو حسنا».

«لقد تزوج منذ وقت طويل».

«آاا!»، قالـــت الجـــدة بصوت محبط، «مـــن أي العائلات تلك الفتاة التي تزوجها؟».

«من يشيل تشام».

«لم أسمع بهذه العائلة أبدا، لعلها من عائلة إلي يشيل؟».

هزّت رأسها بامتعاض خلف حفيدتها التي خرجت من الغرفة، «لا أهرم الله خلقه يا فاطمة هانم»، قالت عن تجربة، «حتى إنهم لا يجيبون، انظري!».

خســروا الدعوى في نهاية نوفمبر، ارتفع بــدل الإيجار إلى أربعة أمثاله، في ديســمبر، أرســل صاحب البيــت تبليغا بقيمة الإيجار الجديد بالإضافة إلى بدل إيجار ستة أشهر بأثر رجعي.

اختــارت الجدة الرحيــل إلى شــقة الملحق لابنتهــا، وقفت أمينة فــي صالة بيت المــرأة العجوز وتأملتهــا، أطقم الجلوس الإمبراطوريــة، والثريــات، وصــور العائلــة الكبيرة المؤطــرة، ولا ســيما البيانو الذي لا مكان يتســع له، اتصلت هاتفيا ببائع أنتيــكا في «هورهور»، حذّرها جميل، «بريك كوني حذرة، فبائعو العتيق ســينهبون بيتكم»، قال، كان جميل يدعــو بائعي الأنتيكا ببائعي العتيق، بائعو العتيق كغربان الجيف تطايروا فوق الأثاث، أخذوا كل شــيء وذهبوا، لم يبقَ ســوى لوحات العائلة وصديق الجدة لثمانين عاما، لم تعطِ أمينة البيانو لأي من كان.

بــدأت أصوات أذان الظهر في جامع «تشــفيكية»، «لقد حان الوقــت، هيا دعينا نذهب، تأبطــي ذراعي لنذهب» قالت أمينة، تقدّمــت الجدة نحو باب الصالة الخالية، تأمّلت البيانو المصنوع من خشــب الورد في وســط الغرفة، بدا البيانــو كامرأة جميلة سمراء، هُجرت من حبيبها؛ فاتنة ورشيقة ومفعمة بالحزن.

على كرســي البيانو المخملي، كانت تجلس صبية في العاشرة من عمرها، جُمع شــعرها الأشقر بشــريط، وتنورتها بكشاكش، وحذاؤها طويل بأزرار.

«صديقك العزيز، لن أعطيه إلا لمن أثق بمعرفته لقدره، هذا وعد يا جدتي»، قالت أمينة، تنهدت الجدة، ظنّت الحفيدة أنها ستبكي.

لم تبكِ الجدة، تغضّن وجهها فقط للحظة كمن تذوّق حبة خوخ حامضة جدا، ثم استدارت وما عادت تنظر إلى الخلف؛ وكأسد أصيل وعجوز يغادر عرينه، خرجت من الصالة بكبرياء، وبينما كانت تعبر للمرة الأخيرة، باب البيت حيث أمضت اثنين وخمسين عاما، وهي تتأبط ذراع حفيدتها، ترنّحت قليلا، ليس سوى ذلك.

أطياف الليل

تقبّلت الجدة دون تذمر، السرير الذي أعدّ لها في غرفة التلفزيون في البيت الذي انتقلت إليه حديثا، وتظاهرت بمتابعة التلفزيون طوال النهار. في بداية الأمر، لم تظهر مشاعرها سعيا وراء بصيص أمل، في الشقة الملحق حيث لا يُرى سوى الأسطح والمداخن والسحب، وإن كانت تفتقد نافذتها في الزاوية وحركة المارّة المكتظة، لكن، عندما رأت أن سريرها النحاسي قد أُحضر إلى الغرفة ووُضع مكان السرير المؤقت، أدركت أن الوضع ليس مؤقتا، ظنّت أن حفيدتها تخدعها بالقول، سأعيد دهان البيت، ستزعجك رائحة الدهان، اصبري قليلا لنرى.

في حين كانت تدرك جيدا ما يدور حولها، كانت هي أيضا تلعب نفس اللعبة معهم منذ سنوات، لم تسأل عن لوحات «شوكت داغ» و«المعلم علي رضا» التي أُنزلت عن الجدران، ولا عن أواني العاشوراء التي اختفت، ولا عن إيرادات الأملاك في «بيكوز»،

بعـد أربعينيات عمرهــا، بيع كل ما أمكن بسـبب ضيق الحال، لذلك كانت تفضل تجاهل كل شـيء، كانوا يظنون أنها لا تلاحظ شـيئا على اعتبار أنها ثقيلة السمع، اعتبروها خرفة، هي أيضا ما عادت تبالي، منذ بضع سنوات وهي في حالة تقلب، ما عادت كالسـابق، تغضب لعدم استشارتها في كل الأمور ولانقطاع أبناء حفيدتها عن مراسلتها، ما عادت تشعر بالأسى لعدم مجيء أحد إلى البيت، كانت حبيسة صور العائلة التي لا تشاهد سواها على الحائـط، عند بدء إقامتها في البيـت، علّقت في غرفتها، صور أمها وأبيها وزوجها، لم يبقَ حولها سواهم والعصافير التي تحط أمامها على النافذة.

في البدايات، تحسّـرت كثيرا لبقائها وحيـدة مع العصافير والسـحب، في بيتها القـديم حيث أمضت عمرهـا، أقلّه، كان يطـرق بابها من يـوم إلى آخـر، وجوه حميمـة كبائع الخضار والبقـال والبوّاب، وتتابـع العالم من نافذتها فـي الزاوية، كان أكثرَ ما يحزنها خلال نافذتها، الأطفال المحرومون من أمهاتهم. فـي الواقع، ما كان شـيئا مهما ما تتابعه مـن النافذة، لكنها ما كانـت تخبر ابنتها وحفيدتها بذلك أبدا، أصبحت طوال عمرها، شريكة لهموم الأطفال، وعانت من غنجهم، وأعطتهم بسخاء كل مـا تملك، أما هم، فيظنـون أن أمهاتهم مجرد آلة تتنفس وتأكل وتنام فحسـب، ما يعنيهم مأكلها ومشربها وعلاجاتها فقط، في حين هم كانـوا مثقلين بهموم الدنيـا، ولا طاقة ولا وقت لديهم لسـماعها، يضعون أمامهـا فيتاميناتها وطعامهـا ثلاث مرات في اليوم، يمشـطون شـعرها مكابدة كل صباح ويخرجونها إلى الشرفة لتتنشـق الهواء، ثم يجلسـونها أمام التلفزيون، مشاهد

تمر سـريعا يتركونها إثرها وحيدة ويذهبون، ما كان أحد معنيا بمشـاعرها ووحدتها أو بمقاسمتها الأحداث التي تمر بالعائلة، وبخاصـة حين طلاق حفيدتها، فقد اعتبـرت خارج الدائرة، لم تجـد من أحد أي تفهم، وتركت وحيدة تعاني الأسـى والعار من أول طلاق يحدث في العائلة، ما يعنيهم السـلوى لأنفسهم فقط، غير عابئين بجيل من البشـر غير معتاد على التسـاهل في مثل هـذه الأمور، هي الآن أيضا تموه الحقيقـة، وكأنها هكذا تنتقم من ابنتها وحفيدتها، في الحقيقة، كلتاهما كانتا حزينتين لأنهما حرماها مـن نافذتها في الزاوية التي يظنّـان أنها متعة حياتها الوحيدة.

في الواقع، أطياف الليل كانـت متعة الجدة منذ مدة طويلة؛ ومنذ رحيلها إلى بيت ابنتها، ما يشاركها صباحاتها من أصدقائها الجدد، العصافير، أطلقت أسـماء علـى الطيور ذوات الأجنحة الشـيباء والبيضاء والرماديـة التي تتطاير فـوق فتات الخبز، «ربيل» ما أطلقته من اسم على الطير السمين ذي اللون الضارب للحمرة، «شاكر» كان اسـم الطير ذي الجناحين الأبيضين تيمنا بصديقها ذي الشـعر الأشيب، كانت الطيور متعتها خلال النهار، فهي تنتمي إلى النهار.

كانت الجدة تمضي النهار مع العصافير، لكن لأمسـياتها كان انشـغال آخر؛ تنتظر غروب الشمس لتفرغ شوقها إلى التحدث، كان زوجها يقفز من الإطار المطلي بالذهب والمعلق فوق سريرها، يجلس على طرف سـريرها، الضابط الأكثر وسـامة في العالم ببزتـه العسـكرية الخاصة بالاحتفـالات والمزدانة بالأوشـحة المطهمة، سيفه على وسـطه، وقبعته الفرائية مائلة على حاجبه

الأيســر، لم يبقَ سواه تبثه أشجانها، كانت الجدة تحدثه بكل ما يختلج في عقلها وقلبها حتى الصباح، كان زوجها ببزته العسكرية اللائقة جدا، يصغي لها بوقار وصمت لســاعات دون مقاطعتها فيمـا ترويه، قبيــل الصباح، كان يعود إلــى مكانه على الحائط بهدوء، حينئذ، كانت الجدة تلقي برأســها على الوسادة، وتغمض عينيها متهيئة ليوم جديد، وقبيل إغفائها، كانت تشعر بقشعريرة وهي تتذكر سماع ما تتخيله من وقع أقدام على حجارة الحديقة في عتمة الليل قبل آلاف السنين.

الحياة كانت انتظارا طويلا، إما الخروج في حملة عســكرية، وإمــا العودة مــن حملة عســكرية. الحب كان انتظــارا طويلا، الشباب كان انتظارا طويلا، الحبيب يبعث رسائل من الجبهة، في طيّها صورة، وتبقى اللقاءات غير ممكنة، سماع وقع الأقدام على حجارة الحديقة، كان الأمل باللقاء، رجل شاب يخرج من الإطار ويأخذها بين ذراعيه، خفقات قلب تطرق مســامعها، إحســاس بالإجهاد، تيارات تتدفق، موجات عاتية تضرب الســاحل، أنهار تجــري في داخلها؛ وفي كل مرة كحلــــم لا يكتمــل، ولذة مذاق لا تدوم..

تخيّلت اللقاءات والعشــق طويلا، كصــور قديمة تداخل فيها الحلم بالحقيقة، حتى هي، ما عادت تميز بين الواقع واللاواقع، العشق ما كان ذلك أم ماذا؟

الفصول تتقلب، فكانت رائحة الليلك المنعشــة تختلط برائحة زهرة العسل لتزكم أنف الجدة، وبينما كانت أخبار انتهاء الحرب تنتشــر في كل مــكان، كانت الجــدة تتابع بقلب وجــل، الجنود الزائرين للجيران وهم يحملون في أيديهم رزما صفراء، فيُوَدَّعون

بالدمـــوع، لم يُحضر أحدَ قرص الهوية الرصاصي ملفوفا برزمة صفراء، إلى القصر، شـــاب محـــارب جريح من كعب قدمه، عاد إلى الجدة من الحرب.

بعد كل لقاء، فراق جديد كان ينتظر الجدة، إن لم يكن الرائد الطبيب في الجبهة، يكون في المستشـــفيات النائية، وإن لم يكن في حضن زوجتـــه، يكون في المناوبات، كانت الحياة هكذا، آمال ما كانت تتحقق، كانت الجدة تعبر من البعد العاطفي للحياة إلى بعدها المـــادي، تبدّد الوقت بالتول والحرير والماس، توعز للخدم بإعداد وصفات طعام من المجلات الأوروبية، كانت تهتم بابنتها، إذا ما سمح لها وقتها، بعد الاهتمام بشؤون كبار البيت ومربياته، وبينما كان التقاعد المبكر، ســـيؤدي إلـــى ما تصبو إليه من حياة دائمة التواصل..

عندما بدأت الأزهار بالتفتح والخفق في نهاية ذات نيســـان، جاء الموت كقطة لصّة بصمت.. اتخذت صورة الرائد الطبيب في إطارها الضخم والمطلي بالذهب، موقعها الأخير على الحائط.

كان الرائـــد يجلس على طرف ســـرير الجـــدة، لكنه في هذه المرة، ما كان يصغي لزوجته، كان يمسك يديها بلطف، ثم يأخذها بـــين ذراعيه ويضمها إلى صدره، يدفن رأســـه في عنقها ويقبّل مؤخـــر عنقها وشـــعرها، كانت الجدة في ذهول، تترك نفســـها في المياه المنعشـــة المائجـــة كمثلها قبل آلاف الســـنين ذهابا بين الحقيقة والخيال، كانت طيور النهار بأجنحتها الشيباء والبيضاء والرمادية والأرجوانية تنتظر الجدة على حافة النافذة.

الموت

المشهد العظيم لنساء عصر مضى..

والموت ريح في حدائق الصيف خرقاء..

حملوا جدتي على ملاءة أمسكوها من طرفيها ومشوا بها في الردهة، «توقفوا ستوجعونها»، استدركت صياحي ذلك بعد وقت، البدين من بين الرجال استدار وحدّق بي مندهشا، أحنيت رأسي، كانت جدتي ترتدي ما ألبستها منذ يومين، منامتها المورّدة القطنية وجوارب التنس البيضاء خاصتي، كان ينكشف من ياقة منامتها قميصها الساتان الداخلي الوردي، تلك آخر نظرة لي على جدتي وعلى قميصها الداخلي. جدتي، أكثر من أحببت في سنوات طفولتي، وأكثر ما كرهت نقاشها الدائم في سنوات مراهقتي، وفي آخر عشر سنوات لم أقف إلى جوارها أكثر من خمس دقائق عند الضرورة. كانت تذهب بمنامتها المورّدة، وقميصها الداخلي، بدبابيس شعرها، تتأرجح محمولة على ملاءة كمحفة، من غريبين، تروي حكايات زمان قرن مضى، نصفها نسج خيال، ونصفها الثاني حقيقة مغشاة، قصورها، شاليهاتها، جدها الباشا، والدها الوزير، أمها من بنات بلاط السلطان، ذكريات تسبب لي الدوار، لكننا نتماشى معها بقيمها الخاصة، لم أستطع أن أعايش ولم أستطع أن أفهم أنني حفيدتها الأكثر ما أحبت في الدنيا، ولم أبادلها نفس القدر من الحب، ما يجعلني أشعر بالخجل وأحس بالندم رغم معرفتي بفوات الأوان. كنت أتابع هذه المسيرة الأخيرة بعواطف جياشة، ظننت في لحظة إذا ما بالغت في الرعاية، فقد أكفّر عن لامبالاتي في السنوات الماضية.

لم تكن جدتي تريد شـيئا سـوى الاهتمام، سواء مني أو من غيري، لم تكـن عبئا من الناحية المادية علـى أحد. في الواقع، نحـن -أبناءها- من اسـتهلك أموالها، كل مـا تملك من بيوت وقصور وأراض، وكل ما يوجد في بيتها من قطع نفيسة ولوحات ومجوهرات، بعناه لنصرف على رعايتها وعلى أنفسـنا أيضا، لم تسـأل الحساب أبدا، ولم تتذمر على الإطلاق، لكن مشادّاتها لم تنته أبدا، لم تكفّ عن طلب ما لم نسـتطع تقديمه لها، وقتنا، لو طلبت شـيئا آخر، كم كان أكثر يسرا، كم هو مؤسف أن أمي وأنا وأبنائي، جميعنا كنا غجرا أنانيين، كنا على استعداد لإعطاء كل شـيء فيما عـدا وقتنا وذاتنا، لفتة اهتمام واحـدة، ما كنا على استعداد لاقتطاعها من وقتنا الخاص ولو للحظة واحدة.

مع مـرور الزمن، أصبح بيننا فجوة كهاوية عميقة يسـتحيل تجاوزهـا، هي كانـت تنتمي لعالم، ونحن ننتمـي لعالم آخر، لم أسـتطع إدراك أن لعالمها خصائص وقيما مختلفة عن عالمنا، إلا حـين كانت تُنقل في ملاءتها من قبـل رجال لا أعرفهم، كم كان شائنا هذا التأخر بالإدراك..

متـى كرهتها أول مرة؟ عنـد ولادة ابني بعينيه السـوداوين وشعره الأسود، أصرّت على استحالة أن يكون الوليد الأسمر من عائلتنا، وسـيطر عليها وقوع خطأ في المستشفى وعلى ضرورة إجراء مساءلة وتدقيق.

الناس المعتبرون في عين جدتي، يكونون ذوي بشـرة بيضاء، تحتقـر كل ذي بشـرة داكنة، عند ولادتي لطفل أسـمر، دفعني تقصّيها عن وجود دماء غجرية في عروقه للجنون، وعشت لبعض الوقت رغبة عميقة للانتقام من هذا الجرح البليغ، أدخلتُ طفلا

أسمر إلى عائلة جدتي ببياض الشركس، آآه! جدتي، كمَثَلها في مواجهــة كل حدث، تبني آلية دفاع خاصة وتنقذ موقفها، اختلط الأمر في قسم الأطفال، كان خطأنا إذ لم نتحقق من الأمر، لكن ما دام لا رجعة بالأمر، فالطفل الأســمر من نصيبنا، وسينشــأ بالتأكيد، نشأة ابن عائلة نبيلة، على أية حال، فقد كانت تقاطيع وجهه متناسقة وغمّازاته جميلة.

رياح شديدة كانت تهب نحوي، بينما كانت جدتي تمضي قدما في الممر بــين الرجلين، وقد تأنّقت خلال هذا الإعصار في تول حريري وقطيفة مطبّعة ومشابك مطهمة بالماس وخواتم مطهمة بالياقوت وأمشــاط من العاج وعربات تجرها خيول ربيلة وخدم ووصيفات وحدائق بعرائش وقصور من الأخشاب.

أم لعلّــي نفرت منها من خلال تلــك الحكايات التي أطلعتني عليها، وأدركت أنني ليس بمقدوري أن أعيشها أبدا؟

هاهــي الآن، ببشــرتها ناصعة البياض وجســدها المتغضن، بمنامتهــا القطنية غيــر المكوية، تعبر للمــرة الأخيرة، من الممر الطويــل والضيــق والكريه لشــقة خرســانية والمغايــرة لقصر الأخشاب حيث وُلدت.

باســتثناء قضاء العطــل الصيفية في قصر الأخشــاب في الجزيرة، عشــت طفولتي في غرفة كغرف هذه الشقق السكنية الخرســانية، في حين، أســقف القصور كانــت مزدانة بالجص وعالية جدا، أصبحت أســقف الشقق بلا زخرف وتنخفض كما أبعــاد الغرف تتقلّص بالتدريج. ما آل إلى جدتي من عائلتها من ثريات، قُصّرت سلاســلها في بداية الأمر، ثــم رُقّيت مقاماتهم مــن الغرف الضيقة، إلــى بيوت أكثر ســعة وارتفاعا بعد بيعها

لأناس اســتبدلوا أماكنهم معنا، كانت جدتي تنتقص بطريقة أو بأخرى من شأن من لديه المقدرة على شراء أشيائنا منّا، بعينيها الخضراوين الحالمتين تلك، عاشــت وشاهدت عصرا بكل أبهته، أمّا أنا، فمجرد ما سمعت منها، فتُقت وتمنيت وحلمت.

هي، رغم شــديد إصــرار والدها، فقد آثرت الدراســة على الزواج، في طفولتها، أوليت رعايتها للمربيات ولم تقم بأي عمل طــوال عمرها، ولم تفلح حتى بغلي الماء. أنا كافحت مع عقليتها «الفتيات اللاتي لا عمل لهن يذهبن إلى الجامعة»، واجهت الحياة في ســن مبكرة، ورعيت أطفالي بنفسي، عملت لسنوات طوال، أطهو طعامي بنفسي بعد عودتي من العمل منهكة، وكنت مجبرة على غسل الأواني.

رغــم أني لــم أدخل في أي جزء من أســاطير أميراتها، لكنها كانت تنتظر مني أن أكون أميرة، في حين، الأميرة هي، وأنا كنت عاملة كادحة.

انضمــت صور جندي بقبعته الفرائية إلى ما تبقى من جدتي من رسائل عشــق مصفرّة ومكتوبة باللغة التركية القديمة تدور في الريح أمامها كالمدوّمة، كان يشــارك في آخر مشهد من عمر ممتع زائل.

«في الصباح، أكون نائمة حينما كان جدك يهم بمغادرة البيت، كان يقبلني من قدمي برقــة، كي لا يوقظني، كان يحمل منديلي في جيبه العلوي، كي يشتم رائحتي طوال اليوم».

هل أنفر منها يا ترى لهذا السبب؟

رجال كثر.. عشــاق كثــر.. أزواج.. لكن لم يكــن لدي أحد، لا مقبّل لقدمي، ولا راغبٌ بتشــمم رائحتي طوال اليوم، أو لعلها تلك كانت غيرة كامنة؟

جدتـــي في صورها من الورق المقوى والبنية اللون، بشــعرها الذهبي المفرود حتى وسطها، وفتحة صدر فستانها التي تكشف مفاتنها، كانت تبدو جميلة جدا وبريئة للغاية، كأنها في الحقيقة، ما قُبّلت من أي مكان ســوى قدميها، حتى يد رجل، لم تمســس لا شــفتيها ولا بدنها ولا عنقها، ما عانت ولا عوملت بخشــونة، وكأنها لم تضاجع، بل حتى المضاجعة لم تحلم بها، هل حقا كانت كذلك، يا ترى، حتى اســتطاعت المحافظة على شفافية بشرتها حتى هذا العمر؟

على جيلي الذي يتعرض لعشرات التصرفات المهينة، أن يطالب بالمساءلة، حصلنا على نصيبنا من المحبة بأبعادها الجنسية، بدا الرجل والمرأة كغريمين على حلبة صراع الديكة، وتجردنا ليظهر كل منا قوته أمام الآخر، دعكم من أقدامنا، والدهشة من مقبلي شــفاهنا على عجل.. سوف نضطر لانتظار عصور متقدمة، كي نســتطيع العثور على محبة عطوفة ورقيقة، وكي نستطيع عيش عشق رقيق المشاعر.

«اهتممت دائما بالعناية ببشرتي، كان لنا مظلات تقينا أشعة الشــمس، في عصرنا، ما كانت الســيدات يخرجــن للتنزه في الجزيرة من دون مظلــة»، كانت تقول جدتي، في حين، مظلاتي كانت لحمايتي من أمطار إستانبول القذرة، السخامية والسوداء الدبقة، وأثناء الانتظار في طوابير سيارات الأجرة، كانت تنقلب معكوسة عند هبوب رياح شديدة، وتنكسر.

وصلــت جدتي إلى نهاية الممر، وبعد مغادرتها هذا البيت، لم تترك لي ســوى ركن منعزل من هذا العالم الفظ، كنت ســأتابع حياتي في غرف الشقق الخرســانية العابقة برائحة الفحم، مع

مظلاتي المنكفئة بسبب الريح، من دون دانتيل ولا حرير، ومع ما تبقى لي منها من بضعة مشابك ماسية قديمة وخاتم بحجر وحيد، ومع أوهامي بأني متميزة وذات نسب.

وهذه المرة، أوهام خادعة تنشط في زوايا أحلامي قسرا لكن من دون جدتي، من سيروي لي مرات ومرات، ما عدت قادرة على عيش ذلك الحلم الرائع أبدا؟

وصل الرجال إلى نهاية الممر، دخلوا غرفة المدخل الصغيرة، قبالة الباب، رأيت وجهي في المرآة المطلية بالذهب، كان شاحبا. الموت، يبدو أنه يلمس برفق أحد الموجودين هنا، وقفت أمام الباب الخارجي، كانت جدتي ذاهبة، هذه المرة، لم تكن تنتعل حذاءها من جلد الثعبان، ولم تكن حقيبتها ذات المقبضين من جلد التمساح على ذراعها، لم تشبك شعرها خلف رأسها بمشابكها الصغيرة، ولم تضع لا أحمر شفاه ولا مساحيق تجميل، لم تتقلد خاتمها الماسي في إصبعها، ولا مشبكها ذا سلة الزهور على ياقتها.

أردت إيقاف الرجال عند الباب، وأخذ جدتي من الملاءة، أحضنها وأضمها إلى صدري، أسرد لها كلمات محبة لم أستطع قولها لها لسنوات عديدة، وأبثها آلاف المشاعر التي أحملها لها.

«هيا، افتحي الباب»، قال أحد الرجال، فتحت، خرجوا، لم أستطع قول كلمة واحدة، كان هذا وداعا بلا مراسم، صامتا جافا وبلا روح.

في حين، كان هناك مراسم لا أعلم من أعدها، ساز رقيق، كان يعزف أغنية إستانبولية قديمة تهواها جدتي.

«خيّم على الفيافي حزن رقيق».

فــي خضم رياح العاصفة الغامضة تلك، كانت تتطاير مناديل بكشاكش وإسطوانات جرامافون وصور «فوتوصباح».

ما عشــته، وما ســمعته، وما تعرفت عليه مــن الصور، وما اســتطاع خيالي تصوره.. ألوان، وعطور، ومجسمات، وذكريات عائدة لجدتي تدحرج على وجنتيّ على شكل قطرات دمع دافئة، أغلقتُ الباب، توقفت الموسيقى والرياح، انتهت المراسم.

1995

تَزَر أوزلو
TEZER ÖZLÜ
1986 - 1943

ولدت في كوتاهيا، تلقّت تعليمها في المدرسة النمساوية للبنات في إستانبول، جالت أوروبا «أوتوستوب» بين عامي 1962 و1963.

عملت مترجمة، ولعبت عددا من الأدوار على خشبة مسرح الفن في أنقرا، أمضت ما بين الأعوام 1967 - 1972 في العديد من المصحات النفسية في إستانبول، غادرت عام 1981 إلى برلين ثم ذهبت إلى زيوريخ حيث توفيت هناك بعد إصابتها بالسرطان.

تحمل أعمالها شواهد من حياتها من خلال شخوص مطوقين بمشاعر الوحدة والرغبة بالانتحار والموت، لكنهم يقاومون من أجل الصداقة والحب.

جمعت ما نُشر لها من قصص في المجلات منذ العام 1963، وأصدرت أولى مجموعاتها القصصية بعنوان «الحديقة القديمة».

نشرت عام 1980 أولى رواياتها «الليالي الباردة» وهي مستوحاة من مراحل طفولتها ومرضها، كتبت روايتها الثانية

«في أعقاب انتحار» بالألمانية، وبعد فوز تلك الرواية بجائزة «ماربورج» الألمانية عام 1983، أعادت كتابتها بالتركية عام 1984 بعنوان «رحلة على هامش الحياة».

بعد وفاتها، نشرت لها أختها عام 1987 مجموعتها القصصية القديمة إضافة إلى ما لم ينشر منها بعنوان «الحديقة القديمة - المحبة القديمة»، كما قامت عام 1990 بجمع يومياتها ومقالاتها وترجمة ما كان منه بالألمانية في كتاب بعنوان «البواقي»، ثم نشرت لها عام 1995 رسائلها إلى الكاتبة «ليلى أربيل» بعنوان «رسائل من تَزَر أوزلو إلى ليلى أربيل»، بالإضافة إلى سيناريو بعنوان «أحياء خارج الزمن» صدر عام 2000.

إبراهيم الميكانيكي ونُزُله ذو الحديقة

ما أحببت حي «شـــيرين إفلر» في إســـتانبول، مـــذ عرفته، أبدا، هناك شاهدت إبراهيم للمرة الأولى، كان يصلح محرك عربة اشتريت بسعر بخس، كان مفعما بالحيوية، شعره أسود، وما كان مهذارا.

في الواقع، أطراه الجميع بعد أن تمت خطوبته.

- رجل عاقل، قالوا.

- لكن المـــرأة، زوجته لا تتـــرك لأحد مجـــالا للحديث، وتخرس إبراهيم كلما فتح فمه.

الطفل، يثب حول العربة فوق النجيل.

- عربة أبي، بابا بابا.

عمل إبراهيم طويلا على إصلاح المحرك.

لماذا فكرت بالذهاب إلى «شـــيرين إفلر»، في ذلك اليوم الصيفي الحار؟ هل أردت رؤية إبراهيم؟

أم لم يكن لدي ما أعمله، فذهبت مع الذاهبين؟

كان يوم سبت.

ربما أردت الذهاب لأبدو أمام ســـوم واقعيـــا وكي لا أكون بعيدا عنها.

كان إبراهيم يرتكز على عصا، ازداد طولا، ونحُل قليلا، كان قادرا على التجوّل في البيت وهو يجر ساقه المعتلة، ما عاد لون شعره أسود

كمـــا كان ذات صيـــف مضى، ذوى ذلك الرجل قليـــل الكلام، بخوف شديد، بخوف شديد.

- هوه هوه هوه، شرع بالبكاء عندما رآنا.

- اسكت اسكت، قالت سوم.

- ستصطحبك لرؤية ابنك.

- هذه المرأة تضربني بتلك العصا، قال إبراهيم.

- هاااا، تدعي أنني أضربك، أســـاعدك على الاغتســـال، وأعتني بك يا ناكر الجميل، يا ناكر المعروف.

- تضربني، لا تريدني، يخرجون ويتنزهون.

- لقد تطلقنا منذ وقت طويل، قالت المرأة.

- لم تستطيعي الذهاب فأتيت من أجل ابنك.

- أووووه، لديكـــم أطقـــم كتـــب وخزائـــن ومناضد زينـــة، وأرائك وســـجاجيد، وكل شـــيء، من جلب كل ذلك، ومن شـــيّد هذا البيت، وبمال من؟ تسأل سوم وهي تتجول في البيت.

- أنا اشـــتريت كل ذلك، لكنني الآن أُهمل وأُترك وحيدا.. حاول إبراهيم أن يقول.

- هوه هوه هوه..

باكيا بشكل متقطع.

لم يمضِ وقت طويل حتى ملأ صراخ الطفل أرجاء البيت، كان في الحادية عشرة من عمره.

- أكان يبكي من أجل أبيه؟

- سيأتي ابنكم، قالت سوم ثانية.

غادرناهـــم وهم على هـــذه الحال، تركناهم لتنـــزل العصي على رأســـه، قد تكون آخـــر أيامه الجميلة، ابنه إلـــى جانبه، وزوجته إلى

جانبه حتى لو تشاجرا.

لم يكن بينهما وإبراهيم أية علاقة مودة البتة.

البيت يطل على طريق جميل، مؤلف من طابقين بالإضافة إلى ملحق علوي، تحيط به حديقة، بعد صعود الدرج والدخول إلى دار رعاية المسنين، تتقطع العلاقة بمظهره الخارجي.

طاردت سوم الذباب. كانت الغرفة قذرة جدا، زجاج النوافذ، وكل الأرجاء قذرة جدا، ولا شيء سوى سريرين، خزانة صغيرة إلى جانب سرير إبراهيم عليها طعام جفّ وعلبة سجائر.

إبراهيم مستلق على السرير وعلى يمينه ويساره كرسيان، الشرشف متسخ حتى اسود لونه من شدة توسخه، ومنامته أيضا.

تغضّن وجهه، وشعره أصبح كتلة بيضاء، وطالت لحيته، قدماه صغيرتان، طالت أظافره فبدت كمنقار الغراب، لم أعتقد أن حاله ستتدهور خلال سنتين إلى هذا الحد، حتى كدت لا أستطيع التعرف عليه.

- هوه هوه هوه.. شرع بالبكاء.

- اسكت، سنذهب إذا لم تتوقف عن البكاء، قالت سوم موبخة.

- هه هه هه.. ضحك كمن يبكي..

في الواقع، كنا ننوي ترك بعض الطعام إلى جانبه وننصرف سريعا.

ممددة بزاوية هذا الجدار، جثة نزيل قد توفي أمام ناظريه منذ الصباح، لا يمكنه الاستدارة، كي لا يرى الميت، ولا يرى على الجدار سوى القذارة، ولا عمل لديه سوى النبش في الطعام بلا توقف، وعلى نحو دائم، كان ذلك إبراهيم الذي يستعرض في مخيلته مسيرة حياته.. فقد حاسة الشم بسبب العيش في النتانة.

صعدنا طابقا آخر.

- لعل الملحق أكثر أنسا، جال في ذهنها.

كانت سوم تسير في المقدمة، اتجهت نحو النوافذ وفتحتها، وألقت كل ما يوجد إلى جانب السرير من طعام، بينما كنا نتراجع خارج الغرفة هربا، كان معتما ورطبا ككهف، لا يُرى شيء عبر نافذته، كان إبراهيم وحده، صعد إلى الطابق الأعلى لنتانة رائحة الطابق حيث يوجد، سرير حديدي بلا مرتبة قبالته، لا شيء عليه ولا حتى جثة، هنا، لا شيء سوى جدران قذرة، حشرات وذباب، ومشعات تدفئة لا تدفئ، ورائحة نتنة، جلسنا إلى جوار النافذة المفتوحة، بعيدا عنه، كان الجو شتاء، كان متدثرا بغطاء قطني رقيق.

- هوه هوه هوه.. أجهش بالبكاء.

- الحمام يتطاير كل لحظة ولا أستطيع النوم ليلا، كيف ستستمر تلك الحال، وكيف سأحتمل خمس عشرة سنة أخرى، الفئران تقفز من فوقي، أصطادهم في الليل من أذنابهم.

- يلفّق، قالت سوم بهدوء.

ما دام الرجل قال إنه يصطاد الفئران في الليل من أذنابها، فذلك يعني أنه يصطادها فعلا،

جحظت عيناه، وجالت حدقاتها يمنة ويسارة، لم نستطع الاقتراب منه ولا حتى لإشعال سيجارته.

- هوه هوه هوه.. كان وجهه يستطيل وشفتاه ترتعشان، عندما كان يبكي.

- ها ها ها، هه هه هه.. كانت شفتاه تنحرفان جانبا، كان يبكي ويتحدث، كان يضحك وكأنه يبكي..

1971

بينار كور
PINAR KUR
1945

ولدت في بورصا، درســـت المرحلة الابتدائية في عدد من مدن الأناضول ثم في لندن، أكملت المرحلة الثانوية في نيويورك، وبدأت دراســـتها العليا في نيويورك وأكملتها في إستانبول، أمضت أربع ســـنوات في باريس قدمت خلالهـــا أطروحة الدكتوراه في جامعة السوربون بعنوان «الواقع والوهم في مسرح القرن العشرين».

بعد عودتها إلى تركيا، عملت كاتبة دراما في المســـرح القومي فـــي أنقرا خـــلال الأعـــوام (1971 - 1973)، ثـــم انتقلت إلى إستانبول لتعلم أستاذة في قسم آداب اللغات الأجنبية في جامعة إستانبول.

تعمل حاليا أستاذة في جامعة بيلغي في إستانبول.

بدأت حياتهـــا الأدبية عام 1971 بنشـــر المقالات والقصص والنقد المســـرحي في العديد مـــن الصحف والمجلات، كما أولت الترجمـــة اهتماما خاصـــا، وكتبت للتلفزيون وحـــوّل العديد من أعمالها للسينما والتلفزيون.

تناولت في قصصها صراع الفرد النفسي المطوق بالوحدة والقنوط وخيبة الأمل، والتزمت بتمرده على واقعه.

أعمالها في مجال الرواية: غدا.. غدا (1976)، الممثل المسرحي الصغير (1977)، امرأة للشنق (1979)، عشق لا ينتهي (1986)، رواية جريمة (1989)، الخريف الأخير (1992)، الخماسية (2004) (كتبتها بالاشتراك مع أربعة كتّاب آخرين)، كلية الجريمة (2006).

وفي مجال القصة القصيرة: شجرة مجنونة (1981)، مياه لا تجري (1983)، حكايات الأشباح (2004).

ولها في الترجمة أيضا حتى الآن ستة عشر عملا في مجال القصة والرواية والمسرح العالمي.

نالت عام 1983 جائزة سعيد فائق للقصة القصيرة عن مجموعتها القصصية «مياه لا تجري»، والتي اختيرت منها قصتها ضمن هذه المجموعة القصصية.

ومنحت جائزة الشرف في مجال القصة القصيرة في معرض الكتاب في أنقرا لعام 2013.

مسافر لرحلة قصيرة

في الماضي، كنت أستيقظ الساعة السادسة، ثم أصبحت أستيقظ في السادسة وعشر دقائق، ثم صرت أستيقظ في السادسة وعشرين دقيقة، رغم أنني تمكنت من اختصار فترة تحضيراتي الصباحية، لكن لا يمكنني القول بأنني أطلت فترة نومي، مدة نومي ليست بيدي وإن أطلتها مكرها باختصار مدة تحضيراتي، فأنا لم أكن قادرا على فتح عيني صباحا بأي شكل. في البداية، وحين أدركت أن لا أحد يلاحظ عدم حلاقتي ذقني ليوم أو يومين، بتّ أحلق ذقني في المساء بشكل منتظم قبل النوم، ثم أصبحت أحلقها مرة واحدة كل ثلاثة أيام، وإذا ما استطعت الخلاص من عادة احتساء الشاي قبل الخروج من البيت، فلن يبقَى هناك أي مبرر لحلاقة ذقني في المساء، ولن أكون مضطرا للاستيقاظ قبل السادسة والنصف.

أستقل حافلة السابعة كل صباح، لكن عليّ أن أكون في الموقف أبكر من ذلك، وأنتظر في الطابور، كي أجد مكانا شاغرا للجلوس، سكان حيّنا مجبرون على الانطلاق في السابعة على أكثر تأخير، حافلات الصباح تكون مزدحمة، لكن بعد وصول حافلات الطابقين خفّت معاناتنا، ولكن مع هذا..

رغم مرور سنوات طويلة، لكنني لم أعتد أبدا على عتمة الصباح الباكر.. ولا على النهوض ومغادرة فراش دافئ في غرفة باردة عند الفجر وقبل بزوغ الشمس، فكلما يرن المنبه في الشتاء، أسأل نفسي.وأنا أحاول فتح عيني، إن كنت قد أخطأت ضبطه. حالما أنهض، أضع الشاي المعدّ من المساء على الغاز، أرتدي ملابسي على عجل، أقضي حاجتي في المرحاض مستخدما قنينة ماء بردت خلال الليل، لكنها لم تصل إلى حالة التجمد، أحتسي الشاي، أنتعل حذائي، أتأكد من إطفاء الغاز للمرة الأخيرة قبيل خروجي من البيت، أصل إلى موقف الحافلات، أصعد الحافلة وأبحث عن مكان شاغر، لأنطلق في رحلتي مع الزحام المتعَب رغم أن الوقت مازال مبكرا، كل ذلك يحدث وكأنني أعيش في وسط الليل. بعدئذ، وإذا لم يكن الجو ماطرا أو غائما، يتوضّح النهار رويدا رويدا، ويبدأ ضياء الشمس بالبزوغ، عندئذ، نكون قد أصبحنا في محيط «شيشلي» أو ربما قد وصلنا إلى «تكسيم»، فنصبح قادرين على تمييز واجهات المحال، مع هذا، فرؤية ضياء الشمس الساطعة، أمر مختلف.

رؤية ضياء الشمس الساطعة، أو على وجه الدقة، لا بد من انتظار الربيع، للنهوض مع ضياء الشمس الساطعة، الذي بمقدوركم ملاحظته، وإن كان قصيرا قبل حلول الصيف، عند رنين جرس المنبه في صباحات الصيف، تكون الشمس قد أشرقت وطلع النهار منذ وقت طويل. من المؤكد، أن الأمور في الصيف أكثر يسرا، في كثير من الأحيان، لا أشعر بحاجة إلى مواصلة النوم، قد يصدف أحيانا وليس غالبا، أن أستيقظ قبل المنبه، حالما ينبلج الصباح، هناك شعور بالراحة أثناء التحضير

وارتـــداء الملابس دون لســـعة من برد أو ارتعـــاش، عندما يخرج المرء إلى الشارع ويرى تألق ما حوله، ينخدع ويتأهّب لأخذ نفس عميق، لكن يجب ألا ننخدع، يجب ألا يغرّر بنا الضياء، حتى وإن كان الوقـــت مازال مبكرا، حتى وإن كانت الروائح لم تنبعث بعد، فهو سمٌّ، هذا الهواء الذي نستنشقه.

رغم أنني قلت إن الأمور في الصيف أكثر يســـرا، لكني، لست أدري مـــدى صـــواب هذه المقولـــة! قد تكون صحيحة بالنســـبة للاســـتيقاظ في العتمـــة، والمصحوب بالإحســـاس بالبرد، لكن ارتفـــاع درجات الحرارة صعب الاحتمال أيضا، وبخاصة مســـاء عند العودة إلى البيت، فلا تجد ماء ينعشك لغسل وجهك، فعدد ســـاعات انقطاع المياه عن حيّنا يزداد صيفـــا، الانتظار الطويل لركـــوب حافلات أيام الآحاد، أكثر الأيـــام ازدحاما مقارنة بأيام الأســـبوع الأخرى، على أمـــل العثور على متـــر مربع واحد على شـــاطئ البحر، لكن أمســـيات الصيف التـــي لا تنتهي ولا يتبدد ضياؤها، هي الأصعب، كيف تملأ ساعات الضياء الطويلة هذه؟ في الشتاء تحلّ العتمة مبكرا، فيستطيع المرء اللجوء إلى الفراش مبكرا.

في الواقع، الصيف والشـــتاء ســـيّان، أن يكون الجو حارا أو بـــاردا، أن يحلّ الظـــلام مبكرا أو متأخرا، فهذه ليســـت بأوجه خلاف أساســـية، قد تتقلّب الفصـــول وتتغيّر لكن، إذا كان نمط الحياة لا يتغيّر، فما هذه الحياة؟

لا تغيّر في حياتي أبدا، سواء طلع ضوء النهار، أو امتدّ ظلام الليل، أدخل مدينة إســـتانبول من مشـــارف «لفنت»، أصل حتى وسط المدينة، أستقل الحافلة من أحد الموقفين الاثنين المكتوبين

على لوحة الحافلة، وأنزل عند الآخر، أفعل الشـيء نفسـه عند العودة مسـاء، معظم الركاب لا يواصلون رحلة المدينة الداخلية للحافلة من بدايتها حتى نهايتها، البعض يصعد من وسط الطريق وينزل أيضا قبل نهاية الرحلة، أنا أواصل حتى النهاية.

حيث أصعد، يُعتبر داخل الحدود الرسـمية لبلدية إستانبول، لكنها تحاكي بلدة ريفية نائية، رغم مجاورتها إسـتانبول، أُنشئت كحي ببنائه العشوائي في الماضي، تكاثرت عشوائياته الخاصة به على أطرافه مع مرور الأيام، وربما قبل أن أولد، ثم تطوّر وتوسّع مع الوقت، حتى أصبح بمفرده مدينة صغيرة، تؤوي العاملين في إستانبول غير القادرين على الإقامة فيها..

الطريـق الرئيسـي الذي يربطنا بإسـتانبول واسـع ومعبد، كالطريق الرئيسي لأي مدينة في الأناضول، تصطف على جانبيه أبنيـة تتألف من ثلاثـة أو أربعة طوابق وتحمـل أطيافا متميزة مـن الفـن المعماري الحديـث، محال مصطفة جنبـا إلى جنب فـي الطوابق الأرضية للأبنية، بعد قطع من خمس عشـرة إلى عشرين دقيقة على هذا الطريق، يصل إلى ضاحية من ضواحي إستانبول الفعلية، هنا الواجهات الخلفية للمصانع، من اختار لها اسمها كان مصيبا: باجاديبي (قاع المدخنة)! مدينة كبيرة تقع بين «باجاديبي» ومصانع الأدوية، لندخل مدينة حقيقية، جادة واسعة جدا، على جانبيها أبنية عاليـة تخبرك على الفور بأن قاطنيها ميسـورو الحال، كثافة بالسـيارات الخاصة، العبور المفاجئ من الضاحيـة إلى حي راق - هنـاك موقف بالجوار - قد يُذهل من لا علـم له بخصوصية إسـتانبول، لا بد أن هـذه الناحية كانت خارج المدينة عندما أُنشـئت أولى المصانع، فيما بعد، هل تكاثر

الأغنياء والفقراء بنفس النسبة مع توسع إستانبول وتطورها، فغطت أبنية الميسورين واجهات المصانع الأمامية، بينما ضمت الأحياء الخلفية أبنية رخيصة ومزرية؟

حيث أنزل، يعني في وسط المدينة، هو أقدم ميدان في إستانبول، على الأرجح، لكن لا تسألوني عن اسمه، لأنه لم يعد هناك ميدان، فيما مضى، وربما قبل أن أولد، وربما في سنوات ما بعد ولادتي، رئيس وزراء مشهور حوّله إلى شارع واسع أنشأه في المنطقة. أسمع في كثير من الأحيان، صاحب عملي الكبير في العمر يتحدث عن جمال الحال القديمة للميدان، لكنني لا أستطيع أن أتخيله، يتحدث عن بركة ماء كبيرة وأشجار كثيفة وأصوات زقزقة العصافير تملأ الأجواء، القطط تمرح بكل حرية في الميدان، لكنني لا أستطيع أن أجسّد كل ذلك في مخيلتي. تقع في ذلك المكان، كلية الحقوق التي أوقفت دراستي فيها بعد مضي سنتين من الدراسة، بعدما لم يتبقَ على ترفيعي من السنة الثانية إلى الثالثة سوى بضع مواد. منذ فترة وأنا أفكر بدخول امتحانات ما حملته من مواد، وأحاول الدراسة من كتبي التي مازلت أحتفظ بها، هل سأنجح بمحاولتي يا ترى؟ لست أدري، كل ما أفعله الآن، هو النظر من بعيد إلى البوابة المهيبة للجامعة.

أجل، أنزل هنا في آخر موقف، في الواقع، يجب أن أنزل في الموقف قبل الأخير، لا أنزل هناك، بل أفضّل أن أمشي المسافة ما بين الموقفين سيرا على الأقدام، بذلك يكون نزولي مطابقا لما هو مكتوب على الحافلة، وهكذا أستطيع كل يوم، العيش بإحساس نجاحي بالقيام بعملي من بدايته وحتى نهايته.

تمتد رحلتي الصباحية من ساعة إلى ساعتين، بينما رحلتي المسائية تحتاج من ساعتين إلى ساعتين ونصف، هذا مرتبط بالفصل والأجواء؛ صيفا تكون الشوارع أقل ازدحاما، بينما تتباطأ حركة السير في الأجواء الماطرة والمثلجة، لنقُلْ ساعتين بالمعدل، ذلك يعني أنني أقضي أربع ساعات كل يوم ذهابا وإيابا، أقطع فيها نصف إستانبول من طرفها إلى طرفها الآخر.

تجري إستانبول من حولي كل يوم طوال أربع ساعات، وأنا أجري وسط إستانبول في علبة شفافة، لكن دون أن نتلامس، أنا، كرسالة داخل زجاجة أُلقيت في نهر، رغم أنني في النهر، لكنني لست جزءا منه، ورغم وجود أشياء حبيسة داخل الزجاجة، لكن النهر لم يشعر بها ولن يشعر، رغم أن النهر يدفعني من مكان إلى آخر، فأنا لا أستطيع أن أحيد عن وجهته التي نسير، كالنهر لا يلمسني، وأنا أيضا لا أستطيع أن ألمسه.

مسار طريق الذهاب كمسار طريق العودة تقريبا، يختلف فقط لمسافة قصيرة في الشوارع الخلفية الضيقة من الحي القديم لـ «بي أوغلو»، على امتداد الطريق، مئات بل آلاف من الأبنية العالية المتلاصقة تعطيني الإحساس بأنني أتقدم وسط واد صخري وعر، أشجار متفرقة هنا وهناك، على امتداد الطريق محالّ لا تعد ولا تحصى، لافتات ملونة، كتابات مضيئة، دكاكين بقالة، بائعو خضار، مطاعم صغيرة متواضعة، سُمي بعضها بـ «رستوران» وسُمي البعض الآخر بـ «بيت الطبيخ»، مصلحو أحذية، محال لبيع أحذية، صيدليات، ألحفة تخطف البصر بقماشها الأطلس اللماع بألوانها الزرقاء والوردية خلف الواجهات الزجاجية لبائعي الألحفة، محال لبيع ملابس نسائية، محال

لبيع ألبســة رجالية، أطباء أســنان، معارض لبيــع أجهزة منزلية كهربائية تعج بثلاجات وغســالات وأفران غــاز بألوانها البيضاء كالمستشــفيات، وتلفزيونات بشاشات سوداء عمياء، معارض لبيع الســيارات والشــاحنات، صالونات تجميل للســيدات، صالونات حلاقــة للرجال، وخلــف الواجهــات الزجاجية لبائعــي الزهور ألوان ربيعية صناعية لكل الفصول، خياطون، مشــاغل للألبســة الجاهزة، مصارف، مقاصف ضيقة تحمل شــعارات جعة أجنبية وقد عُلّقت على واجهاتها سلال فواكه صفراء وبرتقالية، ملصقات تملأ جدران صالات الســينما والمسارح، أكشــاك لبيع الجرائد، وكالات ســياحة وسفر، أطباء نســائية، محال لبيع ألبسة أطفال، بائعو ألعاب، بائعو مفروشــات مبهرجة لا تثير الإحســاس بعش الزوجيــة، بائعو مهلبية، بائعو معجنــات، بائعو حلويات، واجهات زجاجية مليئة بكتابات بلغة أجنبية لبائعي قطع غيار وســلع مبهم كنههــا، محطات وقود، معاهد مهنية، قنصليات، واجهات زجاجية صغيرة تعرض ملابس نســائية مثيرة كما في الأفلام، محال لبيع الأجهزة الرياضية، بائعو ســتائر، بائعو لوحات أرقام الســيارات، بائعو مشروبات روحية، دكاكين فارغة للإيجار، بائعو مجوهرات، مكاتــب عقارية، مطاعم كباب، فنادق، مدارس ابتدائية، محركات سيارات مستعملة، شــرفات ممتدة حتى السماء، رافعات مركونة فارغــة مجهولة الأحمــال، ميكانيكيو ســيارات، دوائر حكومية، أفران، بائعو كتب، حمامات، ســاونا، نُزل، أســواق تحت أرضية، بائعو أقمشة، بائعو تحف، بائعو مخللات، بائعو تذكارات سياحية، بائعــو مدافئ، فنيــو تمديدات تدفئــة مركزية، نجــارون، بائعو مرايا، مصورون.. وأيضا بشــر، جموع من البشــر تتدفق وتعبر،

منهم من يمشي مسرعا ومنهم من يمشي الهوينى، ينظرون شزرا بعضهم إلى بعض عندما يتصادمون، ومنهم العابرون ضاحكون متأبطون أذرع بعضهم، ومعظمهم وحيدون، متجهمون، على أهبة الاستعداد للشجار، بعضهم شارد ينظر في ذهول، ومنهم غير المبالين في سلبية، فتيات بتأنق غير ملائم يستعرضن أنفسهن بألبسة رخيصة، شباب يترنحون يمنة ويسارة بلا هدف، نساء في منتصف العمر حشرن أنفسهن بمشدات، مسنون بوجوه مستاءة، وأطفال يواجهون الحياة بغطرسة، ملابسهم وإن كانت ممزقة لكنها ثمينة ومبهرجة.

جميعهم، أراهم جميعا كل يوم، جميعهم يعبرون ويمرون من حولي، حياة بأكملها خارج قوقعتي، تمر وتمضي، أو ربما أنا من أمر وأمضي، لا يلمس بعضنا بعضا.

كل جزء من الحياة التي تجري وتمضي من جواري، يختلف عن سواه، لكن هل اعتدت عليها، حتى ما عدت أميّز اختلاف أجزائها من كثرة الذهاب والإياب؟ غالبا، ما أراه سيلا لا يختلف ولا نهاية له، لا يتوقف حتى لو توقفت الحافلة في مواقفها، لا أميّز سوى مكانين فقط، كل ما ألاحظه من لحظة جلوسي على المقعد وحتى وصولي إلى محطتي الأخيرة يبدو لي وكأنني ما إن أجلس حتى أنهض، رغم أني في منتصف رحلتي، ما استطعت النزول أبدا في منتصف رحلتي، ما أفعله خلال ما يقرب من ثلاث سنوات، هو متابعة ما حولي أثناء عبوري هذا المسار كل يوم. أقول، سأنزل يوما ما في أحد هذه المواقف، كلما أقترب تزداد لهفتي، كأنني تحركت ونهضت، رغم جلوسي في مكاني، وإذا ما كنت واقفا، أنظر من فرجة الباب وأظل واقفا، قلبي

يخفق وحلقي يجف. هيا، أقول لنفسي، هيا، هيا، لكنني لا أجرؤ على النزول، هل هو الخوف من أن أصل متأخرا إلى عملي، هل هو الخوف من أن أضلّ طريقي مســـاء في مكان بعيد عن بيتي، هل هناك أسباب أخرى أجهلها تدفعني للخوف؟

كان صباحا شتوياعندما رأيت أربع عرائس محلقات جنبا إلى جنب في السماء، في أحد أوسع شوارع المدينة، بالكاد يشعشع فيه ضياء النهار، كان الفزع، أول إحساس شعرت به. في الواقع، عتمة الصباح بحد ذاتها مفزعة، يظن المرء نفسه في عالم خارج الحقيقة، عتمة المساء بمصابيحها الكهربائية ذات الأنوار الصفراء اللماعة كالنجوم، تحمل الدفء إلى النفــوس، حتى أثناء هطول الأمطار، أما عتمة الصباح فهي دائما موحشـــة، فمصابيح الشوارع المضاءة صباحـــا، يضرب ضياؤها إلى اللون الأخضر فتمتص كل النور من حولهـــا بدلا من أن تُضيئه، فيبدو ضبابيا، تتقبلون عتمة المســـاء، فهي بشير بانتهاء يوم حقيقي، مهما كانت أحداثه، لكنه مضى مع مـــا حمله من متاعب، في حين، عتمة الصبـــاح الضبابية الكريهة والتي على وشك الإعلان عن نهار لم يبدأ بعد، تفصل بينكم وبين حقيقة عالم كسحابة حلم مخيف، بعد أن تستيقظوا وتنطلقوا من بيوتكم، من المؤكد أنكم لا تكونون قد أدركتم تلك الحقيقة بوضوح، وهكذا أنا أيضا، فعندما رأيت أربع عرائس محلقات في الســـماء، لـــم أندهش من فوري كمن مازال في حلم غير متوقع، ظننت أنني مازلت أحلم، زوجتي أصبحـــت أربعة، تقطع عليّ طريقي لتقتص مني مرة أخرى، عندئذ أُصبت بالفزع.

لا بـــد أن حركة الســـير قد تأزّمـــت ثانيـــة، فالحافلة كانت متوقفة، لحسن الحظ أنها توقفت لمدة طويلة، وهكذا فقد ميّزتُ

أن العرائس الأربع مصطفات خلف واجهة زجاجية على امتداد الطابق الثالث من مبنى مرتفع جدا على الرصيف المقابل، وهي ليست سوى دمى بلا روح لعرض الملابس، بعد أن رفعت رأسي قليلا، لاحظت وجود كتابة فوقها مباشرة، لم أتمكن من قراءتها إلا بصعوبة «بيت اللحلاح لفساتين الزفاف»، الأحرف كُتبت باللون الأسود على خلفية بيضاء، لو كان العكس لكان بالإمكان قراءتها بسهولة أكثر في العتمة، بعدما قرأت ما هو مكتوب، تبين لي أن العرائس صناعية، هل صحوت من الحلم الذي لم أكمله؟ ذلك ليس بهذا القدر من البساطة..

لم تتقبل زوجتي الزواج بفستان زفاف مستأجر ولا بأي شكل، لم يضحك وجهها ولا لمرة واحدة، لا أثناء عقد الزواج، ولا خلال ركوب سيارة أجرة مزينة حين الذهاب لزيارة مقام «تلّي بابا»، ولا في صالة الأفراح بعد الظهر، ولا خلال ركوبنا سيارة الأجرة من جديد قبيل المساء حين الذهاب إلى بيتنا. بعد أن وصلنا البيت، وحان وقت خلع فستان الزفاف شرعت بالنحيب، كنت أظن أنها قد تقبّلت الأمر وأدركتْ عدم قدرتي على شراء فستان زفاف، لقد طفنا لأيام عديدة كل الأسواق ابتداء من بي أوغلو، إلى كابالى تشارشي، إلى سوق مصر، إلى محمود باشا، مضى على ذلك أربع سنوات، لم يكن كل شيء باهظ الثمن مثل هذه الأيام.. رغم ذلك لم تستطع إيجاد فستان زفاف يعجبها وبنفس الوقت يناسب إمكانياتي المادية، النقود التي حصلت عليها من بيع بيت صغير آل من والدي، بعدما أعطيت زوجة أبي حصتها من ثمنه، بالكاد كان كافيا لشراء الخواتم وسوارين، ومصاريف حفل الزفاف، والقسط الأول لما أصرّت على شرائه من ثلاجة

وتلفزيون وطقم غرفة ضيوف، لو لم يكفلني صاحب عملي لما كنا لنقدر على شـــراء متاع البيت، رغـــم أني لم أكن قد عملت عنده لمدة طويلة، لكنه لم يرفض توقيع سندات الدين، في هذا الزمان من يســـاعد من؟ منذ ذلك الوقت وأنا مدين لجميل هذا الرجل، ظـــل جميل هذا الرجل في عنقي، لم أســـتطع طلب زيادة راتبي لأربع سنوات، انتهت الأقساط السنة الماضية، مع هذا لم أستطع أن أطلب زيادة راتبي، ما كان ليزيدني قرشـــا واحدا علاوة على الزيادة القانونية بدافع وجدانه، بل لعل خشـــيته من تركي العمل عنده لأعمل براتب أفضل، وربما بدافع الشـــفقة عليّ لتسديدي طوال ثلاث سنوات ثمن متاع لم أستعمله أكثر من ستة أشهر.

هل كان الزواج بفستان زفاف مستأجر مصدر شؤم كما تقول زوجتي؟ أم بكاؤها أول ليلة حتى الصباح قد جلب ســـوء الطالع لزواجنـــا؟ أم كان هناك من تحبه قبـــل زواجنا؟ لقد تخليت منذ مدة طويلة عن البحث عن جواب لكل تلك الأسئلة، كلما رأيت تلك العرائس المصطفة خلف الواجهة الزجاجية المرتفعة، يعني مرتين كل يوم، أستعيد وأفكر بتلك الأسئلة بلا جواب. في الماضي، كنت ألوم نفسي، كان يجب عليّ شراء فستان زفاف بأية وسيلة! لكنك لم تكن لتســـتطيع شراء فســـتان زفاف، ما كان يجب ترك المرأة الشـــابة وحيدة حتى ساعة متأخرة من الليل، وأحيانا كثيرة أيام الســـبت والأحد، بحجة السعي لكســـب مال أكثر! لكنك تركتها وحيدة، كان يجب إنجاب طفل بأســـرع ما يمكن، الحمل ورعاية الطفل، يملأان فراغ حياتها فلا تفكر بشخص آخر.

كل ذلك ندمٌ بلا جدوى، رغم أني كنت أعلم ذلك في حينه، كرر زملائي في العمل وصاحب العمل على مســـامعي، هذه النصائح

عشـــرات المرات في حينه، لكن ألا يـــدرك العاقل الحقيقة؟ إذا مـــا فكرت المرأة بالهرب، فســـتهرب يوما ما، حتى لو عاد زوجها باكرا كل مســـاء، وحتى لو كان في حضنها طفل، ما دامت ترغب بالهرب، ســـتهرب، كم شـــهرا كنت أبلغ مـــن العمر عندما هربت أمي؟

مر على ذلك وقت طويل، ما عدت أحبها ولست حتى غاضبا منهـــا، يبدو أن المحبة قد تبددت على الفور حينما عدت مســـاء واكتشـــفت أن أكثر من نصف متاع البيت قد اختفى، لكن الحنق اســـتمر وقتا طويلا، أيقال حب عن المشاعر التي تختفي في مثل تلك اللحظة؟ لا يمكنني الآن أن أدّعي المعرفة، أقول لنفسي كلا يا هذا، الحب الذي قرأت عنه في بعض الكتب، ليس باستطاعتك إدراك مشـــاعره، أمثالك من يتجاوزون تلك الصدمات الشديدة، ربما، لذلك كانت زوجتك تبكـــي كلما احتضنتَها، إلى أن جمعتْ ما أخذتَه بالتقســـيط قبل انقضاء ستة أشهر، وتركتْك إلى رجل آخر، مع أني اعتبرت عشـــقا، تلك المشـــاعر التي اضطرمت في داخلـــي حين فكرت بالزواج منها عندما كنت شـــابا، ورجوتها أن تقبل بي زوجا لها.. وعندما قررت بيع بيت والدي، كنت عاشـــقا إلى درجة رمي المرأة التي رعتني عشرات السنين بحلوها ومرها، إلى الشـــارع! لم يتبقَ سوى هذا الحنق، لكنه تجاه نفسي، أحقد على نفســـي، ليس بسبب فشلي بالحب، ولكن لطردي زوجة أبي المســـنّة من بيتها الخرِب، رغم أنـــي أعطيتها نصف ثمن البيت، ورغـــم ما قاله صاحب عملنا من أننـــي أعطيتها أكثر من حقها، وحتى لـــو أنني حاولت تصديق أقوالهم، فأنـــا أعلم جيدا أن ما أعطيتها من مال، لن يكفيها لما تبقى لها من سنوات عمرها، لكن

لم يكن بمقدوري عمل شيء آخر، أو كنت أظن في ذلك الوقت، أن لا حل آخر، كنت مصمما على الزواج بآيسيل، أما هي، فلم تكن تفكر أبدا بالإقامة مع امرأة مسنة في بيت أبي الخشبي الآيل للسقوط على الضفة الآسيوية من المدينة، كل ما كانت تفكر به.. خواتم وأساور وأقراط، أحذية وحقائب بألوان متشابهة، ومعاطف بياقات من الفراء الأبيض تشبه ما رأته في أي مما لا أدري من الأفلام السينمائية، وقبعات.. كانت أختها الكبرى وزوجها يعيشان في ظروف أصعب، مهما فعلت لأجلهم لم يكن كافيا، كانت أختها الكبرى تدعوني بأخيها الصغير الوحيد، أما صهرها فكان يقول إنها بمثابة ابنته، كنت أبذل قصارى جهدي لتلبية رغباتهما، لظني أني غير قادر على العيش دون آيسيل، لو كنت أعلم أن عدم شراء فستان زفاف سيؤدي بي إلى الاعتياد على العيش دونها، قبل مضي ستة أشهر على حفل الزفاف الذي كلفني غاليا، لما انتزعت بيت أبي من زوجة أبي.

فكرت مرات عدة بالنهوض باكرا في يوم عطلة والذهاب إلى الضفة الآسيوية، للبحث عنها عند أقاربها حيث لجأت، لأعرض عليها العودة والإقامة معي ثانية، لكنني لم أجرؤ يوما على النهوض مبكرا في يوم عطلتي الوحيد في الأسبوع، هل لظني أنها لن تأتي بعدما لعنتني أثناء الحدث، أم لرغبتي بألا تعلم بهروب زوجتي، أم لكلا السببين؟

كانت محقة بالحنق عليّ وشتمي، لم ألمها أبدا، كما أني ما عدت غاضبا من زوجتي، وإذا ما أحنق على نفسي، فذلك أيضا أحيانا.. يعني، مرتين كل يوم، عند مرور الحافلة من ذلك الموقف، سأنزل يوما ما هناك، حيث العرائس الصناعية تنتظر

دائما، ما الذي سيحصل إذا ما نزلت؟ لا أعرف على وجه الدقة، هل ستدب الحياة في إحدى هذه الدمى التي فتحت ذراعيها لكل عابر طريق؟ زوجتي التي لم تستطع امتلاك فستان زفاف يوم عرسها، هل ستعود إليّ وقد ارتدته؟ وماذا عني أنا، هل سأفعل كما فعل أبي بأمي وأنجب طفلا بلا روح؟ هل سينفجر فجأة ما أكظمه وأحاول نسيانه من غضب، فأقتل امرأة غير حقيقية دون إراقة دماء؟

كل ذلك لا يمكن حدوثه، رغم هذا لا بد أني سأنزل هناك يوما ما، حتى وإن كنت لا أجرؤ على النزول في الوقت الحالي، يوما ما..

بعيد جدا هذا الموقف الذي أفكر بالنزول فيه عن الموقف الأول.. من كل الجوانب، ذلك المكان لا يثير في داخلي مشاعر غضب، بل مشاعر حنين، أي حنين؟ لمدة طويلة لم أستطع فهمه، مرة واحدة في اليوم أمرّ من هناك. في المساء عند العودة، شارع ضيق لا أعرف اسمه، بل ربما ليس بشارع بل زقاق باتجاه واحد، على جانبيه مبان عالية متراصة بواجهات سوداء قديمة، لكنها تبدو متينة، مع أنه يبدو استحالة سعة هذا الزقاق لسيارتين إلى جانب بعضيهما، لكنه يضم اثنين من الفنادق الكبيرة المشهورة، وعددا من الفنادق الصغيرة غير المعروفة.

في طريق العودة، ورغم كل ما أحمله من إرهاق اليوم، أكون في العموم، أشد انتباها وقربا لما يحيط بي، فأسعى لرؤية كل التفاصيل في السيل المتدفق خارج الزجاج، وبخاصة إذا ما تمكنت من إيجاد مكان للجلوس في هذه الحافلة المكتظة، وتحديدا إذا ما كان قرب النافذة، تختلط الألوان ببعضها في

الأوقــات التي نقطع فيها الطريق بســرعة، لكن غالبا ما نتقدم ببطء، في ذلك الوقت، أنشغل بفك الكتابة على اللافتات، وأدقق بالواجهــات الزجاجيــة المجاورة، أراقب النــاس المتدافعين عند الباب محاولين ركــوب الحافلة في المواقف، وجــوه غير مبالية أو وجوه متجهمة، هزيلة متغضنة أو ممتلئة ومشــدودة، بشوارب أو بلا شوارب، مسنة، شــابة، قبيحة، جميلة، جلفة، عدوانية أو خجولــة، كل منها تختلف عن الأخرى، لكن وكأن فيما بينها صلة قرابة، أو ربما هذا مــا تراءى لي، حاولت أكثر من مرة الوصول إلى أســباب رابطة القرابة هذه، فكرت طويــلا، ولكن بالتأكيد ليــس بالبحث عن وجهة نظر علمية، باختصار، حب اســتطلاع ســطحي وعابر، يمضــي ما بين موقف الحافلــة والموقف الذي يليه، أو ربما خلال أكثر من موقف، إذ لا شــيء آخر أفعله. هل الإرهاق هو الطرف المشــترك بينهم أم اليأس؟ هل هي محاولة التشــبث بباب الحافلة مهما كلف الأمر، العناد أم الإصرار؟ هل هــو اللاوعي الذي خلق بينهم هذه الصلة؟ هل التدافع الحيواني نتيجة للاوعي؟ أم أن ركوب الحافلة يوجِب التدافع لتأمين موقع لغرض الذهاب من مكان إلى آخر؟ هل هو الجوع أم ليس ســوى تأمين لقمة العيش؟ هل هو العطش أم ليس ســوى تأمين جرعة ماء؟ لســت أدري، بل لا أســتطيع أن أعرف، لم أفكر طويلا في هذا الموضــوع، ولا قدرة لي علــى التفكير بعمــق، كل ما أفعله ليس سوى قضاء للوقت، أقضي الوقت بأشياء كثيرة، لكن دائما بالذيــن في خارج الحافلة، غالبا، لا أنظر البتة إلى الذين داخل الحافلة، في أيام مزاجــي، أتأمل الذين في الخارج، في الواقع، الذين في الداخل مثلي، لا جوانب مثيرة للانتباه لديهم، في حين،

توجد أشـياء مختلفة في الذين في الخارج، ما هي؟ ذلك أيضا لا أعرفـه، هـل هي الحرية؟ هـم أحرار ما دامـوا في الخارج يكافحـون أمام الباب للعبور إلى الداخل، إذ هناك احتمال بعدم التمكن من الركوب، في الخارج، هل أنظر إليهم شوقا إلى القدرة أن أكـون في الخارج ضمن معترك الحيـاة؟ في بعض الأحيان، يسترعي انتباهي شعر أشـقر لفتاة شابة، وأحيانا أخرى عينان خائفتان لمسـن، لكن ذلك لا يستمر لفترة طويلة، فعندما تنطلق الحافلة من جديد، تتلاشى صورهم من مخيلتي وأغرق بمتابعة لافتات جديدة وواجهات زجاجية جديدة وأضواء جديدة، ووجوه أنـاس جدد في المواقـف التي تلي، في حين ولفتـرة طويلة، لم أسـتطع فهم تعلقي بتلك الواجهة الزجاجية المغبرة المعتمة التي يرشح من كل جوانبها القِدَم والبِلى.

الزقـاق المذكور، أو الجادة كما يُطلـق عليه، ضيق ومعتم، أما رصيف المشـاة، فعرضه بالكاد شـبران ونصف. عندما نتوقف، يبدو زجاج الحافلة وزجاج واجهات المتاجر وكأنهما متلاصقان.. كان المطر ينهمر، عندما رأيتها مساء، أول مرة -أغلب الظن، كان ذلك بعد مضي عدة أشـهر منذ أن شاهدت العرائس في السماء ذات صباح- كان مسـاء شـتويا، تميل زرقته الداكنة إلى السواد، حتى إن قطرات المطر المنسـابة على الواجهـات الزجاجية غير المضاءة، ما كانت تلمع، تمكنني من رؤية ما رأيت في النور الباهت جدا والمنعكس من داخل المحل، يدعو إلى الدهشة، النافذة القذرة للحافلة، وزجاج الواجهة المغبر من الداخل، وما بينهما من ظلامية المطر، تحول إلى زجاج مغشّـى سميك، رغم ذلك فقد تمكنت من الرؤية، بيد أني لم أسـتطع فهم لماذا ما رأيته كان مدهشا، حتى

جعلني أثب من مكاني، تماما كما حصل معي في صباح الأشــباح ذلك، قبل عدة أشهر، وكأنني وصلت إلى غايتي، لم أصب بالفزع هذه المرة، كما لم ينتبني شـعور بمواصلتي لحلم، لكن قلبي خفق بشدة، مع أن الشيء الذي رأيته، لم أكن قد شاهدته من قبل -أو ربما حسب ظني- ليس سوى متاع بيت عادي.

كانت تلك شماعة ملابس، مصنوعة من خشب الجوز - أو ربما مطلية لتبدو كخشـــب الجوز - لتعليق الثياب السميكة كالمعاطف والســتر المطرية، ثلاثة أشكال رباعية الأضلاع على شكل قطعة بقلاوة إلى جانب بعضها، عجرة بنقوش ناعمة على كل زاوية من زوايا المعينات، المجموع عشــرة عجرات - أحصيتها أثناء مرور آخر - من المحتمل أنه يطلق عليها اســم آخر، في ذلك المســاء، لم أتوقع أن تحمل تلك الشــماعة اسما خاصا، على اعتبار أنها من نوع فريد، لم يخطر بذهني مطلقا أنها تحمل اســما خاصا، رغم أنها لم تغب عن ذهني أبدا، بعدما رأيتها ذلك المساء، سواء عند ابتعاد الحافلة عن تلك الواجهة الزجاجية المعتمة، أو طوال رحلتــي بين المواقف، أو عند وصولي البيــت، وأثناء إغلاق باب الشقة بعنف، وأنا أحدث نفسي بصوت مرتفع، متمنيا شراء هذه الشماعة لأعلقها خلف هذا الباب، أو حتى في كل الأمسيات وأنا أحاول دائما أثنــاء انقطاع المطر، قراءة ما كتب بحروف صغيرة جدا على اللافتة القديمة البالية «الهيفاء للأثاث والمفروشات»، يبدو أنها تحتل اســما خاصا، ذلك ما قاله صاحب العمل، ذات يوم أثناء تناول طعام الغداء.

مكان عملنا صغير، مجموع العاملين فيه لا يزيد على عشرة، تعاقد صاحب العمل مع مورد لطعام الغداء، نجلس ســويا كل

يوم ما بين الثانية عشرة والواحدة ونتناول الطعام، يشاركنا هو أيضا، رجل متواضع، لا نستطيع المغادرة فترة الظهيرة، فوجبة الطعـــام بلا مقابل، كما أن ذلك أمــر آخر، في واقع الأمر، ما الذي ســيحصل لو خرجنا؟ أسوأ قطعة خبز محمص بالجبن، أو شطيرة شــاورما لا تحوي سوى لقيمتين من اللحم ستكلفنا الكثيــر، على أية حال، فالمرء، من حين لآخر، ومع حلول الربيع يرغب بالخروج لاستنشــاق نســيم عليل.. أثناء تناول الطعام، يدور بيننا حديث مع صاحب عملنا من القلب إلى القلب، غالبا ما يتحــدث هو عن الضغوط التي يتعرض لهــا، تتجه أعماله يوما بعد يوم نحو الأسوأ، وأنا الشاهد الأقرب على ذلك. يكد لتســيير صنعــة ورثها عن جده، بآلات تقادمت وتســعة عمال بالإضافة إليّ كمحاســب وكاتب، أمام منافســة مصانع كبيرة تعمل بمئات العمال والآلات الحديثة، لا يســتطيع منافســتهم بســهولة، كما أنه أحيانا، يســألنا عن همومنا، يُظهر اهتماما أبويــا، ويقدم نصائح مطولة، أنا لســت كثيــر الكلام، ما كنت أتطرق، في مثل هذه الأحاديث الجماعية، عن زواجي، وهروب زوجتي، باعتبارها أحداثا عفّى عليها الزمن، وما عادت حديث الســاعة، لكن، لســت أدري كيــف خطر ببالــي التحدث دون مناســبة، عن الشماعة التي شاهدتها في واجهة المتجر، رويت ذات يوم، بانفعال وإســهاب عن رؤيتي لشــيء مناسب للتعليق خلــف الباب، «هاااا، صحيح»، قال صاحب العمل، بعد أن زال توتره القديم في الأشــهر الأخيرة، وهو يمسد كرشه، وينكش بعود ثقاب أسنانه الخلفية، «شــماعة تفتح وتغلق، قديما، في أيام شبابي، كانت موجودة في معظم البيوت..».

في تلــك اللحظة، مر في مخيلتي، وعلــى نحو مفاجئ، بيت قديم وخيالات من طفولتي، تذكرت الشماعة على الفور، كان في بيــت جدتي من أمي، مثل تلك الشــماعة خلف الباب، ربما هي نفس الشــماعة، لذلك، ما إن رأيتها في الواجهة الزجاجية حتى رســخت في مخيلتي، ويبدو جليا، أنها مازالت تستحوذ على جل تفكيري.

لا يمكننــي القول إن كل شــيء في بيت جدتــي من أمي، قد تجسد جليا أمام ناظري، رغم استعادتي في لحظة لبعض ألوانه وصوره، لكن من الصعب سرد تفاصيله لأحد، وحتى لو حاولت أن أستعيد لنفسي ما رأيته، فقد مر ذلك البيت القديم من مخيلتي كحلم، ســرعان ما تلاشى واختفى، إلى حين توقفت الحافلة من جديد، في الموقف الذي أمام ذلك المتجر.

تقتــرب الحافلة من الموقــف، يتوجه نظري مــن النافذة مع انعطاف الحافلة صعودا من «شيشــهانه»، معلنة قرب الوصول، لا أجــد أحيانــا، مكانا للجلوس بجانب النافــذة التي تطل على المتجــر، رغم ذلك أبذل قصارى جهــدي لأتمكن من رؤية ما في الواجهة الزجاجية من بدايتها وحتى نهايتها، لا أبعد عيني عنها طالمــا الحافلة تنتظر في الموقــف، كأن ما أراه ليس بواجهة بائع عتيق بغبارها وجمود حالها، لقد مضى أكثر من ســنتين ولم تُبع تلك الشماعة، وكأنها عينة ليست للبيع، لم تُحرّك من مكانها ولا حتى لمرة واحدة، رغــم غرابة عدم حصول أي تغيير في المتجر، لكنني، كنت في كل مرة أمر فيها من هناك، أجد أشــياء جديدة في الصفوف الأمامية، لم أكن قد لاحظتها من قبل، في كل مرة عند انطلاق الحافلة من جديد في طريقها المتقلقل، كنت أحمل

معـــي تفاصيل جديدة من ســـنوات طفولتي فـــي بيت جدتي من أمي.

الـــدفء، هو أول وآخر شـــيء أتذكره دائمـــا من بيت جدتي، ثم أتذكر شيئا فشـــيئا، تفاصيل ذلك الدفء، المدفأة البورسلان البيضاء الموشـــاة بالزهور الورديـــة والعصافير، كنت أظن لفترة مـــن الوقت، أن تلك العصافير قادرة على التغريد، وعندما كانت جدتـــي تنقل الجمرات من المدفأة إلى منقل كبير الحجم اســـودّ نحاســـه، كانت تذر فوقها قبضة من السكر، فيتراقص في المنقل لهب أزرق، وتنتشر على الفور في أرجاء الغرفة رائحة زكية، تدمع عيناي وأشـــعر بحرقة فيهمـــا، وبعدما يزول الدمـــع، يكون لون الجمر قد تحول من الأحمر إلى الأســـود. مصابيح عارية بإنارة صفراء فاقعة، أحد تلك المصابيح ينير المتجر من خلف الواجهة، لكـــن نوره باهـــت، أما مصابيحنا فكانت تضـــيء بلمعان ودفء. على الأرض سجاجيد، وعلى الجدران سجاجيد، وسجاجيد على الديـــوان أيضا، عالم مغطى وملفـــع، ما كنت أعرف ما هو البرد حتى أخذني أبي واصطحبني إلى بيته.

كانت جدتي تضجعني على ركبتيها، وتروي لي عن أمي مدعية موتها، صندوق من خشـــب الجوز في الزاوية، تخرج منه أحيانا ملابس بهتت ألوانها، بعضها أبيض وبعضها لمّاع، منها الموشاة أو من الدانتيل، وتريني صورا فوتوغرافية اصفرّ لونها لاحقا أو ربما كانت كذلك عندما ســـحبت. كانت تنتشر رائحة زكية في أرجاء الغرفة عند فتح الصندوق، لكنها مختلفة عن تلك التي تفوح من المنقـــل. الصندوق غير مزين ومن دون نقوش، ســـوى وريقة نفل رباعية نقشـــت دون عمق بشكل ســـطحي. خطوط زواياه الأربع

منتظمـــة إلى الحد الذي تظهر هوس الإنســـان بعلم الهندســـة. أسطحه الخارجية تلمع كمرآة، وداخله مبطن بالقماش. أنا على قناعة الآن لســـبب أو لآخر، من وجوده في مكان ما داخل متجر «الهيفاء للأثاث والمفروشـــات» الذي عفّى عليه الزمن، يوما ما، ســـأنزل في ذلك الموقف، ســـأدخل المتجر، وأسأل عن صندوق جدتي، لا شـــك أن رجلا مسنا وربما بلحية بيضاء سيريني إياه، بل ربما ســـيفتحه ويخرج من داخله صور أمي الممحوّة وألبستها القديمة.. ستفوح في المتجر المغبر رائحة زكية..

رغـــم يقينـــي بعدم حدوث ذلـــك لكنني أحاول إقناع نفســـي بحصوله، أنا على قناعة بأنني سأنزل يوما ما في ذلك الموقف.

لم يبق فـــي ذاكرتي من مظهر جدتي ســـوى وجهها المتغضن جدا، وشـــعرها المثير للدهشـــة في بياضه، مع هذا كانت امرأة خفيفة الحركة، كانت تمشـــي في الشارع بسرعة غالبا إلى الحد الـــذي ما كنت ألحق بهـــا، كانت تجرني خلفهـــا، وإذا ما لزم أن تركض خلفي في البيت تركـــض، وتقبض عليّ دائما، ذلك يعني أنها لم تكن مســـنة جدا، ما أستطيع تذكره من تجاعيد وجهها، من الطبيعي جعلني أظن في حينه أنها مســـنة جدا، كنت صغيرا جدا عندما أخذني والدي واصطحبني –هل كنت في الخامســـة أم في السادســـة مـــن عمري؟ لم أكن قد دخلت المدرســـة بعد– أتذكـــر جمال أمـــي من الحكايات التي كانـــت ترويها، وليس من الصـــور التي كانت تريني إياها، يبدو أنها كانت جميلة بل جميلة جدا، كانت ملكة جمال الكون، تشـــبه بنات الجنيات، مثل اللؤلؤ، لكنها كانت طائشة، كانت ترغب دائما أن تكون في واقع مختلف عمـــا كانت فيـــه، أحلامها كانت جنونيـــة – «لا تكن مثلها، حط

عقلك براســـك، يا صغيري!»- لقد تعلّقــت برجل غير طبيعي، أذاقها الرجل مر العذاب، وحــوّل حياتها إلى جحيم.. في نهاية الأمــر، لم تعــد أمي قادرة على الاحتمال، ومــا إن ولدتني حتى أصابها مرض لم يمهلها كثيرا فماتت. كم كانت جميلة، كم كانت جميلة، مثل الملائكة حتى وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

كل ذلك - أو معظمه - أعلم الآن كَذِبه، أعلم أن موت أمي كان دمويا شــنيعا ولا يليق بالملائكة، لكن في ذلك الوقت.. كنت مثل كل الأطفال أصدق الحكايات، والحكايات كانت جميلة، لا أقول، ليتني أصدق ذلــك الآن، لقد اجتزت عمــر تصديق الحكايات، أعــرف أنها كذب، ليــس حكايات جدتي فحســب، بل حكايات النساء الشــابات أيضا، كما أن الغرف ليســت دائما دافئة، مع هذا، فكلما نظــرت إلى الواجهة الزجاجيــة، أرى غرفة دافئة، مرآة بيضوية بإطار من خشب الجوز هناك، كرسي غريب الشكل بلا مســند خلفي، لكنه بمســندين جانبيين اثنين يضعونه خارج المتجر على الرصيف عندما لا يكون الجو ماطرا، أقســم إن تلك الأشــياء أيضا كالتي كانت في بيت جدتي، يوما ما، ســأنزل في ذلك الموقف.

كان وجهها يكفهر كلما سألتها عن أبي، كانت تقول باختصار «لا أب لك»، مع أن ذلك كان كذبا، وكان أول كذبة أكتشــفها دون أن أسعى لكشفها! ذات يوم، قُرع الباب، «أتيت لاصطحاب ابني»، قــال أبي، كان جليا أن هذا المجيء غير متوقع من إصابة جدتي بالإغماء ووقوعها على الأرض في وسط فناء الدار.

كــم بكيت كثيــرا كي لا أتــرك جدتي وأذهب مــع الغريب المدعي أنه أبي! ظللت أبكي خلســة لأشــهر بعدما أســكنني

الرجل في بيته البارد على الضفة الأخرى، الآيل للسقوط منذ ذلك الوقت، من دون مدفأة بورسلان، من دون منقل، من دون سجاد، من دون صندوق ومن دون شماعة هارمونية، ظللت لأشهر ولسنوات أفكر بوسيلة للهرب من هناك والعودة إلى بيتي القديم حتى بعدما جاءت زوجة أبي، وحتى بعدما بدأتُ الذهاب إلى المدرسة، في البداية، كان أبي لا يذهب دون أن يقفل عليّ، لكن بعدما جاءت زوجة أبي وبدأتُ الذهاب إلى المدرسة أدركت أنني عاجز عن إيجاد وسيلة للهرب، تجنّب والدي من ذكر اسم الحي القديم حتى وفاته، ربما لو مررت ذات يوم من هناك مصادفة، وقبل أن تتغير معالم إستانبول كثيرا، لكان بإمكاني أن أتعرف على شجرة، أو نافذة، أو دكان بائع حلوى، أو ربما كنت ألمح جدتي أو أشياء تذكرني بها، لكن ذلك لم يحصل، لا أعرف حتى هذا اليوم في أي حي عشت أول وأجمل سنوات طفولتي الأولى.

فكرت متأخرا جدا بسؤال أبي عن أمي، ليس عند ذهابنا إلى ذلك البيت القذر والبارد، وليس عند مجيئه وإحضاره بعد مدة لامرأة غريبة، ليس عندما أدركت بشكل قاطع عدم قدرتي على العودة إلى الحي القديم مرة أخرى، بعد ذلك بمدة طويلة وعندما أصبحت في آخر صف من المرحلة الابتدائية، توصلت بتفكيري، أو ذلك ما تمنيته، أن لا شيء صحيح مما كانت ترويه جدتي، فكذب قولها «أمك ماتت»، بقدر كذب قولها «لا أب لك»، انطفأت جذوة ألم الابتعاد عن جدتي، بل ربما ضاع في غياهب النسيان، ووقعت في هوس معرفة ما هو حقيقة وما هو حكاية، سألت أبي عن أمي.

اكفهر وجهه تماما مثل وجه جدتي عندما كنت أسألها نفس السؤال، «لا أم لك»، قال، «أمك هجران»، حسب قوله، ما كان ينظم شعرا، فقد كان اسم زوجة أبي «هجران»، لم يعلمني شيئا جديدا بأقواله، في ذلك الحين، ما كنت أعرف ما هو الصدق وما هو الكذب، لكن بعد سنوات، وبينما كنت في المرحلة الثانوية علمت أن قاتل أمي هو أبي، كان ما روته جدتي في بعض جوانبه صحيحا، لكنها ماتت ليس من الحزن، وليس من المرض، بل أبي من ذبحها بالسكين، ربما أنها أحبت رجلا آخر، وربما أنها هربت معه أو حاولت الهرب، حتى الآن، لم أستطع معرفة الحقيقة فالإشاعات متضاربة.

هل غضبت من أبي لقتله أمي؟ أم غضبت من أمي لأنها تركتني وذهبت؟ كم كل ذلك الآن بعيد وضبابي، كم جهدت لسنوات لإبعاد كل ذلك من حياتي، بل لا أذكر حتى إن كنت قد غضبت، على أية حال لا يمكنني الغضب بكل بساطة من بطلة حكاية لم أتعرف عليها قط، لم أرها شخصا حقيقيا أبدا كأم، أردتها واشتقت لها كملكة جمال. أما عن أبي، فقد كان قويا وعنيفا لا يكبح غضبه ولا يتوانى أبدا عن ضرب من يغضبه أيا كان، علمت من الآخرين بالحادثة إذ لم أستطع أن أسأله شخصيا عما حدث لأمي، حتى لو كنت غضبت، فقد كظمت غضبي كما كظمت السابق وآثرت النسيان، كنت طفلا مطيعا، وأصبحت رجلا مطيعا.

مطيع.. أعتقد أن أشخاصا قليلون في الدنيا يُختصرون هكذا بكلمة واحدة، أنا رجل مطواع، لي حياة طيّعة، هكذا حصل دائما. مع هذا، أستطيع أحيانا، أن أفكر بالتمرد، أتحدى نفسي

بشـــدة، إذ ليس لي من أحد ســـواي للتمرد عليه. أقول، سأنزل يومـــا ما في أحد تلك المواقف.. وبشـــكل قطعي، صعود الحافلة كل يوم من أحد الأســـماء المكتوبة عليها والنزول بالأخرى مرتين لا يكفي لإتمـــام دورة الحياة، لا يكفي تمضية أيام العمر بالعبور خارج خضم الحياة، لا يكفي أن تكون مثل رســـالة لم تُقرأ وهي داخل قنينة تسبح في مياه النهر، يجب على تلك الرسالة الخروج مـــن القنينة حتى لو تبللت ولم تعد في حالة يســـهل قراءتها، بل حتى لو تمزقت وفنيت.

حتى لو لم أســـتطع العثـــور على صندوق جدتـــي المغبر في المتجر البالي، رغم أنه هناك، بل يجب أن يكون هناك، ما دامت الشماعة والمرآة والكرســـي ذو الشكل الغريب هناك فالصندوق هناك أيضا، ســـأنزل في ذلك الموقف، حتى لو لم يكن موجودا، بل حتى لأعرف أنه غير موجود، أنا على يقين بذلك.

تقترب الحافلة من الموقف الآخر، ســـأنزل هناك أيضا، رغم معرفتي أن الدمى بفســـاتين الزفاف لن تدب فيها الروح، ورغم معرفتي بأني لســـت بقادر على ذبح امرأة دمية لا دم لها ليسيل، سأنزل.. بشكل قطعي.

سأكسر القنينة وأختلط بالسيل الجاري، هل ستصل الرسالة إلى حالة لا يمكن فيها قراءتها؟ هل ســـتتمزق وتنتشـــر وتفنى؟ لا أدري، لا أبالـــي، يجب أن أجازف، يجـــب أن أخرج إلى طريق آخر خارج مســـيرتي اليومية سواء في مساء ذات صيف بألوانه البراقة وقد بهتت رويدا رويدا بفعل حرارته التي تسبب التعرق، أو في صباح ذات شـــتاء في برودته اللاســـعة المرعشة، سأفعل ذلك ذات يوم.

شماعة هارمونية، مرآة معتمة، كرسي غريب، صندوق محتمل، خلــف واجهة مغبرة، في الأعلــى أربع نســاء صناعــية بلا روح باســطات أذرعهن على الجانبين وقد لبســن فساتين زفاف، كل ذلك بلا روح، جميعها أشــياء ميتة، لماذا أظن أني سأجد حياتي في أحد هذه المواقف، ذلك أيضا لا أعرفه.

نوفمبر - ديسمبر 1981

نازلي إيراي
NAZLI ERAY
1945

ولــدت في أنقرا، تخرجــت في الكلية الأمريكيــة للبنات ثم التحقت بكلية الحقوق في جامعة إســتانبول، عملت مترجمة في وزارة الســياحة، بدأت الكتابة وهي في ســن السادســة عشرة، وكانت أولى قصصها «مســيو خريستو»، والتي نشرت في مجلة «الوجود» عام 1959، تحمل هذه القصة سمات النزعة السريالية التي تجلت لاحقا في معظم كتاباتها.

اســتمرت بنشر قصصها في المجلات الأدبية المختلفة إلى أن أصــدرت أولى مجموعاتها القصصيــة عام 1975 بعنوان «آه يا سيدي، آه»، اختير العديد من قصصها بين المجموعات القصصية التي ترجمت إلــى العديد من لغات العالم، ثم اتجهت لاحقا في مسيرتها الأدبية نحو الرواية والمسرح وقصص الأطفال، وعُرض العديد من أعمالها على خشبة المسرح والسينما والتلفزيون.

تعتبر أحد مؤسســي نقابة كتّــاب تركيا وعضو اتحاد الكتاب العالميين، كما حصلت علىٰ عضوية الشــرف من جامعة أيوا في

الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن ألقت محاضرات فيها عن الكتابة الخلّاقة خلال الأعوام 1977 - 1978.

أعمالها في مجال القصة القصيرة والرواية والمسرح وكتب الأطفال: آه يا سيدي آه، محطة النوم، طابور تقبيل البنت، تتنزه في البي أوغلو، حلم كسرة خبز، نازل عند منعطف الأماني، حانة الببغاء العاشق، العشق ما عاد مقيما هنا، منجّم الأبراج، يوم اثنين على ضفة البحر، أجزاء ليلة قديمة، أيام الباسفيك، أحلام بخط اليد، النجوم تسطر الرسائل، العالم المبتذل، فراشات الضباب، ادخل دون أن تقرع الباب، نشرة شؤون الأحلام، صادح في قفص الطيور، رجل يتخفى بالعشق، مدينة الظلال الضائعة، شارع الأحلام المختلفة، أورفي، مشرب شاي الإمبراطور، آخر ليلة لمارلين - فينوس، تعرّفت على الليل، قصص مرّت من الطريق، مائدة ضوء القمر، إستانبول زهرة الليل، حانة الرجال الذين يحملون المرأة في قلوبهم، أسرار شقة فريج، كتاب العنكبوت، ناز ومصاص الدماء، ناز والحديقة المسحورة، القصر الساحر، القفص الذهبي المغبر.

نالت عام 1988 جائزة خلدون تانر للقصة القصيرة عن قصتها «درس ليلي قرنفلي».

ونالت عام 2002 جائزة يونس نادي الأدبية عن روايتها «رجل يتخفى بالعشق».

ونالت جائزة أصحاب دور الكتب لأفضل كاتب رواية للعام 2009.

ونالت جائزة نادي الروتاري لعام 2010.

ونالت جائزة رابطة دور نشر كتب الأطفال لأفضل كتاب للأطفال للعام 2011 عن كتابها «أسرار شقة فريج».

صيدلية التخلّف

في الحي حيث أقيم، عدد كبير من الصيدليات، صيدلية جديدة، تُفتتح كل صباح، على يمين ويسار طريقي، أتردد، باستمرار على عدد من تلك الصيدليات لصرف الوصفات الطبية الضرورية، أو لشراء بعض اللوازم كمستحضرات التجميل، وشامبو الشعر، والقطن، ومعجون الأسنان، والفوط النسائية، ومزيل رائحة العرق، أسماؤها متشابهة، كصيدلية القطن، أو صيدلية الميدان، أو صيدلية البجع..

هذا الصباح، وبينما كنت أسير مسرعة، كي لا أتأخر عن موعدي في نادي اللياقة الرياضي، وقع بصري على افتتاح صيدلية جديدة في نهاية الطريق، شاب برداء أبيض، يبدو أنه موظف في الصيدلية، كان يرتّب الواجهة الزجاجية، عمال مهنيون قد أسندوا سلما على واجهة الصيدلية، كانوا يثبّتون عددا من الأحرف المضيئة على الواجهة.

عندما خرجت من النادي الرياضي، ألقيت نظرة باتجاه الصيدلية، الأحرف لم تثبت بعد في موقعها، والصيدلية لم تفتح أبوابها.

قبيل المساء، وعندما خرجت لشراء باقة من زهر الياقوتية، كي أضعها على مكتبي، لمحتُ نورا يضيء الصيدلية التي في نهاية

الطريق، الواجهة مفتوحة، كان اســم الصيدلية يلمع متوهجا، إذ كتب بزوج من أنوار الفلوريسانت، أمعنت النظر وقرأت:

«صيدلية التخلّف..».

نسيت سبب خروجي لشراء باقة من الياقوتية، أسرعت الخطى ودخلت الصيدلية، الموظف ذو الرداء الأبيض بوجه بشوش يقف خلف الصندوق، ســيد نحيل في منتصف العمر، بشــارب رفيع، وملابس أنيقة واقف خلف النُضُد، ويبدو أنه صاحب الصيدلية، رأيت عددا من سلال الزهور، يبدو أنها أهديت بمناسبة الافتتاح فــي الحي. صاحب الصيدلية لا بد أنــه أخذ قرنفلة بيضاء من إحدى السلال، وشبكها على ياقته.

اســتقبلاني بوجه بشوش، وســألاني عن مبتغاي. تنحنحت برفق لأجلي صوتي: «أريد عقارا يحوي فيتامين ج»، قلت.

قال الموظف بصوت مهذب: «سيدتي، نحن نقدم خدمة مختلفة لزبائننا، للأســف، لا نبيع العلاجــات والفيتامينات المتوفرة في الأســواق، فكما تعلمون فالحي عامــر بالصيدليات التي تبيعها، الخدمة التي نقدمها مختلفة».

أصبت بالدهشة:

«ماذا تقصد، ما الخدمات التي تقدمونها؟ لم أفهم جيدا»، سألت.

تدخّل صاحب الصيدلية بالحديث بأدب:

«أنــت على حق يا ســيدتي بجهلك لخدماتنــا، إذ إننا لم نرَ ضــرورة للإعلان عن نوعيتها في الصحف، لأنها لا تعني ســوى فئة محدودة من الناس.

الخدمة التي نقدمها يمكن إيجازها على النحو التالي:

«كما تعلمــون، نحن نعيش في بلد مــازال متخلّفا، جميعنا..

نحن، أنتم.. الناس الذين في الشوارع.. أليس كذلك، يا سيدتي؟».

كان صاحب الصيدلية ينظر إلى وجهي بتمعّن.

«أجل، صحيح.. «، قلت، وتابعَ:

«نحن شــعب دولــة متخلّفة، لكننا ســعيدون بحالنا في هذا العالم، ربما لا نســعى للتغيير، رغم حديثنا عن الكفاح اليومي، وصراع الحياة، لكننا نواصل حياتنا، سعداء أحيانا.. وغاضبون أحيانــا أخرى، قد نُصــاب بالقنوط أحيانا، ولكــن في النهاية نتجاوزه ونمضي.. لكن فكّري يا سيدتي، بعض الناس من بيننا، قد يذهبون يوما إلى دولة متقدمة، أمريكا مثلا، هناك كل شيء مختلف، النظــام مختلف، الفرص المتاحة للناس كثيرة، الحقوق مصانة، وكأن العالم تقدّم مئة سنة. سيدتي، هذا الإنسان إذا ما رجع إلى الوراء، فســيظل تعيسا حتى نهاية عمره، إما أن يتخلى عن النظام بكامله، وإما أنه لن يستطيع نسيان ما رآه وما عايشه أبدا، سيظل يقارن باستمرار بين هذين العالمين المختلفين».

ما سمعته أوقعني في حيرة.

نبشــت حقيبتي بحثا عن علبة ســجائري، أخرجت سيجارة ووضعتها بين شــفتي، صاحب الصيدلية، وبحركة مهذبة، أشعل سيجارتي واستأنف كلامه:

«تلك أشياء نعلمها، أليس كذلك يا سيدتي؟»، سألني.

«أجل هو كذلك، هذه حقائق، أشياء نعلمها ونعايشها»، قلت.

كنت أستمع إليه وأنا أسحب نفسا عميقا من سيجارتي.

«وهكــذا الخدمة التــي نقدمها تبدأ من هنــا»، قال صاحب الصيدلية.

«ماذا تعني؟»، قلت بدهشة.

«أعني»، قال صاحب الصيدلية:

«نســتطيع بتأثير علاجاتنا، أن نجعل كل من عايش الحضارة والتقدم في بلد آخر، وغير قادر على التأقلم هنا، أن ينسى ذلك العالم نهائيا!».

أنهى كلامه، وعاد إلى مكانه خلف النُضُد.

انتابني شــعور بالفضول: «إذا لــم أفهم خطأ، تبيعون علاجا ينســي إنســان الدولة المتخلفة ما رآه وتعــرّفَ عليه من حضارة متقدمة في العالم الخارجي!».

«نعــم يا ســيدتي! هــو ذا صلــب الموضوع!». قــال صاحب الصيدليــة، «نحن بصدد تأســيس مركز تأهيــل، لدينا لتحقيق هدفنا، ما يقرب من ثلاثين علاجــا أُنتج بعناية، تلك العلاجات تختلف حسب بنية الإنسان وخصوصية البلد أو الحضارة المراد نســيانها. على سبيل المثال، إذا ما قام أحد ما برحلة إلى الجزر اليونانية ذات صيف، ولم يتمكن في الصيف الذي يليه من السفر خارج البلاد، ووجد نفســه منزعجا من اضطراره لقضاء عطلته الصيفية في بودروم، نســتطيع أن نقــدم له جرعة علاج واحدة منخفضة، يصبح، عندئذ، سعيدا، ولن يفكر بعمل مقارنة».

لم أصدق ما أسمعه!

«طبيعي، كان هذا مثالا بسيطا»، قال صاحب الصيدلية، «أما للأشخاص الذين زاروا بلادا أكثر بعدا وتقدما، ثم عادوا، فلدينا لهم عــلاج من ثلاثين جرعة، لقد نجحنا بتطوير مطعوم لعمالنا الذين عايشــوا نمط الحياة فــي ألمانيا، كما لدينا حقنة للطلاب الذين درســوا في أمريــكا، ثم اضطرتهم الظــروف للعودة إلى الوطن، ومن لا يرغب بالحقنة، فعليه تناول الأقراص بانتظام».

أطفأت سيجارتي وأشعلت أخرى:

«حسـن جدا، تقولون إن هذه الأقراص تُنسـي، وفي الحالة المعاكسـة؟ أقصد، إذا ما تناولت الآن جرعـة معينة من العلاج لنسيان أمريكا، ثم رغبت باستعادة ذاكرتي من جديد، هل توجد أقراص أخرى لتذكّر أمريكا ثانية؟»، سألت مستفسرة.

«بلا شك، يوجد يا سيدتي»، قال صاحب الصيدلية، «تقصدين ترياقا، يوجد، لكن على الرغم من وجوده، لكنه لا يتذكّر كالسابق مئة في المئة، يُذكّر على شكل خيالات».

«هل جربتم أنتم بعضا من هذه الأقراص؟»، سألت بفضول.

«نعم، جربت»، قال صاحب الصيدلية.

ازداد فضولي:

«اعذروني على فضولي، أي مكان أردتم نسيانه، واستخدمتم من أجله هذه الأقراص؟»، سألت مستفسرة.

«سـيدتي، أنا تلقيت تعليمي في كنـدا، هناك أحببت فتاة، لم تسر الأمور كما أردت، وعدت إلى الوطن، وصلت إلى حالة، كدت أفقد معها عقلي، سـمعت في حينه، عن وجود مثل هذا العلاج، أول مرة، اسـتخدمته، وجـدت فيه فائدة كبيـرة، عندما أكملت المعالجة الأولية، انطفأت جذوة عشـقي للفتاة، مع نهاية المعالجة الثانية، أصبحت أذكر بصعوبة اسـم الشارع الذي يقع فيه النُزل الذي أقمت فيه لسنوات في كوبيك»، قال.

أشار إلى الموظف وأكمل:

«محمد، كان عامـلا في فرانكفورت، اضطر للعودة بشـكل نهائي، بعد ثلاث معالجات بالأقراص ومطعوم واحد، حقّق تكيّفا بنسبة مئة في المئة».

نظرت إلـــى الموظف باهتمام، في ضوء مـــا فوق الواقع لهذه الصيدلية، أحنى رأسه مؤكدا صدق كل ما قيل.

«ما التأثير الذي تفعله هذه الأقراص؟»، سألت مستفسرة.

«تُنسّي، يا سيدتي»، قال الموظف، «كما تُنسّي التخلّف والتقدّم».

فكّرت ثم سألت مستفسرة:

«حسن جدا، أليس لهذا العلاج من تأثيرات جانبية؟».

«قطعيا لا تأثيرات جانبية له»، قال صاحب الصيدلية.

كنت أفكّر:

«لنسيان أمريكا مثلا، أيّاً منها توصون به؟»، سألت مستفسرة.

صاحب الصيدلية:

«لأمريـــكا برنامج علاج مســـتقل. لنيويـــورك، نطبّق معالجة خاصة من واحد وثلاثين يوما» ثم أضاف:

«تدركون تماما، أن نيويورك حالة مختلفة».

«أجل، أعلم»، قلت متمتمة.

وتابع كلامه:

«يتوفر لدينا لليابان، والفلبين، وهاواي، وهونج كونج كبسولات مطوّرة، لكن الغريب في الأمر، أن لا أحد يرغب باستعمالها، من يرى تلك البلاد لمرة واحدة، لا يشعر بقلق من عودته، لكن أمريكا حالة مختلفة»، قال.

«ما اسم الأقراص التي تعطونها لأمريكا؟».

«أنتامريكانا» قال الموظف.

«كم ثمنه؟».

«جرعـــة الواحد والثلاثين يوما من أنتامريكانا بعشـــرة آلاف ليرة»، قال.

«أليس سعره مرتفعا قليلا؟».

«رخيص جدا»، قال صاحب الصيدلية، «بالعكس فهو رخيص جدا، لو حسبتم ثمن تذكرة الطائرة لأمريكا، بالإضافة إلى تكاليف الحياة هناك؟ كما أن سعر الدولار بارتفاع مستمر، وعملتنا تفقد قيمتها، بعد تناولكم لزجاجة العلاج بواحد وثلاثين يوما، ستنسون الحالة الأمريكية بالكامل، وحقوق الفرد هناك من حزمة الحريات، والفرص المتاحة، والحياة المتطورة، عندئذ، ستصبحون راضين من واقعكم الحالي».

«أنا غير مقتنعة كثيرا بهذا الشيء»، قلت ضاحكة.

«إذن، نعرض عليكم تجربة أولية من ثلاثة أقراص»، قال صاحب الصيدلية.

أنزلَ الموظف عن الرف علبة صغيرة، ولفّها بعناية.

«تفضلي»، قال صاحب الصيدلية مادّا العلبة نحوي:

«على افتراض أن الحضارة التي ترغبين نسيانها هي أمريكا، هذا العلاج أقدمه لكِ بلا مقابل، جربيه هذه الليلة، تناولي قرصا واحدا بعد طعام العشاء. بعد ثلاثة أيام، إذا ما شعرتِ بالرضى، وترغبين بمتابعة العلاج، تفضلي، نحن بانتظاركِ..».

أخذت العلبة وخرجت من الصيدلية، ما سمعته شوّش تفكيري، عندما وصلت البيت، فتحت العلبة وألقيت نظرة على النشرة، هذا ما كان مكتوبا:

(أنتامريكانا

منسّي الحضارة..

ثلاثة أقراص للبلع..

لا تأثيرات جانبية له..

عينة طبية، غير مخصصة للبيع..).

قلّبت الدواء بين يدي، إن أخذتها فسأشعر بعدم الراحة، وإن لم آخذها فسأشعر بنفس الشعور.

فكّرت، لفترة من الوقت، بنيويورك، ثم راودت سانت لويس مخيلتي، تذكّرت الأيام التي أمضيتها في مجاهل الغابات الخضراء لجزر الهند الغربية، وكلما أتذكّر ريودوجانيرو، أستعيد في مخيلتي جبالها التي تعانق السحاب، وسباق السيارات من الأحدث موديلا في شارع أطلانتيك، و«واتوسي» وهو يغني حتى الصباح في ملهى ليلي عابق بالدخان.

عندما مرّت نيويورك بمخيلتي ثانية، أصبت بدهشة، إذ بدا لي تمثال الحرية يخرج لي لسانه ويغمزني بعينه، ثم لوح بالمشعل الذي بيده وقام بحركات بهلوانية، كنت أتابع تمثال الحرية كالمسحورة، وهو يقوم أمامي بآلاف الحركات البهلوانية، بواخر ضخمة، كانت تمر من خلفه وتدخل ميناء نيويورك. انتظرت عودة التمثال الذي أمام عيني، إلى حالته السابقة، لكن دون جدوى، ظل يتابع اللعب، حتى إنه شرع بتحريك أذنيه، أعطيته وعدا بعدم نسيان تلك اللحظة أبدا.

عدت إلى غرفتي مسرعة، وأخذت قارورة أنتامريكانا، وأفرغتها في المرحاض، ثم سحبت السيفون.

أمر غريب، إذ شعرت بالراحة، تناولت مجلة وشرعت بتصفّحها.

قُرع الباب، بعد فترة من الوقت، جاءت صديقتي، رويت لها وبانفعال كبير، ما شاهدته تلك الليلة من صيدلية التخلّف، إلى الحديث الذي جرى هناك، وما قاله صاحب الصيدلية والموظف.

أصيبت بالدهشة، ظلت تصغي لي..

«تعالي»، قالت، «خذيني هناك».

خرجنا سـويا، كان القمر يتوسط الغيوم، شاهدت من بعيد، أنوار الصيدلية، فأمسكتها من ذراعها وأشرت لها.

اقترينا..

اللافتة تغيّـرت، كان مكتوبا عليها: «صيدلـة الغار»، أُغلقت منذ فترة طويلة، نظرنا عبر الواجهة الزجاجية، يوجد مضادات حيوية، وفيتامينات، وكريمات تسـمير البشرة، ومنظفات أطقم الأسنان..

«أمر يدعو للحيرة»، قلت، «شيء عجيب.. لقد تغيّر المكان كليا».

«أحسن..»، قالت هي.

شعرتُ بالضيق.

«لم تصدقيني، أليس كذلك؟»، سألتها.

«أصدّقك، أصدّق أنك هـذه الليلة وقبل مجيئي، وبينما كنت تتجولين هنا دخلت إلى صيدلية تُدعى صيدلية التخلّف، وأصدّق ما دار هناك من حديث».

«سأكتب، عندئذ ستكون حقيقة واقعة»، قلت.

كنا نمشي في الطرقات، اقتربت الساعة من الحادية عشرة، كان شارع تونالي حلمي[4] خاليا تماما:

«سأقصّ عليكِ قصة بيزاده فائق بيه»، قلت.

«هيا اروي»، قالت.

شرعت برواية تلك القصة القديمة جدا لها، ومن جهة أخرى، كنـت أفكّر بما روتـه لي قبل يومين عن مـوت حصان، في تلك

(4) شارع تسوّق ومقاه ومطاعم في أنقرا (المترجم).

الأثناء، تبادر إلى ذهني شيء ما:

«أنت درست الكيمياء، هل سبق أن سمعت باسم مركّب يُدعى أنتامريكانا؟»، سألتها.

شرعت بالضحك، وأنا أيضا كنت أضحك.

على القمم المقابلة، عند نهاية «تشـــنكايا»، طريق مضاء خال، يمتد صعودا حتى السماء، كأنه ينتهي عند سحابة.

أشرتُ لها لترى ما أراه.

«أنا أيضا رأيت ذلك الطريق قبل أيام»، قالت.

انحدرنا من الشارع، نمشي ونتحادث.

أنقرا، أبريل 1985

فيْزا هيبتشيلينغيرلر
FEYZA HEPÇİLİNGİŔLER
1948

ولدت في آيفاليك/ باليكاسير، أكملت دراستها الثانوية في إزمير، ثم أكملت دراستها العليا عام 1971 في جامعة إستانبول - قسم آداب اللغة التركية.

عملت بتدريس الأدب التركي في عدد من ثانويات إزمير ومن ثم في جامعة 9 أيلول، عام 1983 منعت من العمل ضمن منطقة إيجة (ولاية إزمير) بموجب الأحكام العرفية التي أُعلنت بعد استيلاء الجيش على السلطة، ونُقلت إلى جامعة البحر الأسود بموجب قرار صدر عن مجلس التعليم العالي، فقدمت استقالتها احتجاجا على القرار.

عادت عام 1984 إلى إزمير وعملت بالتدريس في المعاهد الخاصة، ثم انتقلت عام 1992 إلى إستانبول حيث تعمل حاليا في جامعة يلدز في إستانبول.

بدأت حياتها الأدبية عام 1963 بكتابة الشعر، ثم كتبت القصة القصيرة والرواية والأدب وكتبت للأطفال، كما تُرجم العديد من أعمالها إلى العديد من اللغات، ومازالت تكتب في العديد من الصحف والمجلات، ولها زاوية يومية في صحيفة «الجمهورية».

أعمالها في مجال الرواية: كيف يذبل القرنفل الأحمر (1993)، الإلهة (2002).

وفي القصة القصيرة: مسافرو الصباح (1981)، راقصة باليه سابقة (1985)، الطيور المرتعبة (1987)، ثلاث نقط وخط واحد (1993)، الانزلاقات (1998)، صيف مر دون سنونو (1998)، المحاكاة (2000)، ها أنا ذاهب (2009).

وفي مجال كتب الأطفال: ست مسرحيات للأطفال (1980)، طارت، طارت، بلين طارت (1986)، الأميرة القبيحة (1994)، ماذا لو أصبحت شجرة كمثرى (2007)، ماذا قلتم، لم أفهم (2011).

وفي مجال الأدب وقواعد اللغة: أخطاء شائعة (1997)، قواعد اللغة التركية للمعلمين والمتعلمين (2004)، من دون سؤال (2006)، التركية لغتي الأم (2007)، يوميات اللغة التركية 5 أجزاء (2005 - 2011)، كيف تصبح كاتبا شعبيا (2013).

نالت عام 1979 جائزة وزارة الثقافة لأفضل عمل موجه للأطفال عن مسرحيتها «الأخطاء».

ونالت عام 1981 الجائزة الأولى لدار أكاديمي للنشر عن قصتها «مسافرو الصباح».

ونالت عام 1985 جائزة صدقي دوست لروايات الأطفال عن روايتها «طارت، طارت، بلين طارت».

ونالت عام 1985 جائزة سعيد فائق للقصة القصيرة عن مجموعتها القصصية «راقصة باليه سابقة».

ونالت عام 1989 جائزة يونس نادي للقصة القصيرة عن قصتها «إصلاح الخطأ».

ونالـــت عام 1991 جائزة بورســـكي غرومـــان/ ملتقى كتّاب البلقان عن قصتها «كم متُّ بشكل مريح».

ونالت عام 1997 جائزة ســـدات سماوي الأدبية عن قصتها «الانزلاقات».

ونالت عام 2011 جائزة أفضل عمل مسرحي للأطفال خلال الأعوام العشرة عن عملها «الأخطاء/ ماذا قلتم، لم أفهم».

راقصة باليه سابقة

كلما فكرتْ بالخروج إلى الشارع، يتبادر إلى ذهنها ذاك اليوم الذي أصبح من الماضـــي البعيد، يوم عادي ككل الأيام، لا يحمل أية صفة مميزة.. خرجتْ إلى الشارع فشعرت بتقدمها في السن على نحو مفاجئ، أدركتْ تقدمها في الســـن، كمن يقع على رأسه شيء صلب بغتة، دون أن يتمكن من تفاديه. شعرت بالاضطراب الشديد في حينه، وكلما فكرتْ به لاحقا تشعر باضطراب أشد، واست نفســـها بأن التقدم في السن حتمية الحياة، لا يهرم المرء فـــي ثانية واحدة، ردّدت نفس الفكرة وهي تتجول في البيت على مر الأيام: لا يهرم المرء في ثانية واحدة.

عاشـــت دون أن تولـــي اهتمامـــا للأمـــور الصغيـــرة، الأمور الصغيـــرة، كأن يناديها طفل «يا خالة»، أو ينصحها بائع الخضار «هذا الخيار طازج جدا يا أمي السيدة».

.. ذات يوم، أدركت فجأة كنه الشيخوخة الذي كان نائما حتى ذلك الوقت، لم تكن تعلم ما الذي يحصل مع الآخرين ولم تسأل نفســـها قط، لكن رغم مرور ســـنوات عدة، فلن تنسى ذلك اليوم الذي شاخت فيه بثانية واحدة، يوم أن عادت إلى البيت، جلست وبكت كثيرا، ثم غطّت كل ما في البيت من مرايا، وما إن احتست قدحين حتى أدركت حماقة تصرفها، فرفعت الأغطية ومزقتها،

وعندما قـدم البواب لتوزيع الخبز، طلبت منه أخذ ما يجده من مرايا كبيرة أو صغيرة.

اعتادت الآن على المرايا مهما كان حجمها، لأن المرايا توقفت عن الابتسـام اسـتهزاء، سـواء ما كان منها معلقا أو جزءا من الأثـاث، كل واحدة منها، كانت تُظهر ما يقـع أمامها من حائط أجـرد، أو طرف إطـار صورة، أو أوراق علوية لتعريشـة لبلاب بـدأت بالجفاف، أو تقويم حائط يمد لسـانه، أو تحف ضاعت ذكرياتها ومناسـباتها في غياهب النسيان، أو زخارف حائط، أو وسائد موشاة، أو قطع ونثريات مختلفة ككؤوس الزينة. ما عادت تعير للمرايا اهتماما، لكنها مازالت تتحاشى الخروج إلى الشارع، إمـا أن تطلب من البـواب أن يؤدي لها أشـغالها وإما أن تخرج عند الغـروب بصحبة طالباتها القديمات، تمشـي حتى الجزار والمتجر المتجاورين في آخر الشـارع، لشـراء احتياجات لا تقبل التأجيل، تشـتري زجاجة نبيذ أو نصـف كيلو من اللحم المفروم وتعود سريعا، هكذا أفضل.

رأت حبـات رمان بقيت من الأمـس في طبق فوق «الطاولة»، يبـدو أنها قد جفت قليلا، لكنها بدت وكأنها تنتظر صحبة قدح مـن النبيذ الأبيض لتتحـرر من وحدتها، كان باسـتطاعتها أن تدير ظهرهـا لرغباتها، لكن ليس لرغبات حبات الرمان اليتيمة تلك. ملأت قدحها على الفور، وجلسـت أمام طبق الرمان، اليوم يطـول ويقاوم حتى لا يصل إلى الظهيرة.. وبينما كانت تنقّل في فمها الجرعة الأولى، وكما تفعـل دائما، قالت «مرحبا يا أمي»، وجرعتها، «السـيدة المبجلة، السـيدة سـليلة الحسب والنسب، ابنتك تحييك باحترام عند كل أول قدح».

يــا ترى، هل كانت أمها تشــرب كثيرا أيضا؟ زوارها من حين لآخر، من الأصدقاء المسنين، لا يكفون عن التأكيد وبإصرار، أن لا أحد يشــبه «أنغرا بوكمان»، هي أيضا، تظن أنها ليست شبيهة بأمهــا، لكنها ضبطت نفســها مرات عدة وهي تحاول التشــبه بأمهــا، في مثل تلك الأوقات، كانت تشــعر بالغيظ من نفســها عندما تدرك أن حياتها ليســت ســوى نســخة رديئة عن أمها. ولأن أمها كانت من الســيدات المغاليات في أناقتهن على امتداد ساعات النهار، أمضت هي سحابة نهارها في البيت بجينز كالح، وخرجت بنفس الجينز من البيت، ودخلت فراشــها ونامت بنفس الجينز، هل كانت ســتحب أحفادها لو رأتهــم، يا ترى؟ أبناؤها، أحفاد أنغرا بوكمان، كتجاعيد الوجه يعجّلون من هرم المرء، نادرا ما يأتون لزيارة أمهم، لا يجدون هدية ســوى ســمكة أكواريوم، يقدمونهــا عند زيارتهم، ربما يريدون القول إني أم لها، حســنا، وللســمك أمهات أيضا، مع الفارق، فالأسماك لا تقدم للإنسان أحفــادا، (لا داعي للخوف من تكاثرها، فمــا إن تلد حتى تأكل صغارهــا، ذلك ما قاله ابنها). على أية حال هي أيضا، لا تتلهف ليصبح لها أحفاد، ســتبقى الأســماك مرتبطة بها، ولن تتركها وتذهب إلى مكان آخر، إذن، لن تسبب لها الهرم ثانية، ما أجمل ذلك، تشبه زوجها خلدون ذا العينين الجاحظتين، لكنها أكثر ودا منه، لا تتدخل بمأكلها ومشربها، لكن خلدون كان يتدخل.

قال بلال، يوم أحضر الأسماك «ها ستمضين وقتك يا أمي».

«فــي الواقع، أمضي وقتي مع شــيطان»، أجابت بدورها، وما إن صاحت أين شــيطان، يا ترى؟ شــيطان، حتى ظهر وأطل برأسه من الباب، ثم دخل، التفّ ونام عند قدميها، شــيطان لا يفارقها

طوال اليوم، يتبعها دائما كظل أســود، حارسها وشرطيها بنفس الوقت، ولا يتوقف عن الوشــاية بالغرباء، شــيطان يحبها، وهي تحب شيطانا أيضا، بقدر ما يحبها.

«ابنتي ســتصبح أشــهر راقصة باليه في العالم» قالت أنغرا بوكمان، مع أنها لم تســتطع أن تحقق إنجــازا مهما في حياتها، ربما خلدون أيضا، أدرك أن لا موهبة لديها لتحقق إنجازا مهما في حياتها، حتى إنها لم تســتطع أن تشــبه أمهــا في كثير من الأمــور، هكذا قال من شــاهد وعلم. كانت أمهــا امرأة مفعمة بالحيوية، وهي مفعمة بالموت، لا تجيد ســوى الشــرب والسكر، وليس في ذلك منفعــة لا للأســماك ولا لشيطــان ولا للأولاد، ولا يمكن القول إنه لا منفعة منه، سوى المساعدة على نومها.

تحت وقــع نظرات شــيطان المذهولــة، تحدثــتْ ليلة أمس طويلا مع الأســماك، كان بلال يحوم حول خلدون ويداعب ذيله المعقوف، أيام ســعيدة يا ســيد بلال، قالت، كيف حالكم؟ حسنا فعلتم بإحضار هذه السمكات، هل فعلا تعتقدون أني قادرة على رعايتهــا؟ رعيتك في الماضي حتى نما جناحــاك، عانيت كثيرا مــن أجلك، لكــن حينــذاك كان لــــي جناحــــان أيضــــا، لــك الشــــكر يا ســيد بلال، أنت طيب جدا، أنتم لا تستطيعون رؤية هذه الســـماء الفيروزية، تقولون لأختكم إذا ما تقابلتم بالمصادفة في مــكان ما، إني أحــرق أصابعي عند إطفائي الســجائر، لم يتحدث مع خلدون لحنقه عليه، سمكات حريرية الذيل، ومنتفخة الكرش، وردية، وحمراء وبلون الشــمام، الســمكة خلدون سوداء بعينين جاحظتين، أما الســمكة ابنكم بلال بلون الشــمام وبذيل معقــوف، فلا تظهر ابنتها في الأكواريوم، لأنها خارج البلاد، هي

أيضا تؤدي رقصات الباليــه بتنورتها القصيرة الوردية الفاتحة، أداؤها لبحيرة البجع رائع، في «باكيتا» كانت خجلة قليلا ولكنها فاتنة. يجب عليكن ســماع الموســيقى بروحكن، وليس بآذانكن، كنّ أكثر رشــاقة، وأكثر ســرعة من فراشــة تحلق ثم تحط على الزهــرة بهدوء ودون إيذاء لوريقاتها، مرحى يا مدموزيل بابيون! كما أن تنورتك بالغة القصر، تطول لتصبح فجأة، كذيل الســمكة اليابانية، آه وا حســرتاه.. جيزل كانت هنــا، جيزل لا مثيل لها، رائعة الجمال جيزيل.

امرأة تعيش وحدها ليست بحاجة إلى أية تحضيرات مسبقة، اعتادت أن ترى نفســها دائما، ليس أمام الجمهور فحســب، بل في وسطه أيضا، ليس حنينا للتصفيق، ولكن لنمط الحياة الذي اختارته، ليســت متأكــدة إن كان ذلك حنينــا للتصفيق، فكل ما تشعر به أنها تفتقد شيئا مهما، رغم محاولاتها لملء هذا الفراغ، لكنهــا لم تفلح، فكرت أن خلــدون قد يملأ مكان الجمهور، لكنه ما كان جديرا لمــلء الفراغ، فكرت بأبنائها، الذكر منهم والأنثى، لكنهــم لــم يكونوا على اســتعداد لمــلء الفراغ، فقد انســحبوا وغــادروا. في نهاية الأمر، لم يبقَ أمامها ســوى شــيطان وهذه الســمكات، على الأقل فشــيطان ينبح، أما السمكات فلا تصدر أي صوت، عدم توقفها عن الســباحة وحدها في الحوض، ليس مســليا أبدا، (في الواقع، لم يحضرهن بلال ليكنّ مصدر تسلية لهــا)، يبدو للمرء أنه رغم شــدة تعبهن لا يرتحن، ورغم رغبتهن بالنوم، لكن لا ينمن. كفى، لا تُتعبن أنفســكن، هيا ارتحن قليلا، تقــول لهن، بينما يخطر فــي ذهنها من حين لآخر، أن تضع لهن أســرّة صغيرة ومراتب قطنية، تغطيهن بألحفة صغيرة، ثم تقول

لهن هيا ارتحن حتى الصباح. لكن يا للغرابة، فالأسماك لم تعتد على العيش خارج الماء، وهي أيضا لم تعتد على العيش خارج المسرح، إما فوقه وإما خلفه ولكن ليس بعيدا عنه، لم تشعر بصعوبة الابتعاد عن المسرح، قبل أن تأتي مدام مولينيه، كانت ترى نفسها في طالباتها وهي تتابع أعمالهن بإعجاب واعتزاز، لو كانت تعلم أن عملها سينتهي بعد مجيء مدام مولينيه، لكانت ضمّت يدي السيد توغرول وقبّلت على الطريقة التركية تلك اليدين المكسوتين بالشعر. كانت ستقول أنا لا أستطيع العيش بعيدا عن الباليه، ماذا في ذلك؟ يجب ألا يخجل المرء من قول ما يفكر به، هذا ما يقوله خلدون، وكأنه يقول ما يفكر به هو.. أنت مدمنة خمر يا زوجتي العزيزة، لماذا تتحاشى مواجهتي بذلك؟ في تلك الأوقات تصبح عيناه كدردور ثاقب. كلا، لست بمدمنة خمر، كيف لك أن تدعي ذلك؟ لو تسأل الآن تلك العيون الثاقبة، لقالت أجل، وما ضير ذلك، كل امرئ وأهواؤه، هل أعدّد لك أهواءك؟ حينئذ كان خلدون سيقول أنا مولع بالمبادرة، ما إن يدرك أن الحديث أخذ بعدا جديا، حتى يدير الدفة وينقذ نفسه من أن يكون مستهدفا، دائما هذا ما كان يحدث، ما شأنك وسيجارتي، لست معنيا بصوتي، وهل ينسى المرء ما يقوله في تلك اللحظات، وتظاهره بدور الطفل المصطنع؟ لقد جازفت بترهل جسمي كي أنجب لك طفلين، ألم يكفِك ذلك؟

تركت كأس النبيذ على الطاولة، وذهبت لتَرعى سمكات بلال، يجب إطعام السمكات التي تُركت لرعايتها، إذ يجب إشباعها والاعتناء بها، كي لا تُتّهم بعدم الشفقة، ما أهداه ابنها لها كي تمتّع ناظريها بها، متعة بالإكراه.. من قال لبلال إنها تستمتع بمشاهدة

الأكواريوم؟ ما إن ذرّت الطعام حتى رأت إحدى السمكات طافية على جنبها فوق سطح الماء، إحدى السمكات بلا اسم، إحدى المجهولات، لم تحتّج إلى تفكير طويل بسبب ميلها على جنبها، يبدو أنها نفقت، هل نفقت؟ لم يذكر بلال ذلك، لم يقل إن هذه السمكات قد تنفق، هذا الرجل الذي هو ابنها كيف يظن أن باستطاعتها تحمّل رؤية الموت؟ بينما تجلس هنا وحيدة، وكأنها تستطيع رؤية الموت، يأتي أحدهم ويهديها جيفة سمكة، بل إنه ابنها، أنتِ أيضا ستموتين، لن يبالي أحد بكِ، مثل السمكات الأخريات إذ لم تبالِ بالسمكة النافقة، الموت دون أن يبالي بها أحد، أشد إيلاما من الموت نفسه، لا تريد التفكير بذلك، ولا أن ترى.. بل لا تريد أن ترى قطعيا، لا تريد، كيف تهرب من الموت، كيف يستطيع المرء الهروب من موته؟

دون أن تفكر بما ستفعله، ارتدت معطفا وحملت حقيبتها وانطلقت إلى الزقاق، وقد نسيت وجود شيطان تماما، عبرت الزقاق الطويل بخطوات سريعة، ووصلت إلى الشارع، ازدحام وأصوات لم تميز أيا منها، أصوات.. ركبت سيارة وقفت بقربها دون أن تعرف وجهتها، كانت سيارة «سرفيس»، إحدى سيارات السرفيس التي تخفف من سرعتها سعيا لالتقاط كل شخص واقف لا يعلم ماذا يفعل، جلست إلى جانب السائق، السائق رجل بشارب مثل كل الرجال، من الأفضل الذهاب معه دون أن تعرف وجهته، هناك شيء ما يمتد، يدعونه بالطريق، لكن لا بد أن يؤدي إلى مكان ما، ولن يتأخر بالوصول إلى ذلك المكان، ليكن، يتفرع هناك إلى طريق آخر، ثم إلى طريق آخر، وآخر أيضا.. دائما المسير هكذا لا بدّ أن يوصل بسهولة وبسرعة إلى نهاية ما،

زواجها وانفصالها عن خلدون انقضى كغمضة عين، ولكن عاجلا أم آجلا ما كان سيتغيّر أي شيء.

بعد وقــوف جديد ومفاجئ، ظهر وجه جميل جدا عبر زجاج السـيارة، وضحكــت ضحكة لا أجمــل منها، قد تكــون إحدى طالباتها القديمات، نظرت إلى الســائق وأفسحت للبنت مكانا، تحلّق مثل الفراشــات على المسرح، ربما أصبحت راقصة الباليه الرئيسية في «جيزل» أيضا. عزيزتي السيدة بوكمان، كنت دائما ترغبين بــأن تصبح ابنتك راقصة باليه رئيســية، لم تصبح، بل حتى لم تستطع المشاركة في «جيزل»، ولكن لعل طالباتها شاركن، بل ربما أصبحن راقصات باليه رئيســيات، ولمَ لا يصبحن، هل لأنــه ليس لهنّ أم مثل أنغرا بوكمــان؟ أنت أيضا لم تعرفي ماذا ســتكونين يا أمي الحبيبة، لا بأس، عندما تكونين ليلى أو عائشة أو فاطمــة، أي هــراء هذا أن تفكري بأن تكونــي «مليحة»؟ هل كان مــن الممكن أن أصبح خيّاطة ماهرة أو ربما مصففة شــعر ناجحة، وربما أيضا عازفة تشيلّو ماهرة، ولكن لماذا كان يجب أن أصبح راقصة باليه، ليس راقصة باليه فحسب، بل راقصة باليه رئيســية، أصبحت راقصة باليه نزولا عند رغبتك، لكن قدراتي لم تكن كافية لأصبح راقصة باليه رئيسية، وماذا سيحصل الآن؟

مــا أجملها من ضحكة، ضحكتها كانت مثل نور ومضَ فجأة، فجمّل كل ما حوله، دافئة وبألوان قوس قزح، لو كانت تلك إحدى طالباتهــا ما كانت لتضحــك على هذا النحــو، ولكانت عايرت ضحكتهــا، وســعت لعدم تبديد ابتســامتها بلا طائل، لا شــك أنها كانت ســتقول بلهفة «كيف حالك يا معلمتي؟»، إيبيه ها قد تقاعدت، دعينا نرَ.. ولكانت ســألت «مــاذا تفعلين الآن؟»، قبل

العرض كانت تشفي غليلها من التدريبات القاسية بهذا السؤال، كانت تحصل على رد فيه إثارة وســادية، ويحمل نغمة هي الأشد تهكما، تسأل وقد تهيأت نظراتها لتقول يا للأسف، «إيييه، ماذا تفعلون الآن -لنرى؟».. لا شيء، وكان ردها «لا أفعل شيئا البتة»، (مــن قلة الحيلة وانعدام الخيار) وكمــا تتوقع الفتاة، إن لم تكن من طالباتها القديمات فمن تكون هذه الفتاة؟ في الواقع، ولا أي واحــدة من طالباتها تعرف الضحك على هــذا النحو، لم تعلمه لأحد، وما كانت لتســتطيع تعليمه، هي أيضا لا تعرف مثل هذا الضحك المشــع متعدد الألوان، إذن مــن تكون هذه الفتاة؟ ولماذا تضحــك هكذا؟ هل من حقها إطــلاق ضحكة فاتنة تخترق قلب الإنســان، بل في مكان عام كسيارة سرفيس؟ استدارت ونظرت ثانية إلى الفتاة، ضحكت الفتاة ثانية على نفس النحو، ما تريدونه أن يستمر طويلا كمظهر متقلب، لا يمكن إلا أن ينتهي.

كيف يســتطيع المــرء أن يضحك دون حســبان، وبخاصة إذا كان صاحب ضحكة جميلة وصادرة من الأعماق.. حاولت تقليد الضحكة بينها وبين نفســها، لكن التوتر في شــفتيها، تعلّق على وجهها كتكشــيرة، كأن حياتها ســتتغير، لو تســتطيع تعلم هذه الضحكة، حينئذ، لن تعود جيفة الســمكة النافقة والطافية على ســطح الأكواريوم تشــعرها بالحزن. مكرهة على التدرب بشدة علــى هذه الضحكة، كأنــه رد مجرب يجب عليهــا إظهاره على وجهها من تلقاء نفســها، هكذا، يجــب أن تضحك لبلال، ولنرى ماذا ســيفعل، أما خلــدون، فمن المؤكد أنه ســيصاب بالذهول، وســيتبلّد تفكيره، ســتعمل عليها وتتدرب أمام المرايا في البيت، ولن تُهزم مرة أخرى في ســيارات الأجرة، ماذا ســتفعل لو بدت

مضحكـة.. حاولـت التفكير كيف سـتنجح دون تحريك أي من عضلات وجهها.

حين أدركت أن الفتاة على وشـك الترجّل، لم تكن قد توصلت بعـد، إلى كيفيـة القدرة على الضحك، وجهـت نظرات خجولة إلى الفتاة، كراقصة بالية أُجبرت على الصعود إلى المسـرح دون تدريب مسـبق، وضحكت من فورها، وعندمـا تلقت ردا بنفس جمال الضحكة السـابقة، طار عقلها من الفرحة، ترجّلت الفتاة وذهبت، لكن رفرفة جناح الطير الذي بدأ في داخلها لم يتوقف، مـا عاد قلبها يحتمل حفيف الجناح. لأنزل هنا، أنا أيضا، قالت للسـائق، وأطلقت نفـس الضحكة، ضحك السـائق أيضا، إذن فهناك ضحكات دون بروفة مسـبقة، وهنـاك ضحكات جميلة لأنها دون بروفات مسـبقة. عبرت إلى الناحية الأخرى، بعد أن أصبحت قادرة على ركوب سـيارة سـرفيس أخرى، وأن تشـير لسيارة أجرة وتسـتطيع أن تطلق للسائق ضحكة من القلب دون تكلف، أصبح بإمكانها العودة إلى بيتها، وأن تلتقط جيفة السمكة من الأكواريـوم، وتلقيها بعيدا، وتسـتطيع اتخاذ قرار بمواصلة الحياة.

1985

فريدة تْشيتْشك أوغلو
FERİDE ÇİÇEKOĞLU
1951

ولـــدت في أنقرا، أكملـــت عام 1968 تعليمها الثانـــوي في أنقرا، وتخرجت عام 1972 في كلية الهندســـة المعمارية من جامعة الشـــرق الأوسط في أنقرا، حصلت عام 1973 على درجة الماجستير من نفس الجامعة، ثـــم حصلت على درجة الدكتوراه من جامعة بنســـلفانيا في الولايات المتحدة، عملت بين الأعوام 1977 - 1980 في جامعة غازي في أنقرا.

اعتقلـــت عـــام 1980 بعد اســـتيلاء الجيش على الســـلطة وحكم عليها بالســـجن أربع ســـنوات، أمضت سنتين منها في سجن «ماماك» العسكري وسنتين في سجن أنقرا المركزي، حيث اجتمعت هناك بطفل كان بصحبة أمه السجينة، فكتبت عنه أولى رواياتها «ليتهم لا يطلقون النار علـــى الطائرة الورقيـــة»، بعذ أن انقضاء مـــدة محكوميتها عام 1984 خرجت من الســـجن لتعمل محررة ومديرة تنفيذية في عدد من دور النشـــر، بالإضافة إلى الكتابة والترجمة وكتابة السيناريو للسينما والتلفزيون.

عادت في عام 1998 إلى عملها الأكاديمي لتعمل في جامعة مالتبا، ومنذ العام 1999 تعمل بالتدريس في جامعة بيلغي في إستانبول.

أعمالها في مجال السيناريو للسينما والتلفزيون: حيث ينتهي الربيع (1988)، ليتهم لا يطلقون النار على الطائرة الورقية (1989)، رحلة نحو الأمل (1991)، الوجه الآخر للماء (1992)، إستانبول مدينة الذهب (1996)، بيت الملائكة (2000)، خلف القضبان (2007)، البنات الذهبيات (2009)، ترلاباشي ترلاباشي.

وفي مجال الرواية: ليتهم لا يطلقون النار على الطائرة الورقية (1986)، الوجه الآخر للماء (1988).

وفي مجال القصة القصيرة: هل صادف أن مات أبوكم؟ (1991)، رسائل من مئة بلد (1996).

وفي الدراسات والأبحاث: الجاز موسيقى الحزن (1985)، 9 أيلول ما بين نيويورك وإستانبول (2003)، المدينة الموثّقة (2007)، كما قامت بترجمة عدد من الكتب الأبحاث في مجال السينما.

نالت عام 1987 جائزة خلدون تانر للقصة القصيرة/ المرتبة الثالثة عن قصتها «الراكب الأخير».

ونالت عام 1988 جائزة يونس نادي لأفضل سيناريو عن عملها «حيث ينتهي الربيع».

ونالت عام 1988 جائزة عبدي إبكتشي للسلام والصداقة عن روايتها «الوجه الآخر للماء».

ونالت عام 1989 البرتقالة الذهبية لمهرجان أنتاليا للسينما لأفضل سيناريو عن عملها «ليتهم لا يطلقون النار على الطائرة الورقية».

ونالت عام 1991 جائزة الأوسكار لأفضل سيناريو عن عملها «رحلة نحو الأمل».

ونالت عام 1992 جائزة مركز لوبون الثقافي للآداب عن مجموعتها القصصية «هل صادف أن مات أبوكم؟».

دعوى ضد مشع التدفئة

«هل هذه الفتاة لكمتك؟».

«هاجمتني، سيدي، هاجمتني».

طول الشاويش مئة وتسعون، ووزنه مئة وعشرة، طول الفتاة مئة وخمسون، ووزنها خمسة وأربعون.

نظر القاضي من خلف نظارته السميكة إلى الشاويش الواقف على منصة الشهود، وإلى الفتاة الجالسة على كرسي الاتهام، وجّه نظراته ثانية نحو الشاويش، خلع نظارته ووضعها فوق لائحة الاتهام، تلك، كانت الجلسة الأولى.

«احكِ، هيا احكِ بالتفصيل».

«ذهبنَا لإجراء التعداد يا سيدي، أُخرجت المعتقلات من المهجع».

يثبن من أماكنهن مع طرق الباب الحديدي بالهراوات، هل حل تعداد الصباح؟ كم جاء سريعاً! حتى صواني الطعام لم تُقدّم بعد، تنظر عائشة إلى الساعة، الثالثة، وضُح الأمر، سيتم إخراجهن هذه الليلة مرة كل ساعتين.

الإضراب عن الطعام في يومه الرابع، لسنَ بوضع ليفكرن فيه بالجوع، يتم إخراجهن من المهجع وتفتيشهن، من خمس إلى ست مرات في اليوم، يُفتّش المهجع بكل دقة، عندما يعدنَ إلى

المهجع يجدنَ الأكياس المليئة بشتى بقايا وقطع الأقمشة التي يدعونها بالمراتب لتمدّد على المصاطب الخشبية، مكوّمة في وسط المهجع، حتى الثياب والملابس الداخلية ومواد التنظيف ضمن هذه الأكوام، حناجير مزيل الشعر قد أُفرغت، والشامبو قد سُفح، ومعاجين الأسنان قد أُهرِقت.

في بداية الأمر، كنّ ينظّمن الفوضى، ويُعدنَ ترتيب الأسرّة من جديد ولأكثر من مرة، بعدما تبيّن لهنّ أن ذلك لن يجدي نفعا، لجأن إلى أساليب أخرى. معلّا خاطت ملابسها الداخلية ببعضها كصنارة صيد السمك، بحيث إذا ما سحبت طرفها سحبت معها بقية القطع من داخل الكوم. زهرة، لبست كل ثيابها فوق بعضها، تنام بها وتصحو. علاوة على ذلك، كنّ في حالة تهيؤ حرب بشكل دائم، عمّت سريعا هذه الطريقة المبتدعة، ارتداء كل الملابس الداخلية، تليها بدلة الرياضة، وفوقها البنطال، ثم طبقتين من التنانير القطنية، وكل ما هو متوفر، ثم كنزتين واحدة رقيقة وأخرى سميكة، ثم سترة، ثم معطف إن وُجِد، كل من يستطعن احتمال الحر، على هذه الحالة صباح مساء، وعندما يتعرّضن للضرب بالعصي يصدر صوت مخنوق، كمن يضرب وسادة.

في اللحظات غير المناسبة، ينتاب الفتيات الضحك، يتمالكن أنفسهن في الخارج، وبعد دخولهن المهجع مع ضماداتهن المتخلخلة يشرعن بالتقليد والهرج والمرج، «غولتشين»، تحصد أكثرهن تصفيقا وضحكا بـ «رقصة التعداد»، شكّلت فرقة العساكر بالعصي مع السيدات المعتقلات حلقة رقص رائعة، إلى جانب ما قامت به آيتان من إيقاع الوسادة، المرح أفضل ترياق.

«أسرعن يا بنات!».

يضـــرب شـــاويش التعداد القضبـــان الحديدية لكـــوّة الباب بالعصا، لقّبنـــه.. لا داعي لذكره، لكنه لقـــب يتلاءم وضخامته، طوله مئة وتســـعون، وزنه مئة وعشرة، من النوع الذي إذا قيل له اضرب، يقتل، واضح أنه اختير بشكل خاص.

«أسرعن، الباب يُفتح».

نســـليهان، الأقدم في المهجع إلى جـــوار الباب. اللاتي أكملن استعداداتهن يصطففن خلفها، يليهن من يستكملن جهوزيتهن.

«دورك الآن أنتِ بارتداء هذا المعطف».

«كلا، كدمات لالى أشد سوءا، لترتديه هي».

«إذن لا تقفي إلى جوار لالى يا نيفين».

نيفـــين، مصابة بالربـــو، وإذا ما وقفت إلى جـــوار لالى وهي مرتدية المعطف، فقد تنتابها نوبة ربو، هذا المعطف كدرع واق من بين ألبســـة المهجع، لكن كيف التقط هذا الكم من الغبار؟ أصبح في حالة لو نُفض أربعة أيام متتالية لا ينظف، ولا سيما في يومه الأول.. كم كان غائما! حتى العســـاكر انتابتهم منه نوبة ســـعال، فتناوبوا على ضرب الفتاة ذات المعطف بالعصي.

يُفتـــح البـــاب، يخرجن بصـــف واحد، يصطففـــن إلى جوار الحائـــط، هنّ، الآن متقابلات وجها إلى وجه مع العســـاكر، في ممر لا يتجـــاوز عرضه مترا ونصف المتر، لـــم يُحضروا كلابهم الذئبيـــة، ذلك يعني أن هنـــاك برنامجا مختلفا، في أول ليلة من أيام الإضراب عن الطعام، وقفن أنفا إلى أنف مع الكلاب الذئبية في هـــذا الممر الضيق، توقّعن إذا ما أظهـــرت اللاتي يخفن من الكلاب، أن يستمر استخدام مثل هذا الأسلوب، لكنهن استطعن تجاوز رهَبهن في ليلة واحدة.

«إلى اليمين درْ! معتدلا إلى الأمام سرْ!..».

مع أمر شاويش التعداد، ينعطف العساكر والمعتقلات إلى اليمين، يتقدم العساكر ببساطيرهم، والسيدات بكل أنوثة، ذلك نكاية بهم، لأنهن أكّدن، منذ اليوم الأول، أنهن لسنَ عساكر ولن يقمن بأية تدريبات عسكرية.

«أين تجرون التعداد؟».

«دائما، نجريه في الممر، سيدي».

يصطففن في الممر، وجها لوجه، العساكر والمعتقلات، في الأيام العادية، تأتي فرقة عسكرية واحدة لإجراء التعداد، في أيام الطوارئ لا سقف لعدد أفراد فرقة التعداد، أيام الطوارئ أكثر من الأيام العادية، بحيث يتم التعداد طوال اليوم صباحا ومساء، وقد أُعدّ وفق خطة ليكون نوعا من العقاب، المجمع «أ» معتقل أقيم لهذه الغاية.

عندما أُحضرت الأربعون سيدة المعتقلات إلى المجمع «أ» لغايات إعادة التأهيل، وسمعن صوت أول تعداد، أصبن بالذهول، كانت فرقة التعداد تركض بخطى عسكرية منتظمة، فتهز جدران المهجع.

«من هؤلاء؟».

«صاعقة، قذيفة، على الأرض، في الجو، كوماندو!».

كانت الساعة قد تجاوزت السادسة مساء، عندما مرّت فرقة التعداد من أمام مهجعهن، متجهة نحو مهجع الرجال لإجراء التعداد، جاؤوهن بعد منتصف الليل لتعدادهن. في نهاية الأمر، تلقين عصي التأهيل بهن، لكنهن بعدما دخلن مهجعهن، شعرن بتحرر من الرعب، فالانتظار كان أصعب.

بعد اكتشاف البنات لهذا الترياق الناجع ضد المعاملة القاسية،

تحوّل انتظار ساعات التعداد كانتظار الحلقة التالية من مسلسل تلفزيوني. بعد طعام العشاء، يصففن مقاعد الأكل ويشكّلن مسرحا صغيرا، رواية باللغة الإنجليزية، كانت الكتاب الوحيد في المهجع الذي تم تهريبه ضمن أمتعة إحداهن، ونجا دائما من المصادرة في كل عملية تفتيش، ربما كان يحمل اسم «سر القصر الغامض»، رواية غموض ورومانسية، أجمل شيء فيها أنها طويلة، كل يوم، وقبل ساعة التعداد، تقرأ إحداهن، التي تجيد اللغة الإنجليزية، فصلا واحدا وترويه بشكل مسرحي، قد يصدف أحيانا ويستغرقن بالرواية، فينسين أنهن بانتظار ضرب عصا شاويش التعداد على القضبان الحديدية لكوّة الباب.

في رهبة الأيام الأولى، تترك معظمهن أذرعهن ملفوفة بالضمادات والعصبات، يحمين كدمات ورضوض أفخاذهن ومؤخراتهن بالوسائد القطنية الصغيرة المخفية تحت تنانيرهن الواسعة.

مع مرور الوقت، أصبح التعداد يمر كأمر اعتيادي، كان على الواقفة في نهاية الطابور أن تقول «الأخيرة، سيدي!»، لكنهن بقين يعارضن قول «سيدي»، فينلن عقوبة الفلقة اليدوية، لا نصّ دستوري يلزم المرأة بالخدمة العسكرية.

تناوبن على الوقوف في نهاية الطابور لنيل العقوبة بالدور.. ذات مساء كان دور دنيز، التعداد من اليمين: واحد - اثنان.. عشرة - أحد عشر.. ثمانية وثلاثون ويأتي الدور لدنيز، «تسعة وثلاثون»، «ما هو التسعة وثلاثون؟»، «التسعة وثلاثون هو عدد»، «كيف هو من عدد؟»، «عدد بخانتين..»، «فهمنا ذلك، ماذا ستقولين بعد تسعة وثلاثين؟»، «أربعون!».

ارتبكت دنيز فنسيت أن تقول «تسعة وثلاثون، الأخيرة»، يظن شاويش التعداد أن البنات قد خطون خطوة تمرد أخرى بتجاهل ترديد كلمة «الأخيرة» أيضا، بعد أن تراجع عن إجبارهن على ترديد كلمة «سيدي»، يسعى جاهدا لإجبارهن على ترديد كلمة «الأخيرة»، وإلا فكيف سيقدّم نتائج تعداده للملازم؟ البنات يتلهفن للعودة إلى المهجع كي يستطعن الضحك على النقاش المضحك الذي امتد طويلا بين دنيز وشاويش التعداد.

سربيل، بطلة أخرى لعقوبة «الأخيرة» في حادثة أخرى، فتاة نحيلة هزيلة، تعاني من فقر الدم، كثيرا ما تُصاب بالإغماء، عند الخروج يوم دورها بعقوبة «الأخيرة»، تقول للبنات «يُغمى عليّ بعد العصا الثالثة»، تقابل بالمزاح، وجهة نظر جيدة، ليتني يُغمى علي!

«آيسِل، قفي إلى جانبي، لأستمد القوة منك».

يبدأ التعداد، لم تقل سربيل «سيدي» فيأمرها شاويش التعداد:

«مدّي يديك!».

ثلاث عصي لكل واحدة، يبدو أن سربيل برمجت نفسها.

«آي، سيُغمى علي، آيسِل، هل تمسكين نظارتي؟».

لا يُغمى على سربيل إلا بعد أن تسلّم نظارتها.

كلمة «مدّي يديك» تؤلمهن أكثر من الضرب بحد ذاته، مدّ الأيدي والانتظار كأنهن يقلن «تفضلوا اضربوا».. كثيرا ما دعاهن إلى اتخاذ قرار:

«لن نمدّ أيادينا!».

ولكن، وجها لوجه مع عدد من فرق العساكر في ذلك الممر الضيق؟ عسكري لكل معتقلة، صديقة على اليمين وأخرى على

اليســـار، لكنك لا تستطيعين رؤية وجهها لتســـتمدّي من عينيها الجــرأة، بعــد كل أمر «مدّي يــدك!» تردّد وتلكــؤ، عندئذ، تمدّ إحداهــن يديها، تعقبها أخرى، ثم أخــرى، وبعد قليل، تكون كل الأيادي قد فُتحت.

«هل أجريتم التعداد، تلك الليلة، في الممر أيضا؟».

«كلا، سيدي، أجريناه في ردهة في نهاية الممر».

«لماذا لم تُجروه في المكان المعتاد؟».

لأنه أوكل إليهم في تلك الليلة مهمة كسر الإضراب عن الطعام في مهجع السيدات، تركوا مهاجع الرجال التي بُدِئَ فيها إضراب جماعي عن الطعام، واســتخفوا بناقصات الضلع، أعاجزون عن التعامل معهن؟

عند دخول المعتقلات الردهة ليجدن على الأقل ثلاث فرق من العساكر بانتظارهن، أدركن ماذا ينتظرهن.

اصطفّت الفتيات على شكل حلقة، فأحاطهن العساكر بحلقة أخــرى، عســكريان لكل معتقلــة، وربما أكثر، اختار الشــاويش مجموعة من عساكر الأفراد ضخام الجثة، واخترقوا الحلقة إلى وسطها، أعطى أمرا:

«اُمْدُدن أياديكن!».

لم تُمدّ ولا يد واحدة.

صاح الشاويش هادرا.

لم تصدر أي حركة، وهكذا، انتصرن!

بلا شك، ردة الفعل التي تعرضن لها كانت مروعة، لكن، عند عودتهن مع طلوع الفجر إلى المهجع، كانت البنات تشعرن بالزهو، مــا إن أُغلقــت بوابة المهْجــع، حتى تعانقن جميعهــن، اختلطت

الدموع بالضحكات، قليل من الضمادات وقليل من الأحلام، في تلك الأثناء، تقع عين إحداهن على وجنة سيفال:

«آآآ، انظري إلى وجنتك يا سيفال!».

تقف سيفال على أطراف أصابع قدميها كي تصل إلى المرآة التي فوق المغسلة، هي الأصغر حجما في المهجع، طولها مئة وخمسة وخمسون، ووزنها خمسة وأربعون.

على وجنة سيفال وذمة تكبر بسرعة تلحظها العين، لا بد أنها ضربة عصا جاءت مباشرة على العظمة الوجنية، «يبدو أنها سبّبت استسقاء داخليا» تقول ساكنة طالبة الطب. يعملن لها ضمادات، بلا فائدة، بعد قليل تصبح الوذمة بحجم حبة البطاطا، فجأة تُطلق سيفال صيحة فرح:

«غدا ستُعقد جلسة لمحاكمتي، المحامون والحضور، الجميع سيرى مدى العنف الذي أتعرض له، سيدركون ذلك، حتى لو مُنعت من الكلام».

المحكمة، هي الطريق الوحيد لإيصال الخبر إلى خارج المعتقل. في اليوم التالي، يودّعن سيفال إلى المحكمة بقلق، جميع من في المهجع ينتظرن عودتها على أحر من الجمر. سيفال، لا تعود، الأسئلة من دون جواب، أسبوع كامل، جميع من في المهجع في قلق، ومشغولات البال، يصلهُنّ خبر أنها لم تُرسل إلى المحكمة، أهي على قيد الحياة؟ حتى لو كانت على قيد الحياة، أين هي، وماذا تفعل وحدها؟ لن تتراجع عن الإضراب عن الطعام حتى لو قتلوها، لكن أليس صعبا أن تكون وحيدة؟ بالنسبة لهن، فهنّ معا بنفس الحال.

يُحضرون سيفال في اليوم الذي ينتهي فيه الإضراب عن الطعام، فقدتْ على الأقل خمسة كيلوغرامات، ستطير لو يُنفخ

عليها، يعانقنها بحرارة.

وُضعت في الحبس الانفرادي لمدة أسبوع، لا بد أنهم انتظروا حتى تتعافى وذمة وجنتها، عندما لم تُودع في حينه إلى المحكمة، راجعت عائلتها ومحاميها كل من استطاعوا مراجعته، كانوا في خشية من أنها قُتلت، قيل لهم إنها عوقبت بالحبس في الزنزانة الانفرادية لعدم انضباطها أثناء إجراء التعداد، في نهاية الأمر، أُخبرت أنه رُفع بحقها دعوى، وأُخرجت من الزنزانة الانفرادية، مازال على وجنتها ازرقاق خفيف.

تلوّح سيفال بلائحة الاتهام المؤلفة من صفحتين بيدها:

«رفعوا دعوى ضدي!».

لمعظمهن مع الإدارة دعاوى غريبة ضدهن، إحداها معروفة. تقرأ سيفال لائحة الاتهام في المهجع، عند قراءتها، يدركن أنها لن تكون أغرب من الأخريات، ينقطع الكلام مرارا من الضحك.

«بماذا يتهمونها، بماذا؟».

«بمحاولة ضرب شاويش التعداد!».

«عد إلى حادثة الضرب، كيف لكمتك هذه الفتاة؟».

«هاجمتني، سيدي، هاجمتني».

«أعطيت أمرا، سيدي، قلت إلى اليمين در، سرن جميعهن، عندما دخلنا إلى الرواق لإجراء التعداد، بدأت هذه البنت بالصياح فجأة: (فاشيون قذرون، لن تستطيعوا وقف نضالنا!) مثل هذه الشعارات هتفت، فحذرتها، كي لا تثير الفوضى أثناء عملية التعداد، هجمت عليّ، سيدي».

«هل هجمت هذه الفتاة عليك؟».

«نعم، سيدي».

«وماذا فعلت أنت؟».

«انحرفت جانبا، سيدي».

«ولماذا انحرفتَ جانبا؟».

«لأدافع عن نفسي، سيدي».

«ألم تلمس الفتاة؟».

«لم ألمسها، سيدي».

«وماذا حدث بعد ذلك؟».

«هي صدمت بشدة، سيدي».

«ماذا صدمت؟».

«صدمت وجنتها، سيدي».

«بماذا صدمت وجنتها؟».

«صدمتها بمشع التدفئة، سيدي».

أنقرا 1986 - إستانبول 1990

عائشة ساريساين
AYŞE SARISAYIN
1957

ولدت في إســتانبول، أكملت دراســتها الثانوية في المدرسة الألمانيــة، تخرجت عام 1981 فــي كلية الهندســة الكيميائية بجامعة إســتانبول، وعام 1986 حصلت على ليســانس الإدارة في كلية الاقتصاد بجامعة إستانبول، عملت في شركات صناعة الدواء.

جمعــت عــام 1984، قصائــد كان والدها الشــاعر «بهجت نجاتي غيل» قد ترجمها لعدد من الشــعراء الألمان والنمساويين، وأصدرتها في كتاب بعنوان «الوحدة تشبه المطر».

وأصدرت مع أختها عام 1999، كتابا بعنوان «زرقة النســيم» يضم رسائل والدها إلى أمها.

وأعدت عام 2001، كتابا عن والدها بعنوان «أشياء كثيرة لم تكتمل بعد».

وأصدرت عام 2009، كتابا عن سيرة الكاتب إردال أوز بعنوان «إردال أوز فارس لا ينسى».

وأصدرت كتابا عن إســتانبول بعنوان «بشــيكتاش على مدى

الطرقات والذكريات» وذلك بمناسبة إستانبول مدينة الثقافة لعام 2009.

وأصدرت عام 2010، كتابا للأطفال بعنوان «قطتي اسمها تشامور».

كما ترجمت من الألمانية العديد من الكتب في مجال الشعر والرواية والقصة ولها كتاب لتعليم اللغة الألمانية.

نالت عام 2004 جائزة يونس نادي للقصة القصيرة عن أولى مجموعاتها القصصية لها «البحار جدران أربعة».

ونالت عام 2005 جائزة سعيد فائق للقصة القصيرة عن مجموعتها القصصية الثانية «زمن الذكريات المتعَبة»، والتي اختيرت منها قصتها ضمن هذه المجموعة القصصية.

ونالت مجموعتها القصصية «رسومات بقلم الفحم» على جائزة كتاب العام 2008 التي نظمتها مجلة عالم الكتاب.

يقتلون الأحصنة أيضا
«الحصان، محاكاة عشق في السماء
وأصل عرفه الأزرق الناصع»
جان بهادر يوجى
لذكرى العزيزة لبيبة

لم أتكلم ذلك اليوم، لم أنطق ولا بكلمة واحدة، لم أتناول لقمة خبز واحدة، ولا جرعة ماء واحدة.. ارتاع الجميع كيف سأحتمل.

حسب ما روته أختي الكبرى، كنت أحدق بجدتي بعينين مفتوحتين على وسعيهما، أتجول وأدور في البيت بوجه باك.

لا أتذكر التفاصيل، لم يكن ما رأيته سوى حلم، مازال أمام ناظري، وكأنه فيلم رعب شاهدته أمس.

لكنني أذكر أنني شققت باب غرفة الضيوف بهدوء، وعندما لم أشاهد أحدا يجلس على الأرائك المخملية الخمرية، شعرت بالفرحة.

حتى المساء، انمحى من ذاكرتي ما فعلته كليا، وعندما هبط الظلام، سمعت صوت بائع العتيق: «بائع العتيييق، أشتري العتيق، بائع العتيييق...».

أخبروني فيما بعد، أنني هرعت إلى النافذة، وألصقت أنفي بالزجاج كالمسحورة ونظرت إلى الخارج، ثم شرعت بالنحيب، بعد محاولات عديدة من أختي الكبرى وأمي، أخبرتهما وأنا أشهق بالبكاء أن الحصان قد أكلني.

حين قالت أمي: «عندما تبكين يحمر أنفك وتصبحين قبيحة»، سكتُّ على الفور!

أكلني الحصان في حلمي، حصان بائع العتيق.

الباب يُقرع، «من القادم؟»، أعلم أن الأبواب لا تُفتح دون قول ذلك، لكنني أخجل جدا من هذا السؤال، فتخرج هذه الكلمات من فمي كهمس لا يكاد يُسمع، مستحيل أن يسمعه القادم ويجيب! في نفس اللحظة، أفتح الباب على الفور، وكما أفعل دائما.

قرْعُ البابِ حَدَثٌ جميل، يعني الفضول، يعني الإثارة، يعني الفرح وأجمل ما فيه التغيير، كما أنني أهبّ من مكاني مسرعة لأفتح الباب قبل الآخرين، قد يكون القادم ساعي البريد، فيربت على رأسي وهو يضحك، ما إن ألتقط الرسائل منه حتى أهرع إلى غرفة عمل أبي! أحيانا، ينفحني أبي شوكولاته، أصابع الشوكولاته أكثر ما أحب، بعد أن آكلها، أفرد لفائفها البراقة وأخبئها إلى جانب سابقاتها بين دفاتري، يحل المساء سريعا وأنا ما زلت أحسب عدد كل لون منها، ربما يكون خالي أسعد، من قرع الباب، فيحتضنني ويرفعني في الهواء، ويقرصني من وجنتي، أكثرنا من يفرح بقدوم خالي، هي جدتي، تواصل الابتسام طوال اليوم، حتى بعد ذهابه، وإذا ما قدِم أحد خالَي التوأمين أورهان وبرهان، ننزل إلى باحة المنزلِ في طابق التسوية ونلعب بالمدوّمة، غالبا ما يأتيان معا، حينئذ لا يلعبان معي كثيرا، أفضّل أن يأتيا

منفردين، قد تكون القادمة ابنة جيراننا سيبل، فتقرأ وأختي الكبرى الفال بورق اللعب، يظهر في الفأل نجات: الفتى الأشقر المقيم في الزقاق المجاور. نجات، طالب ثانية ثانوي، يكبر أختي الكبرى بثلاث سنوات، «وسيم جدا!»، تتهامسان ظنا منهما أنني لا أسمعهما، وتحاولان تشبيهه بممثّل لم أسمع باسمه، «أوف، سيبل!»، تقول أختي الكبرى، «يا لسوء نيتك! حتى إنني لا أفكر به!»، بعد ذهاب سيبل، أصيح خلف أختي الكبرى «نجات، نجات!» كي أغيظها، مجيء الغسالة غول هانم، أمر يسعدني، فقد كنت أتابع بفضول كيف يتم استخدام «النيلة الزرقاء» لتبيض الغسيل الأبيض، أما إذا ما جاءت صديقة أمي الخالة مسرّت.. فلا بد أن تحمل لي في حقيبتها إما لعبة وإما قطعة شوكلاته.

لكن قارع الباب هذه المرة، لم يكن أيا منهم، مفاجأة كبرى! حصان بائع العتيق يقف أمامي، انتصب على قائمتيه الخلفيتين يصهل.

صهيل.. هذا ما يقوله أهل البيت، تعلمت كل ذلك: الكلاب تنبح، والقطط تموء، والأسود تزأر، أما الخيول فتصهل، لكن بالنسبة لي فهي تقرقر، كلما صهل الحصان بانت أسنانه الكبيرة القذرة والمائلة للاصفرار، عيدان تبن بين أسنانه، مقرف جدا! أتراجع إلى الخلف من الخوف، هل يقرع الحصانُ الباب؟ لكن ليس له يدان! ربما بائع العتيق قرع الباب وهرب، ذات مرة، حينما سمحت لي أمي باللعب في الشارع، أطفال مشاكسون قرعوا بابا وهربوا، بينما بقيت وحدي أمام الخالة التي فتحت الباب! في الواقع، حين رأتني الخالة أبكي، لم تغضب، لكن أمي وبختني عند عودتي إلى البيت مساء؛ كيف عرفت! أعلم أن الأمهات يعرفن

كل شـــيء، لكن كيف؟ ذلك ما لا أفهمه أبداً، هل فعل بائع العتيق نفس الشيء؟ بائع العتيق الشرير الذي يلقي بالأطفال المشاكسين في عربته، ويأخذهم بعيدا .. وبشـــكل خاص، أولئك الذين يبقون في الشارع بعد حلول الظلام، ولا يعودون إلى بيوتهم رغم نداءات أمهاتهم، ماذا يفعل بالأطفال الذين يأخذهم يا ترى؟

أسمع من بعيد نقر عصا جدتي «طق، طق» ثم صوتها الناعم: «تفضلـــوا، تفضلـــوا، لا تقفوا بالبـــاب..»، أختبـــئُ تحت طاولة الوســـط في غرفة الجلوس، وأنتظر فترة من الوقت، لا أســـمع صوتـــا، أذهب بهدوء إلى غرفة الضيوف، فأرى من فرجة الباب جدتي والحصان لا يجلسان متواجهين فحسب، بل على الأرائك المخملية الخمرية التي تحرص أمي عليها كعينيها! جدتي تسأله عن أحواله، تماما كما تفعـــل مـــع الضـــيوف: «كـــيف صحتـــك يا بني؟»، يهز الحصان رأســـه وهو يصهل، كما أنه يجلس واضعا ســـاقا على ســـاق! رغم أن جدتي لا تعجبها مثل هذه الحركات، لكن! لماذا لا يبدو عليها الانزعاج أبدا من طريقة جلوس الحصان هذه؟ «كيف حال أمكم وأبيكم، هل هما بخير؟ لقد نســـيت اسم أخيكم، أرجو المعذرة، بســـبب الكِبَـــر..»، يصهل الحصان ثانية، كلمـــا صهل الحصان ســـال لعابه من حنكه، حتـــى كاد أن يقطر علـــى الأرض! أنا متأكدة، أن جدتي لـــن تحتمل إلى هذا الحد، تغضب كثيرا إذا ما دلقنا أي شيء على الأرض، على اعتبار أننا نُتعِـــب أمنا، لم يبقَ إلا القليل حتى يُطـــرد الحصان الوقح وغير المؤدب! فـــي اللحظة التي اقتربت فيها مـــن الأريكة لأهزأ منه، أشـــارت جدتي بحاجبها: «ابنتي، قدّمي الحلـــوى! آه، لا يعقلون هـــؤلاء الأطفال ولا بأي شـــكل..»، أنهضُ مـــن مكاني وقد خاب

ظنــي، وبينما أمدّ علبة البورســلان البيضاء الخاصة بالحلوى، «الضيوف أولا!»، تقول جدتي من بين أسنانها، «لم تتعلمي بعد!»، تُخطئُ، تعلمت ذلك منذ أمد بعيد، لكن الخيول لا تحب الحلوى، لا تأكل سوى التبن، صعب جدا أن أشرح لها ذلك، وبخاصة أمام الحصان! من الواضح أن الحصان ضيف جدتي، وأمام الضيوف، لا مجال للاعتراض على أي شــيء أبدا، يقــال بعد ذهابهم، إن كان مهمــا، الأفضل هو تقديم الحلــوى للحصان، على أية حال، لن يأخذ، عندئذ ســتدرك جدتي ذلك! أمــدّ علبة الحلوى وأنا أقترب من الحصان مرتعشــة، وتماما مثلما شُرح لي، أنحني إلى الأمام وأتبســم، يمر في ذهني أن جدتي ستهمس بعد قليل قائلة «كولونيا!»، سأحضرها هذه المرة قبل أن تقول، ستندهش كثيرا.

وهكذا في تلك اللحظة يحدث وينتهي كل شــيء، الحصان، يمدّ قائمتيه الأماميتين نحوي وينهض على قائمتيه الخلفيتين، يقبض عليّ بشــدة ويرفعني في الهواء، فمه المفتوح إثر صهيل جديــد، وأســنانه الكبيرة الصفراء، ولســانه وقد التصقت به عيدان من التبن، كل ذلك قريب جدا مني! فمه يتســع ويتســع ويتســع.. كل شــيء يختفي ويصبح فمه العالم كله، جليفر في بلاد العمالقة، أليس في بلاد العجائب.. عقلة الإصبع، في أي حكاية كانت، هل في بيتريان؟ أنا الآن في فم الحصان، أتجوّل بين أســنانه، أمر عجيب، لا يسحقني رغم وجودي بين أسنانه، ربما لأنني صغيرة جدا. رحلتي تستمر، أتقدم في طريق يشبه مــا نعبره بالقطار من أنفاق طويلــة ومظلمة، بعد مضي وقت طويــل داخل هذه الأنفاق حالكة الســواد، نور يظهر من بعيد، وأخيرا، أنزلق وأسقط في فراغ، الجو حار جدا، خانق ويسبب

الإقياء! كأنني في مكان يشبه مخزنا للتبن، الموقف الأخير، لا بد أنها المعدة! أركض يمنة ويسارة، لا باب مخرج ولا حتى ثقب واحد، جميع الأنحاء مغطاة بالتبن. أمي العزيزة، أمي العزيزة، أنقذيني من هنا، أرجوك! كل ذلك أصابني بسبب جدتي، لن أسامحها أبدا. أمي العزيزة، أعدكِ، لن أسيء السلوك أبدا، ولن أغضب جدتي أبدا، لن أصيح «نجات!» خلف أختي الكبيرة، ولن أصيح «قشطة يا لبن!» عندما يمر بائع اللبن ويرن بجرسه، لن أحضر ألعابي وأبعثرها في غرفة الجلوس، كما لن ألمس التحف الموجودة في الخزانة الزجاجية، لن ألعب مع الأطفال الذين يقرعون الأبواب ويفرّون، وعد! لن أزعج أحدا منكم، أرجوكِ، أنقذيني..

لم أكن أذهب إلى المدرسة بعد، فعندما رأيت هذا الحلم كنت في الخامسة أو السادسة من عمري، أول حلم أتذكره، التهام الحصان لي، كان أيضا، أول كابوس لي.

بقينا سنتين أخريين في ذلك البيت، غالبا، يمرّ بائع العتيق كل مساء، مع حصانه البني من أمام بابنا، كنت كلما سمعت صوت بائع العتيق وهو يصيح، أركض إلى النافذة، وأنظر خلسة من خلف الستارة التولية إلى الحصان الذي أكلني.

باعت أمي أشياء قديمة لبائع العتيق مرات عدة، تساوما أمام الباب، في تلك الأثناء، اقترب الحصان جدا من بيتنا، اختبأْتُ في البداية، تحت الطاولة، ثم خلف فستان أمي، رغم شدة خوفي، لم أستطع منع نفسي من مراقبته.

نسيت حنقي على جدتي مع مرور الوقت، لكنني لم أنسَ أبدا أن إكرام الحلوى يكون للضيوف أولا، بل أحضرت الكولونيا أكثر

من مرة قبل أن ينبّهني أحد، «مرحى، حفيدتي الصغيرة كبُرت!»، قالت جدتي فرحة.

في تلك الأثناء تعلمت أن جدتي تعرف أشياء أكثر مني كحب الخيول للسكر، شيء واحد لم أتعلمه ألا وهو عدم الرهبة من الأحصنة.

بعد ذلك رحلنا إلى بيت آخر وتركنا بائع العتيق وحصانه الذي أكلني، وساعي بريدنا، وبائع اللبن ذا الجرس، وجارتنا مليحة هانم وابنتها سيبل، والغسالة غول هانم، وكل أطفال الحي الذين يقرعون الأبواب ويفرون والذين لا أستطيع اللعب معهم بعد هبوط الظلام، لم أرَ أحدا منهم بعد ذلك.

كان بيتنا الجديد يقع على شارع واسع، هنا، لا أطفال يلعبون في الشارع، كما أصبح لجدتي كرسي بعجلات، رُفعت عصاها الطويلة التي كانت ترعبني بصوتها «طق، طق» إلى الخزانة.

ثم أقمت في بيوت أخرى، على امتداد الطلعة ما بين «بشيكتاش» وحتى «تشفيكية».

بعد عدة سنوات، وذات صباح، تقابلت مع رجل مسن وحصان أبيض يتسلق لاهثا أحد الأزقة الخلفية الضيقة حادة الميل.

هل كان الرجل في الحقيقة مسنا حقا، أم بدا لي بطيش ابن العشرين؟ لا أدري.

بدا لي الحصان وصاحبه بنفس العمر لحظة رؤيتي لهما، كأن على محياهما نفس الملامح، الشحوب والتعب.

عند خروجي على عجل للذهاب إلى مكان عملي ذات صباح، وجدتهما أمامي فجأة، كانت العربة محملة بالخبز، وقوائم الحصان كانت تنزلق على حجارة الطريق، كان الرجل المسن

يحاول مساعدة الحصان بدفع العربة من الخلف، صعدا الطلعة بصعوبة وتوقفا أمام بقــال في الطابق الأرضي للبناية المجاورة، كان رجلا نحيلا وقصير القامــة، عظمتا وجنتيه ناتئتان، أحول العينين وبوجه دقيق، شــعره أسود حالك وقد فُرق إلى الجانبين وصُفّــف بعناية، أخرج قميصه الأبيض الذي يشــبه مئزر طبيب الأســنان فوق مئزر البائــع الأزرق المربوط على وســطه، أكمام إضافيــة من نفس قماش المئزر تغطــي أكمام القميص الأبيض، كان مشهدا مثيرا للانتباه!

استدعى الرجل المسن في مخيلتي ثلاث شخصيات مختلفة: طبيب أسنان، وبائعا وموظف مؤسسة! أما الصفة المشتركة فيما بينهم، فملامح الوقار والحنكة كأحد أفندية إستانبول القدامى.

بعد عودتي إلى البيت مساء ذلك اليوم، تذكّرت أول حلم لي، حصان بائع العتيق الشــرير، رويته لعلي وأنا ألهث، أمضينا الليل بالتحدث والضحك من أحلام الطفولة.

أقابل بائع الخبز وحصانه كل صباح، فيما عدا نهايات الأسبوع حيث أســتيقظ متأخرة، يبدو أنــه كان يأخذ الخبز بالجملة من الفرن ويوزعه على البقالين في الجوار. في البداية، بدأنا السلام بابتســامة خفيفة، ثم بتبادل التحية بالقول «صباح الخير!»، بعد مدة «أشغال موفقة!» أضفت إلى «صباح الخير!»، وتلقيت في كل مرة جوابه «ولكم أيضا!».

ذلــك الصيف مرّ ســريعا، مع ما صاحبه مــن بيتي الجديد وحريتــي والحماس نحو حياة بلا حســاب من أحــد، في ليالي الصيف الطويلة، تســكعنا على شــواطئ البحــر هربا من ضيق غــرف بيتنا وضغــط الأبنيــة المزدحمة المتلاقصة فــي الأزقة

الضيقة، أكلنا السمك والخبز من المراكب، وشربنا الجعة وغنّينا حتى تعبنا، في صباحات الليالي البيضاء، كنا نتقابل وبائع الخبز وحصانه، كنّا شبابا إلى الحد الذي لم نكن نأبه لا بالتعب ولا بانتهاء الصيف، كنّا سعداء جدا.

بدأ بائع الخبز بارتداء معطف من الجلد فوق مئزره الأبيض، وعلى رأسه قبعة من الجلد والفرو تغطي أذنيه، أول ما رأيته بمعطفه الجلدي، بحثت عيناي عن لباس للحصان يتناسب لونه ولون مئزره الأبيض، حلّ الخريف وانقضى، وأقبل الشتاء.

لاحظت ذات يوم أنني لم أرَ بائع الخبز، لا أعلم متى لاحظت عدم ظهوره، شعرت للحظة، فقدان جزء من حياتي في الزقاق، بدأت بالتدقيق بشكل خاص، لكنني لم أره، أسابيع مضت ولم يظهر للعيان.

ذات صباح، وبينما كنت أستعد للخروج من البيت، ركضت إلى النافذة إثر سماع صوت عليّ يقول «انظري، لقد عاد!»، كان هناك غير بعيد عنّا، يفرغ الخبز بالسلال.

شعرت بغرابة، بقلق لا أعرف سببه، بجو خانق كالذي يسبق مطرا مستعصيا، كأن الهاتف سيرنّ لسماع خبر سيئ.. في ضيق لا أدري كنهه، كمَثَل بعد ظهيرة يوم أحد رمادي لا أعرف ماذا أفعل.

ثم شاهدت الحصان، كان بني اللون، قميص بائع الخبز مازال أبيض.

مرّت من أمام عيني المشاهد الأخيرة لفيلم شاهدته منذ سنوات، حصان أُطلق عليه الرصاص، فسقط أرضا وهو يصرخ من الألم.

يـــدان أحاطت كتفيّ من الخلف بحنان، همسٌ في أذني يقول «لا تجزعي! يصبغون الأحصنة أيضا».

كما تتبخّر قطرات المطر بعد أن تشرق الشمس إثر أول هطول صيفي.. جفّت دموعي أيضا على الفور، رائحة النجيل عبقت في كل الأرجاء، وازرقّت السماء، ذُهلت، هل للحب رائحة ولون؟

«هـــل ذلك حقيقي؟»، ســـألت، «لا يقتلونهم فحســـب؟ بل في الحقيقة يصبغونهم؟».

«بالتأكيـــد»، هزّ رأســـه قائـــلا، «أم نســـيت أن والدي طبيب بيطري؟ أنـــا أفهم بالأحصنة، لا داعي لبكائك، ســـيحمرّ أنفك ثانية».

كم كان يبدو جديّا وواثقا من نفسه!

«حسنا»، قلت، «هيا نخرج، سنتأخر عن عملنا».

لم أســـأل بائع الخبز عمّا حصل للحصان الأبيض، حتى إني لم أســـأله «أين كنتم؟ عساه خيرا، هل هناك مشكلة ما؟» لم أقل ذلك الصباح ســـوى «عليك العافية»، بدلا من «أشـــغال موفقة!»، «سلمتم، موفقون»، أجاب.

رحلنا بعد ســـنة من ذلك البيت، لـــم أعد أرى بائع الخبز ولا حصانه الـــذي صبغه باللون البني، تماما مثلما لم أعد أرى بائع العتيق وحصانه الذي أكلني.

صداقتي مع الأحصنة تدوم، وما زلنا معا أنا وعليّ.

مع أن رغبتي بالغناء في الأزقة قد تضاءلت، لكنني لا أمسك نفسي عن الضحك، كلما رأيت حصانا.

فبراير 2004

نالان بارباروس أوغلو
NALAN BARBAROSOĞLU
1961

ولدت في أضابازاري، درســـت الفلسفة في جامعة إستانبول وتخرجت عام 1982، شاركت بتأسيس «يازكو» (تعاونية الكتّاب والمترجمين) إثر اســـتيلاء الجيش على السلطة عام 1980، كما شاركت بإصدار مجلة «يازكو سومت» الأدبية ودار يازكو للنشر.

أصدرت العديد من المنشورات في مجال الفلسفة، وأصدرت أول كتاب لها بعنوان كتابات يازكو الفلســـفية، ناقشت فيه مفهوم الأنمـــوذج عند توماس كوهن، ثم يازكو في الواقع المادي، أُغلقت التعاونية وكافة مرافقها بعد انسحاب العديد من أعضائها على خلفية نقاشات وسجالات حادة بين أعضائها.

كتبت في العديـــد من المجلات وأدارت تحريرها، تعمل حاليا رئيسة تحرير مجلة «إشيكجني» الثقافية.

عضـــو في اتحاد الكتّـــاب العالميين، كما تشـــارك في هيئات التحكيـــم الأدبية، تُرجم عدد من قصصهـــا إلى عدد من اللغات العالمية، وتُرجمـــت مجموعتها القصصية «الليلـــة الفضية» إلى اللغة الألمانية. بدأت كتابة القصة في الثمانينيات، ونشرت أولى

قصصهــا في مجــلات «أرغوس» و«نـــار» و«آدم»، وتعرضت في قصصها لأنماط الحياة المفروضة مــن خلال العادات المتوارثة، وأظهرت في شخوصها جرأة على مواجهة أنفسهم وحقائقهم في لحظات الحياة العصيبة.

صــدر لها في مجال القصـــة القصيرة: كم هو جميل الرحيل (1996)، لكل صوت نغم (2001)، دوّار الشمس (2002)، الليلة الفضية (2004)، أضواء الطريــق (2009)، قصص قنابلذرور الفلفل/ مكان الحريق كل العيون (2014)، بريد القرّاء (2014).

كما كتبت فــي التاريخ: نحو نهج تعددي ومتســامح في تعلم التاريخ. وكتبت للأطفال: السمكة التي تسعى للطيران (2014).

شريط التحزيم

في سكون يوم أحد، كانت أصداء صوت لصق شريط التحزيم، تتردّد داخل البيت.

جررررر..

الطفل، ينظر من النافذة إلى الشارع في الأسفل بنظرة حزينة في عينيه، لقد ملَّ من عدّ السيارات المارة، كان يخطئ بالعد بعد تجاوزه الثلاثين، عرضتُ عليه عد السيارات الحمراوات فقط، لكنه لم يبالِ.

جررررر..

بعد الإفطار، أراد مساعدتي، لكن يديه الصغيرتين لم تفلحا بالتغلب على شريط التحزيم، سعى جاهدا لتغليف عدة أكواب، ثم أصابه الضجر؛ لذلك هو الآن، ينظر إلى الشارع في الأسفل وكأنه لا يرى السيارات المارة ذهابا وإيابا.

تحزنني حالة صمته هذه، على العموم، هو ليس طفلا كثير الكلام، لعل ذلك نتيجة نشأته في بيئة منغلقة، كما يقول هياتي «ذلك من تأثير جدته لأمه التي ربته»، «نورهان هانم، امرأة دائمة العبوس والتذمر، لا يعجبها العجب، لقد جعلت منه نسخة عنها».

جررررر..

لم أجـد هذا التبرير مقنعـا، لكن لا أدّعي أنـي على دراية بالأطفــال، أصطحبه معي عند ذهابي إلى الصيدلية، ينظر كما الآن إلى الشارع بسكون وصمت.

جرررر..

يلعب، من حين لآخر، أمام الصيدلية مع القط الذي أسميناه هوســين، كما يرغب، أحيانا، بالذهــاب مع صبي الصيدلية إلى حديقة الحي العامة، ويلعب في حوض الرمال عندما يكون الجو صحوا، لم يألفني بعد، تشـوب العلاقة فيما بيننا بعض الجفوة، فــي الحقيقة، هو غير ودّي مع الجميع.. بل حتى في علاقته مع أبيه.

جرررر..

لا طفل في محيطي القريــب، معرفتي بالأطفال من الطريق فقــط، أو في الســيارات العمومية، والحافــلات، أو من يحضر لأخذ حقنــة في الصيدليــة، فألاطفهم بالقول «كــم أنت طفل ظريف!»، حتى دخل هياتي وستشكين إلى حياتي.

جرررر..

الفوضى التي تعم البيــت تثير أعصابي، وزادني حال الطفل الحزين توترا.. هياتي في أنقرا، ذهب منذ مســاء يوم الجمعة، عنده جلســة صباح الاثنين، قال: «لأستغل هذه الفرصة وألتقي بأصدقائي القدامى».

– إذا شئت أفتح لك التلفزيون، قد نجد رسوما متحركة..

– ليكن..

أفتــح التلفــاز، وأبحث عن قنــاة تعرض رســوما متحركة.. «ليكن..» لم يقل «كلا» أو «أجل» بل «ليكن!» وكأني أنا من سيجلس

لمتابعة الرســـوم المتحركة! هاه، وجدت واحدة، جلس على الأريكة المواجهة للتلفاز، أبذل قصارى جهدي كي يُمضي أوقاتا سعيدة.. لو كان ابني، هل كنت ســـأتعامل معه هكذا يا ترى؟.. ماذا يجب عليّ فعله بصفتي زوجة أبيه؟.. هل يجب أن أُجبر نفسي على أن أكون ودودة دائما؟ أم أتصرف على سجيتي، فأثور عند الغضب.. لكن كيف نغضب من طفل، حتى ذلك لا أعرفه، صورة زوجة الأب تعشعش في رأسي نتيجة تراكمات نظرية حولها لمئات السنين..

جررررر..

دمـــوع أمي.. تأثّرها لزواجي مـــن رجل له ابن بعد أن أضعت أكثر من فرصة..

جررررر..

أمي: من جهة، الرجل مطلّق وليس أرملا، ومن جهة أخرى، لم ترغب زوجته الســـابقة حتى من أخذ ابنها منه، لقد تخلصت من الاثنين. من يعلم كيف كان يعامل المرأة، حتى لم ترغب بطفله؟.. أية امرأة تلك التي تتخلص من زوجها وابنها معا؟..

جررررر..

أنا: أرجـــوكِ لا تردّدي كلمتَـــي رجل وامـــرأة.. الرجل الذي تتحدثين عنه ســـيصبح صهرك قريبا.. كما أن من طلب الطلاق هي نوردان هانم وليس امرأة.. والرجل هو هياتي.. لم يستطيعا التفاهم.. ولم يســـتطيعا تقاسم حياة مشتركة.. ولم يستمر هذا الزواج رغم وجود الطفل..

جررررر..

أمـــي: وهل ســـينفصل عنك أيضـــا، إذا لم تســـر الأمور كما تشـــائين؟.. أهناك زواج كل أيامه سمن على عسل؟.. لو انفصل

كل زوجين عند حدوث أي خلاف.. لما بقي في الدنيا زوجان معا، هذا زواج يا بنيتي لا لعبة أطفال.. انظري بعيني، سأذكّرك؛ هذا الرجل سـيـنفصل عنك أيضا.. لقد اعتاد علـى ذلك.. أنا على قناعة أكيدة، سترين!

جررررر..

أنا: كم أنت متحاملة عليه يا أمي!.. وقد لا تسـيـر الأمور كما أرغب، أيجب على المرء أن يظل أسـيـر زواج غير سعيد؟.. أيُجبر اثنان على العيش معا حتى لو لم يتفقا، ولم تسـر الأمور بينهما على ما يرام؟..

جررررر..

أمي: ماذا أقول، وما دمت أنت تفكرين مثله؟.. صدقيني فقلبي لا يحتمل، تعالي، انظري.. ضعي يدك وأصغي كيف يدق.. منكِ طفل آخر أيضا.. ومسـؤولية الطفل من المرأة السابقة.. أووه.. والله سـيـتركك ويذهب.. وجد امرأة حمقاء مثلك.. لكن يبدو أن زوجته السابقة عاقلة، تخلصت من الطفل.. لكنك لا تستطيعين فعل ذلك، من مثلك يقعون دائما على وجوههم.. أعلم ذلك!

جررررر..

أنا: لا تتحدثي وكأنك تعلمين كل شـيء يا أمي! كيف تسـتطيع امرأتنا المسـكينة أن ترعى الطفل براتبها فـي قصر العدل؟.. وكم يبلغ وهي موظفة حكومية من الدرجة التاسـعة؟.. كما أنها لا تريد المطالبة بالنفقة، قالت امرأتنا المسـكينة: «إن راتبي لا يكاد يكفيني وحـدي، وماذا عن مصروف ستشـكين؟ سـأصطحبه في نهاية كل أسبوع، وفي عطلتي السنوية»، وماذا ستفعل أكثر من ذلك؟.. ما دام لا دخل آخر لها، هل تظنين أنه من السهل رعاية طفل بهذا الراتب؟!

جرررر..

أمـــي: أتعلمين ما الذي ســيحصل؟.. ســتجد تلك المحامية الوقحـــة والقادمة من الأناضول رجلا آخر فعينها إلى العلالي.. عند كتابة المحاضر تسبل جفنيها.. وتضع ملفها من الأعلى..

أنا: أمييييي!

جرررر..

(للأســف)، أمي: أنا ذاهبة يا بنيتي، افعلي ما ترينه مناسبا لـــك، فالحياة، حياتك أنت.. ولكن عندما تعانين لا تأتي عنـدي، لا تجعليني أذكّرك بما سبق أن حذرتك منه.

جرررر..

وهكذا ذهبـــت أمي، لم نلتقِ منذ ذلك اليــوم، أنتظر أن يرقّ قلبها، على أية حال، فليس لها من قريب سواي، غضبها لن يدوم طويلا، لن تحتمل وستتصل.

جرررر..

لمن ستبث أشـــجانها، وتثرثر؟ لن تشكو لجاراتها، ذلك يمس غرورها، آه، يا أمي، آه.. أنت أمي.. لا أعرف كيف هي الأمومة، ولكن كلما نظرت إليكِ، أعرف، على الأقل، أي أم لن أكون! إيبيه، ذلك أمـــر آخر، رن الهاتـــف، وثب الطفل من مكانـــه قائلا «أنا ســـأرد»، يسعدني أن يشارك بشـــؤون البيت، قد يكون اعتاد في داخله وأنا لم ألاحظ ذلك، يقول: «أنا، أنا بخير، شكرا، أبي ليس هنـــا، تكلّمْ مع زهرة»، يمد نحوي ســـماعة الهاتف: «العم نعيم!» وأقـــول لنعيم: «مرحبـــا، كيف حالك؟»، صوتـــي واضح، أعجب بنفســـي، يقـــول: «لا بد أني قد أكثرت من الشرب ليلة الجمعة، لا أذكر من ســـيحضر جلسة الصباح في بكيركوي، هياتي أم أنا،

ذلــك ما كنت سأســأله عنه.. كي أنطلق غــدا صباحا»، أجيب: «عندكم جلسة في أنقرا صباح الاثنين.. هياتي في أنقرا»، يسود صمــت على الهاتف، ينتظر كل منا الآخــر ليتكلم، يتدارك نعيمُ ويقول: «يا .. أجل، يا الله كيف نســيت ذلك، لقد أزعجتك»، هل سمع قولي قبل إغلاق الهاتف «ليس مهما» أم لم يسمع، لا أدري، ستشكين يراقبني باهتمام من فوق الأريكة أمام التلفزيون، عندما تلتقي نظراتنا يدير وجهه نحو التلفزيون، يشاهد الفأر بالمصيدة التي أعدتها له القطة، لكنه بعيد عن المتابعة.

جررررر.. يُفتح في داخلي جرح.

أقول: «لــو أفتح هذه الرزم التــي أغلقــتهــا وأجلــس في داخلــهــا ســيكــون جيــدا»، أســأل ستشــكين قائــلة «هل تســاعدنــي يا صغيــري؟»، يقول، مــن دون أن يزيح عينيه عن التلفاز: «لم يبقَ ســوى القليل حتى نهاية الفيلم»، لا أستطيع أن أرحّــل هذا الجــرح الذي بداخلي مع كل هذه الأشــياء إلى بيت جديد، ليكون أكثر راحة وأكثر سعة لثلاثتنا، يجب تأجيل موضوع تغيير البيت، على الأقل، أستطيع الانتظار لمدة من الزمن، سأقول لصاحب البيت الجديد: «واجهتني أمور لم تكن بالحســبان، لقد أطلت كثيرا، ليكن بدل الدهان والقصارة عن فترة التأخير.. كما يمكنك رفع أجرة البيت، وهكذا لن تكون قد خســرت شيئا»، نعم أقول ذلك، يجب أن أقول، يجب أن أعيد التفكير بكل شيء، يجب أن أعيد خططي.

جررررر.. يجب أن أداوي الجرح الذي في داخلي.

- لعنة الله عليّ!

أوقعت رزمة الأكواب من بين ذراعي.

- لا بد أنها كُسرت جميعها!

ينهض ستشكين من مكانه، ويهرع نحوي راكضا، يقول: «لا تحزني، سأجلب لكِ أكوابا جديدة»، أعانقه، أدفن رأسي في عنقه الصغير وأنشج، أشعر بلمسات يده الخفيفة على رأسي، أريد أن ألِدَه! أريد أن ألِدَه من جديد!

أصلي إردوغان
ASLI ERDOĞAN
1967

ولدت في إســتانبول، أنهت دراستها في المدرسة الأمريكية في إســتانبول عام 1983، وحصلت عام 1988 على البكالوريوس في هندســة الحاســوب والفيزياء من جامعة البوسفور، حصلت على درجة الماجستير أثناء عملها البحثي في المجلس الأوروبي للأبحاث النووية، ثم أُوفدت إلى ريوديجانيرو لإعداد رســالة الدكتوراه في الفيزياء النووية، لكنها اختارت طريق الأدب بعد أن أمضت عامين في أمريكا الجنوبية حيث أصدرت أولى رواياتها عام 1994.

كتبــت المقــالات والشــعر والقصة في الصحــف والمجلات، وتُرجمت معظم أعمالها إلــى العديد من اللغات، وعُرض عملها «في صمت الحياة» على مسرح بيكولو في إيطاليا.

عملــت كاتبة زاوية في صحيفة «راديكال»، ثم كاتبة زاوية في صحيفة «يوميات الحرية» حتى إغلاقها بتاريخ 24 مارس 2012 بدعوى قيامها بالدعاية لتنظيم سياسي محظور.

عضو في اتحاد الكتّاب العالميين، كما شاركت في لجنة «كتّاب في السجون» التابعة لاتحاد الكتّاب العالميين.

أعمالهـــا في مجال الرواية: الرجل المســـتتر (1994)، مدينة بعباءة قرمزية (1998)، في صمت الحياة (2004).

وفي القصة القصيرة: الموظف المعجزة (1996)، بناء حجري وخلافه (2009).

وفـــي البحث والمقالة: نهاية رحلـــة (2000)، يوميات مجنون (2006)، مرة آخرى (2006).

نالت عام 1990 جائزة يونس نادي للآداب/ المرتبة الثالثة عن أولى قصصها «ملاحظة الوداع الأخير».

ونالت عام 1997 الجائزة الأولى لمسابقة إذاعة صوت ألمانيا عن قصتها «الطيور الخشبية» وتُرجمت إلى تسع لغات عالمية.

أدرجت مجلة «لير» العالمية اسمها ضمن قائمة «خمسين كاتب مســـتقبل» بعد أن لاقت روايتها «مدينة بعباءة قرمزية» (1998) رواجا واسعا وترجمت إلى العديد من اللغات الأوروبية.

ونالت جائزة دار دنيا للنشـــر لأفضـــل كتاب للعام 2005 عن كتابها «في صمت الحياة».

ونالت عام 2010 جائزة ســـعيد فائـــق للقصة القصيرة عن مجموعتها القصصية «بناء حجري وخلافه»، والتي اختيرت منها قصتها ضمن هذه المجموعة القصصية.

الطيور الخشبية

فجأة.. فُتح باب الغرفة، وامتد رأس أشـــقر من فرجة الباب، سُمع صوت ديانا تلهث، وبصبر نافذ:

«هيا يا فليتشيتا! هل سننتظرك اليوم بطوله؟ أنزلي مؤخرتك الكبيرة عن السرير، يبدو أن قلبك قد مات يا بنت، قلبك!».

أُغلق الباب بنفس ســرعة فتحـــه، فبقيت في الخارج، رائحة ممر المستشـــفى العابق بالمطهّر، وصوت ديانا الحاد، الذي رغم أنه تهكمي لكنه عابر.

فلز، إحـــدى مريضات الرئـــة، والتي يدعونها فليتشـــيتا - أي سعادة - من باب السخرية لشدة سوداويتها، كانت منطوية، وسريعة الغضـــب، لاجئة سياســـية، تحمل شـــهادة الدكتوراه فـــي التاريخ، وغرفتها تعـــج بالكتب والمجلدات، لكنها كانـــت في نظر المريضات مثقفة غير ودودة، «آه من فليتشـــيتا»، كانـــت ديانا تقول، «أن أقرأ كتابـــا في علم الأورام الســـرطانية، أحبُّ إليّ من الدردشـــة معها، يُسحب الكلام من فمها بالملقط»، لقد قضت فليتشيتا تلك السوداء الهزيلة، سنتين في سجون بلادها! دون أن ترفع رأسها عن الكتب.

فليتشيتا، لم تستطع إتقان اللغة الألمانية لعشر سنوات، دون لكنة!

نهضت فلز عن السـرير بتثاقل، جعلتها الإصابة بالمرض منذ فتـرة طويلة - ذات الرئة المزدوج والربو المزمن - أن تسـتخدم قوتها بشكل شـحيح، كانت دائمة التألم وتخضع لأهواء نوباتها الجسدية.

كانت ستخرج من مبنى المستشفى، أول مرة بعد ثمانية أشهر، كان اسم فلز كومجو أوغلو في قائمة أسماء المجازات يوم السبت لمدة سـاعتين والخاصة بالمريضات اللواتي في مرحلة النقاهة. ديانا، كانت منذ يوم الاثنين، على علم بهذا الأمر، إذ اسـتطاعت مغافلـة الممرضة المناوبة ليلا، والوصـول إلى ملفات المريضات، في أكبر مغامرة لها في المستشـفى، أعدت لها «مفاجأة كبيرة»، إكسـبرس الأمازون! نالت الحق بمشاركة مرضى الطابق الثالث سـرهم: «ركوب إكسـبرس الأمازون»! في الواقـع، ما كانت فلز تتوقـع ذلـك، أكثر ما كانت تتوقـع، أن يذهبن إلـى قرية (ت)، التجمع السـكاني الوحيد في محيط ثلاثين كيلو مترا، ويشربن عدة أقداح، لعلهن يقابلن شـباب القرية أو رجال المصح المرضى المتعبين مثلهن، أي شيء آخر يستطعن فعله في وسط الغابات؟

عندما همّت فلز بالخروج من الباب، تذكرت فجأة، أمرا سبق أن سـمعته قبل عشـرين عاما، وظل دفينا في أعماق ذاكرتها، فـي بدايات هذا القرن، وفي مصح هيبلي أضا، كانت المريضات المصابات بالسل، يتسـللن في الليل خفية إلى الغابة، ويضاجعن المرضى المصابين بالسل، نساء محكومات بالموت، بوجوه صفراء شاحبة، يسرن بالمنامات البيضاء، وهن يحملن المشاعل بأيديهن.. لم تعتقـد بصحة الحكاية، لكنها وجدتها شـاعرية وتراجيدية،

نسيت الشعر منذ زمن بعيد، واختفى من حياتها، بعد أن تكاثرت مآسيها الشخصية كالنباتات الطفيلية، وجففت جوهر كيانها.

اخرجي من الباب الزجاجي المزدوج! «مستشفى (ت)، خدمة الأمراض الصدرية»، دعي تلك اللوحة البغيضة المتجهمة الرمادية خلفكِ، وامشي سريعا، دون أن تلتفتي يمينا أو يسارا، حتى انتهاء خط الظل الضخم للمبنى، قفي هناك حيث حدود إمبراطورية الشمس واحبسي أنفاسك، ثم سيري ببطء خطوة واحدة، تلك الخطوة الواحدة ستخرجكِ من الظل، دعي شمس الشمال تدفئ ظهرك في لحظة، واقنعي نفسك بأنكِ قادرة على محو كل ماضيكِ من ذاكرتكِ وتركه بعيدا!

دعي الشمس تداعب شعركِ بحنان، وتغمر الغابة بألوان مبهرة وصافية، لتنمحي خطوط العالم، ويتحول الواقع إلى نور خالص.

تذكرت فلز «ناديزدا» الحالمة بطيرانها في السمَاء إذا ما رفعت ذراعيها، ناديزدا البائسة التي في «مبارزة» تشيخوف، كانت تشعر وكأنها إحدى بطلات تشيخوف، ربما كانت، في تلك اللحظة، قادرة على التحول إلى طير، ولكن طيرا من خشب في الغالب، طير مضحك، عاجز، بلا روح، جناحاه لا نفع بالطيران يرتجى منهما، ولكن لإخراج ضجيج ميكانيكي فحسب، امتلأت بحماس مؤلم، تصارعت رغبتها في البكاء والضحك في نفس الوقت، في العيش والموت في آن معا.

«هيا يا فليتشيتا! تجمدتِ في مكانكِ مثل المومياء، سنتأخر».

وصاحب صوت ديانا صوت غيردا الأجش من تأثير التدخين والسل: «سنفوّت إكسبرس الأمازون!».

ســـت نسوة، كن يجتمعن أمام باب الحديقة، «ثلاث أجنبيات، ثلاث ألمانيات، ثلاث مســلولات، ثلاث مصابـــات بالربو». هكذا صنّفتهــن فلز على الفور، «جميع الألمانيات مســلولات، أما نحن اللاتي من العالم الثالث فمصابات بالربو، في حين، كان المفترض هــو العكس تماما». رغم إصابة مارتا وغيردا الألمانيتين بالســل لكنهمــا نجحتا بالاحتفاظ ببنية قوية، وكلتاهما كانتا شــقراوين طويلتــي القامة، (في الواقع غيردا لم تكــن طويلة جدا، كما لم تكن تعتبر شقراء، لكن عينَي فلزغير المعنية بالتفاصيل الدقيقة، جعلتاها تراهما متشابهتين وتمثلان الطبقة العاملة في مجتمعهن الصغير)، كانت فلز تخشى قوتهما البدنية وخشونتهما وقدرتهما على الدفــاع عن نفســيهما، لكنها في نفس الوقــت تغبطهما. أما بياتريس، الألمانية الثالثــة، فكانت نحيلة مثل عود الطوطم، بخدين غائرين، انطوائية ومدمنة مخدرات قديمة، في العشرين مــن عمرها، تلــك الفتاة بقوام المراهقات الذي يشــبه شــجرة جافة، وشــعرها الكســتنائي المقصوص دائمــا على نحو قصير جدا، وعيناها اللتان تنظران دائما بحزن وكأنها تبحث عن شيء فقدته، تســببان الكآبة لفلز. ديانا، ثعلب أحمر، حشرية ولعوب، لا تأبه بشيء، ولا شيء يغضبها، باستثناء دعوتها باليوغسلافية، بدلا من الكرواتية.

أما غراســيلا الأرجنتينية.. فكانت مستبعدة في المصح مثل فلز، بل ربما النزيلة الوحيدة الأكثر استبعادا، كانت امرأة متميزة منذ الولادة وموســرة، وتوصف بالإجماع بصفات مثل «متميزة، وحلوة الشمائل، ومثقفة»، وحتى رؤيتها بين مرضى الصدر كانت مثــالا للعجب، كانــت جذابة وذات قوام رشــيق، وطولها بحدود

مئة وثمانية وخمسين (أي أنها أقصر من فلز)، يتدلّى شعرها بخصلات ناعمة، ولا يعيقها وجودها في المستشفى عن الاهتمام بتنظيم حواجبها مثل «مارلين ديتريش»، ومقدرتها على النظر بعينيها اللوزيتين بنظرات دافئة وباردة بآن واحد معا أكسبها لقب «إيفيتا»، كانت الأثيرة لدى الأطباء والممرضات، ويعاملونها وكأنها تحفة فنية نادرة قابلة للكسر، في الواقع، كانت تعطي انطباعا حولها، بوجوب التعامل معها برقة واهتمام، في حين إن فلز أبصرت صرامة في تقاطيع وجهها المثالية التي تشبه تحفة فنية لامرأة من البورسلان، كانت لها ابتسامة تخيف المرء، تستحضر في ذهن فلز سيدة جذابة تضع دائما وشاحا حول عنقها كمعلمة في المدارس الابتدائية لحظة دخولها الفصل كجلاد من الدرجة الأولى.

عندما رأتها أول مرة، ظنت أنها ضيفة دخلت بطريق الخطأ إلى مقصف المرضى، كانت غراسيلا تجلس إلى طاولة مفردة بجانب الواجهة الزجاجية، ترتدي تنورة ضيقة سوداء مخملية، وقميصا بأزرار لافتة للنظر، ومفتوحا حتى خط صدرها، قلادة على شكل قلب كانت تلمع بين ثدييها الفاتنين، كان يكمل هندامها، حذاء تانجو بكعب عال وإبزيم، وجراب من النايلون، وتبدو بشكل استثنائي كزهرة إستوائية لا تصادف مثيلاتها إلا نادرا، بين مريضات بشعر دهني، يتجولن بملابس وأحذية رياضية.

عودا لذات يوم، دخلت فيه غرفتها على عجل، محررة الإشاعات في جريدة المستشفى ديانا، وكشفت لها سرا:

«هل تعلمين أن تلك الأرجنتينية.. إيفيتا، مثلك تماما؟».

«ماذا تقصدين بمثلك تماما؟».

«أقصد لاجئة سياسية، لكلتيكما نفس حكاية السجن والتعذيب، حالة رئتيها بمنتهى السوء، يقال إن زوجها القديم دبلوماسي، وكلاهما ثريّان جدا، وينحدران من عائلتين عريقتين، كما أن لديهما أصدقاء متنفذين، بيد أنه أغضب مسؤولا متنفذا، فصدر بحقه أمر اعتقال، فُقد أثره في غضون ساعتين، تاركا زوجته وحدها، قاموا بالتحقيق مع غراسيلا طوال شهرين، لكنهم لم يستطيعوا إرغامها على الكشف عن مكان زوجها، ربما لا تعلم، هل يمكن أن تصدقي ما جرى لهذه المرأة الرقيقة؟ يجب ألا يُخدع المرء بالمظهر الخارجي!».

تلك كانت صدمة صاعقة بالنسبة لفلز، تمّت السخرية بأعمق معاناتها، وكأن فلز أهينت بشخصيتها وتاريخها، خلقت بذاتها ومن نفسها بطلا ميثولوجيا وبالكاد استطاعت الاستمرار بالعيش من خلال الإيمان بهذا البطل، ذكرى ماضيها المرعب، كان ضروريا لإثبات وجودها وقد خبأته في زاوية قدسية من روحها، في حين تلك المرأة المتأنقة، بصقت في وجه الأيقونات، بأي حق تستطيع مشاركة نفس المآسي مع فلز القوية الجسورة، صاحبة المبدأ، والتي دفعت ثمن مبادئها (هكذا كانت تعرّف نفسها)؟ كما أن ذلك باسم الحب لرجل متكرش، تافه وبعشيقتين!

كانت قافلة النسوة المريضات، مثل أفعى بنية اللون، شهباء، رمادية تتلوى، تمشي على طريق إسفلتي ضيق باتجاه وادي (ت)، طليعة المجموعة المؤلفة من ديانا والألمانيتين الضخمتين أمضين الوقت بالثرثرة، كن يتبادلن لغو عطلة السبت ويتنقلن من حديث لآخر بمواضيع لا تعني فلز أبدا، خصوصيات الأطباء - يتندرن بغيرة الطبيبات وتقربهن من الأطباء الوسيمين - طعام الكافيتيريا،

وتقززهن من قهوتها، برامج التلفزيون، مقارنة بين الممثلين بانديراس وبيت الخ.. وفي حين كانت الألمانيتان إلى جانب بانديراس، كانت ديانا المعجبة بالعرق الألماني، إلى جانب بيت، بعض من ذكريات الفترة ما قبل دخول المستشفى.. وُجدت في المصنع حيث كانت تعمل مارتا قبل أربع سنوات، إحدى العاملات مذبوحة في عنقها وهي عارية تماما، أما غيردا فقد أخرجت قصة من جعبتها المليئة بقصص الجرائم والتي تحتفظ بها في مجمّدة عميقة وسخّنتها، لكن ديانا التي تعيش عائلتها في البوسنة، لم تتطرق إلى الفظائع، واختبأت خلف صمت يكبر باستمرار ككرة ثلجية.

بياتريس، التي لم تتمكن ولا بأي شكل من تحديد انتمائها، كانت تمشي وحيدة، كانت وحيدة مع عالمها الخاص، كانت تسعى لنهل ساعتين من الحرية في عصر سبتمبر غير الاعتيادي، في وادي بخضرة الزمرد يمتد أمامها، دون إضاعة ثانية واحدة، كانت تبدو سعيدة، مع أن تعابير الحزن التي تملأ هذا الوجه الفتي المحطم أشد تأثيرا.

تجاورت فلز وغراسيلا، فحاولت عبثا إيجاد موضوع للحديث، الصمت الذي ساد بينهما كان طويلا وشائكا.

«في الحقيقة، رؤيتك في إكسبرس الأمازون مفاجئ جدا».

«لماذا؟» سألت غراسيلا بحدّة، كان في عينيها وهج صارم يلمع، كان ذلك انعكاسا لغضب مختزن مثل درة نفيسة لسنوات، «لم يقلن لكِ إلى أين نحن ذاهبات، أليس كذلك؟».

«كلا، وكأنه سر عظيم جدا يحتفظن به».

«في الحقيقة، إكسبرس الأمازون سر عظيم جدا، (بنغمة صوت تهكمي ونفاق عميق، مصحوب بابتسامة كندبة) حتى أنت ستذهلين».

«ربما سنذهب إلى القرية».

وضعت غراسيلا إصبعها ذا الظفر الطويل المطلي بطلاء كحمرة الكرز على فمها، «شيششت!»، قالت، كالممرضة التي على لافتة «اصمتوا!» في المستشفى.

ما عاد لدى فلز لا الرغبة ولا الجسارة باستئناف الكلام، ركّزت على الاستمتاع بالرحلة، بعد ثمانية أشهر، هن الآن خارج المستشفى، يتمشّين في غابة كالأساطير، ساكنة كالماء، تستنشق هواء عليلا منعشا، كانت تملأ رئتيها المتعبتين بهواء يعالج كل أوساخ الماضي، شمس سخية ورقيقة، خضار ممتد حتى الأفق إلى ما لا نهاية وبلا حدود، واشتياقها إلى سعادة هنية، بسيطة، ورائعة.. قبل أن تظهر أمامها أبواب مغلقة.. أبواب مهاجع بقضبان حديدية، كُتب فوقها أرقام الغرف، أبواب المستشفى العازلة للصوت بمفصلات مشحمة.. لن يستطيع الإنسان السليم الإدراك أبدا، ما تعطيه قدرته على تحريك ساقيه بحرية وقدرته على حمل جسمه، من سعادة لا حدود لها، شعرت فلز أن للغابة رائحة خاصة بها وفريدة من نوعها، ليست كرائحة نجيل حديقة المستشفى المقصوص حديثا، فهذه الرائحة ليست مألوفة ويانعة، بل كانت برية ووحشية، وتسبّب الدوار. ربما أصاب ذلك السكون غير الاعتيادي رأس فلز بالدوار، وقد امتد وادي (ت) أمامها، كسجادة خضراء منسوجة بكثافة، وكأن التلال من فوقه تتغامز، أشعة الخريف المتغلغلة في الوادي، الشمس والظل، اشتبكا في حرب سرمدية للاستيلاء على الأراضي، كانت تميّز صليب كنيسة القرية اللامع كالذهب بعيدا، «كل شيء لامع ومبهج إلى درجة يبعث على الحزن» هكذا فكرت.

اقتربت بياتريس بكفيها الممتلئتين بالفراولة البرية، من

مجموعة النســوة ذوات الشعر الأســود، يبدو أنها تجاوزت أزمة الهوية، وقررت أن مكانها بين «الأجنبيات»، تلك المحكومتان سابقا تجمعهما رابطة مأساوية، التقطتا بياتريس، مثل شبكة عنكبوت ســام تبلع فريستها، علّمها الهيروين الوحدة، واليأس، والانهزام، ورغم أنها أكثرهن شبابا، لكنها كانت الأشد صلة بالموت، حملت الموت في جســدها شبه الطفولي، الأخريات كن ومازلن يناضلن للتشــبث بالحياة وأن يكنَّ جزءا منها، أما هـــي، ومنذ كانت في السادسة عشــرة من عمرها، فقد تنكرت للحياة، تلقت ضربات مميتة الواحدة تلو الأخرى، هيروويين، دعارة، يرقان، سل.. ولكن في كل مرة، تنهض على قدميها كملاكم، عند العد التاسع، وقبيل رنين جرس الضربة القاضية، تنتصب وتتابع تلقّي الضربات.

«هل ترغبن بالفراولة البرية؟» (كلا، كلتاهما لا ترغبان).

«عُرض ليلة أمس، على التلفزيون برنامج حول الأرجنتين، هل تابعتماه؟» (كلا، كلتاهما لم تتابعاه).

«عرض بوينوس آيروس، مدينة رائعة، كم هي حزينة! تشــبه قطعــة من برلين، فن العمارة، المقاهي.. يوجد حي مليء بمنازل ملونة كقوس قزح: إل بكار..».

«إل بوكا»، صححت غراسيلا، «يعني فم، مكان ولادة التانجو».

«أجــل، أجــل، إل بــوكا، حــي البوهيميــين، والرســامين، والموسيقيين».

«لكن، ما عاد النشالون وبائعو التحف التذكارية يقصدونه».

«أتجيدين التانجو؟» اندفعت فلز قائلة.

«كلا، أنا لســت من بوينوس آيروس، أنا من مندوزا» (مع أنني كنت واثقة أن هذه المرأة من بوينوس آيروس وتجيد التانجو).

«مندوزا؟».

«على حدود تشيلي، مدينة عند سفح أكونكاغوا».

«أكونكاغوا، أعلى جبل في أمريكا الجنوبية!» (ذلك الشعب الألماني مثقف جدا حتى مدمنو الهيرويين منه!).

صمت، توقف الحديث المتكلف فجأة، وكأنه قُطع بسكين، كأنه لا يوجد شيء مطلقا ليقال بين النسوة الثلاث، «انظرن، انظرن، انظرن إلى الوهق الذي على ذلك الغصن الواطئ!» لم تستطع بياتريس كبت الانفعال الذي بان على صوتها، نظرت المرأتان اللتان في منتصف العمر بدهشة إلى قطعة الحبل التي لا ميزة خاصة لها «لا بد أن قزما انتحر هنا» تابعت بياتريس قائلة، بتأثير خيال تسمم من جراء الهيرويين وعمرها العشريني، لكنها سرعان ما احمرّت بعدما أدركت أن رفيقات رحلتها قصيرات جدا، على أية حال، لا أحد أعطى للأمر أهمية.

انفصلت قافلة النسوة غربا عن الطريق المؤدية إلى الوادي، ومع انحرافهن نحو القمم الشاهقة المغطاة بالغابات، شعرت فلز بالارتياب، هذا يعني، أنهن لن يذهبن إلى قرية (ت)، ربما اخترن ركنا سريا، كما يدعوه الأطفال أو السجناء بجنة عطلة السبت، لكن، لو كان كذلك لما استدعى الأمر النظر إلى الساعة طوال الوقت وحث الخطى، هل كن يقصدن بـ «إكسبرس الأمازون!» الغابات المطيرة، أم محاربات الأمازون الأسطوريات، المتمرسات في الصيد والقتال، واللاتي قطعن الرجال من حياتهن، كقطعهن لأثدائهن اليمنى؟

ما عدن يمشين في طريق مشمس معبد وعريض، كنّ يتقدمن داخل الأدغال، الواحدة خلف الأخرى، في مسار ضيق بين جذور

الأشـــجار، ومغطى بأعشاب لا تكاد تسمح بالمرور، حتى الشمس تغطّـت بالخضار، بدأت رحلـة الغابة الحقيقيــة.. رحلة مليئة بأزهار الخريف، وفطر خجول مختبئ في مناح خفية، وفراشات بنيــة اللون تتطاير بين الأغصان، وخنشـــار كثيف، وشـــجيرات الخلنج، وأشـــواك بدت محذرة برفق في بدايـة الأمر، الرحّالة الغرباء، ثم تحوّلت إلى عدائية مع تقدمهن، لآلئ مطر ترشح من أوراق الأشجار، وطحالب رطبة ملتصقة بجذوع الأشجار، وألوان تخطف ضوء النهار.. مياه جارية، بمثابة شـــرايين حياة الغابات، تقطع الطريق باســـتمرار.. مســـارات تغوي ولا تعطي سرها إلى أين تذهب..

عاشت فلز في المدن الكبيرة دائما، وما كانت تعرف الغابات، في الواقع، دخلت منذ ثمانية أشهر مصحّا للأمراض الصدرية في قلب الغابة الســـوداء، لكن هنا أيضا، غابة تحافظ على وعورتها، وغموضهـــا المليء بالأســـرار. كانت في عتمة الليـــل، تخيّم أمام نافذتها كطير أسود، بعصف يصاحب كوابيسها، كحارس مهول، أصـــم وأخرس، يمنع خروجها وعودتها إلى حياتها الطبيعية، في حين، هي الآن داخل الغابة، وبينما تدخل قلب الغابة، كانت تراها واقعا أول مرة، كان أســـمى ما فـــي هذا التعارف: لقاء مخلوقين وجها لوجه فجأة، ولا يعلم أحدهما بوجود الآخر، لذلك كان وقعه مذهلا لفلز، كان أمامها روح بســـيطة وبدائية، مهيبة وواســـعة كالمحيط، أخرجها من قوقعة عالمها القاحل المغبر، وجعلها تستمع للحـــن وجود مختلف جدا، كان للغابة إيقاع ينبض بألوان متعددة ووحشـــية، محفوفة بظلال غريبة متباينة تسبب قشعريرة ذعر، أســـرارها مغطاة بطبقة كالتول من هواء ضبابي نابض، أشجار،

أشجار، أشجار.. أشجار معمّرة، ومهيبة، ووقورة، عالية، وكثيفة، وشامخة.. كانت عابسة بجدية من واجه كل الآثام والمعجزات التي على سطح الأرض، أكثر قدما من الزمان.. ضربت جذورها في الأعماق، واندفعت في مسيرتها لا تستهدف سوى السماء، منتشرة يمينا ويسارا، لا قيود على حريتها.

عند تباطئهن في المسير على منحدر حاد، جذبت ديانا فلز جانبا:

«أعلم أن الوقت غير مناسب الآن» توقفت عن الكلام بضع ثوان، محاولة استرداد أنفاسها، «يجب أن نلتقي في المساء، لقد كتبتُ رسالة إلى هانس».

«ما كتبتُه آخر مرة.. هل أرسلت الرسالة التي كتبناها سويا؟».

ما إن شرعت بالكلام، حتى أدركت فلز كم هي لاهثة وعطشى، لقد جف فمها إلى حد أنها تشعر بصعوبة تحريك لسانها الذي التصق بسقف حلقها، «بالتأكيد، في ذات اليوم، حتى الآن لم أتلقَ ردا، أظن أن تسعة أيام قد مضت، تأخّر في البريد، كما أن هانس، بارد الطبع».

«تعتقدين أنه سيكتب جوابا، أليس كذلك؟».

برقت عينا ديانا ذات اللون العنبري، تغطى وجهها بسحابات ماطرة، «لا أعتقد، أتوقع».

منذ ما يقرب من شهرين، وأثناء عودتها من غرفة الطبيب، رأت ديانا في إحدى كبائن الهاتف في الدور الأرضي، كانت تمسك الهاتف بكلتا يديها وهي تبكي بلا توقف، ظنّت في بداية الأمر، أنها قد تلقت خبرا آخر مروعا من يوغسلافيا -كانت قد أُخبرت بوفاة أختها في البوسنة في إحدى هذه الكبائن من صوت

مخنوق على الطرف الآخر من خط متقطع مرارا وتكرارا- على أيــة حال، هذه المرة، الأمر كان مختلفــا، حبيبها الأخير، هانس الوســيم وطويل القامة، أصابه الضجر من هذه المرأة المســلولة التي تحولت إلى خراب، يصاحب الصفير أنفاسها، وتوذّم أسفل عينيها، ومن كثرة زياراته لهذه المستشــفى الكئيبة، لقد كتبتا معا خمس رســائل لهانس، لكن قلم فلز المثير للعواطف والمشاعر، لم يجدِ نفعا، ولم يصل منه أي رد.

«لو كنتُ مكانكِ لمحوته من عقلي ونسيته تماما».

كانــت فلز على إدراك أن تصرفها جــارح وقاس، لكنها كانت مرهقــة جدا، غرقت بالعــرق، وأصابها عطش شــديد، وكانت ساقاها ترتعشان من شدة الإنهاك، لقد خارت قواها إلى حد ما عادت قادرة على الانشغال بمشكلات ديانا.

«كم أنت متحجرة القلب!».

«بالتأكيد، يوجد في قلبي عدد من الحجارة، لا بأس، لنحاول أن نثير غيرته».

«أفي وســط الغابة؟ ربما لو تمطر الأشــجار رجالا بدلا من أكواز الصنوبر!».

«يمكننــا التلميح لبدايــات علاقة عاطفية بينــكِ وبين أحد الأطباء، لنختار أحدا بعكس صفات هانس تماما، (أصابع جراح طويلة ورفيعة)، (نزهات في الغابة في الليالي المقمرة) إلخ..».

تبسّمت ديانا، واستعادت مرحها في لحظة، في الواقع، كانت لها ابتســامة لا مثيل لها، تعدّل كل وجهها غير المتناســق، كانت واقعيــة وودودة وصريحة لتدخل إلى قلوب الناس. افترضت فلز أنها لم تجد إفادة أخرى أكثر تعبيرا عن الشعور بالسعادة.

«أريد استعادته».. بدأت ظلال معتمة تغطي وجهها ثانية.

كان في صوتها رعشة واستغاثة غامضة، كأن عدالة إلهية ستعيد لها هانس، إذا ما أكّدت صدق نيتها تجاهه، كانت ملامح البهجة والسكينة المختبئة خلف الظلال المعتمة، لا تبدو واضحة إلا في مثل تلك اللحظات، كانت ديانا تخبئ شخصيتها الحقيقية، في دهاليز سرية جدا، كوحش يجب ألا يرى نور النهار.

«أنا واثقة من عودته»، قالت فلز بتكلف، وقد شعرت بالكآبة، كان الكذب والحديث عن الرجال من أشد ما تكره، ما كانت تثق بالحب: في زمان مضى، وقبل ثلاثة وثلاثين يوما أمضتها في زنزانة مليئة بالدم والعويل، ما عادت تذكر إن كانت تثق أو لا تثق.

«ديانا! ديانا!».

«نعم، ماذا حصل؟».

«لقد تأخرنا كثيرا! لن نصل بهذه السرعة، لنأخذ مسارا على نحو قطعي».

«انتظري دقيقة، سآتي عندك، لنرَ ما علينا فعله».

ركضت نحو الألمانيتين بخطى مترنحة، شعرت فلز على حين غرة، بعينَي غراسيلا مسلّطة نحوها بتوهج، فاستدارت نحوها، نظرات حزينة، فضولية وعميقة تلاقت، تشكّلت بينهما على نحو آني صلة عفوية لا يمكن التعبير عنها بالكلمات.

«إذا ما أردت قدرا يسيرا من السعادة في هذا العالم، فعليك أن تتحولي إلى فتاة صبية تتنطط هنا وهناك».

كان وجه غراسيلا خاليا تماما من التعبير، هل كانت تفهم؟ بلا ريب.

«هل سبق أن استمعت إلى باولينيو البرازيلية؟».

«كلا، في الواقع، لا أكاد أعرف شيئا عن موسيقى أمريكا الجنوبية».

على نحو مفاجئ، شرعت غراسيلا بالغناء، كان أمرا أشبه بالمعجزة، غير متوقع، مذهلا، ومثيرا، ورائعا.. «الحياة جميلة..» (Vida e bonita ...).

لحن رائع حزين وناعم يؤثر في صميم الإنسان، يبعث على الشجن والبهجة في آن معا، موسيقى تكوّن رابطة عاطفية ما بين الموت والحياة، كانت فلز تحبس الدمع في عينيها المغرورقتين، كي لا تُظهر بكاءها، ما كانت لتبكي أمام الآخرين، حتى لو صوبوا السلاح إلى رأسها، كما أنها ما كانت لتغني أيضا.

«هذا معنى كلمات الأغنية: الحياة جميلة، جميلة، جميلة.. مليئة بالشجن والبهجة، رغم ذلك فهي جميلة.. لا تخجل، لا تخجل من السعي أن تكون سعيدا..»، «باولينيو»، وُلدت في الشارع، تشرّدت في البؤس، وماتت في الثالثة والثلاثين من السل، سبب رواية كل ذلك، منعا للاستخفاف بالأغنية».

«إذا ما قال أحد ما، وهو في قاع الهاوية، إن الحياة جميلة، لا بد من التوقف والإصغاء، لكن، كي يستطيع المرء فهم هذه الموسيقى بكل عمق، لا بد من أن يعيش معاناة من نوع مختلف».

دخلت ديانا بينهما، «اسمعي فليتشيتا، نحن مجبرات على الانعطاف بمسار قطعي، لم يبقَ لنا سوى القليل من الوقت، هل أنتِ قادرة على تحمّل طريق جبلي من النوع الذي يقتل حصانا، كما يحتاج على الأكثر إلى عشرين دقيقة؟ ما حالة الكيرَين؟».

«لم يبدأ أحد بالشكوى بعد، لكنني لا أفهم، إلى أين تأخرنا؟».

«في الواقع، هذا هو جوهر المهمة، ألا تعرفي أين نذهب حتى

تصلـــي، أنت مجبرة على اتخاذ قرار، وفي هذه اللحظة بالذات، إما المواصلة وإما العودة، لأننا لا نستطيع تركِكِ في وسط الجبل، تدركين جيدا أننا غير قادرات على حملكِ على ظهورنا».

«أنا آتية، أنا لا أتراجع من منتصف الطريق».

«هيا يا بنات، فليتشـــيتا معنا أيضا! طابور النساء! إلى الأمام سر!».

ارتقـــع من الجهات الأربع صـــراخ، ودعابات وتوجيهات، «هيا إكسبرس الأمازون! نحن قادمات.. انطلاق (Aventa).. الموت ولا العودة!»..

«يا إلهي! ما هذه الهيســـتيريا، ما هذه الحماقة؟»، فكرت فلز بذلك، «الآن نبدأ لعبة العســـاكر، قافلة نســـاء مسلولات نصف مجنونات، لا ينقصنا ســـوى الأجراس! تلك اللواتي يتنفسن بعناء في هذا العالم عديم الرحمة»..

انطلقت قافلة النســـوة على طريـــق الجبل، يروّعن ما حولهن بصياحهـــن وصراخهـــن، فـــر ســـكان الغابة، وســـكنت الطيور، وانســـحبت الطبيعـــة بهـــدوء جانبا، مفســـحة الطريـــق لهؤلاء الحيوانات المســـتهترات والصاخبات، والخرقـــاوات، كانت ديانا تعرف الطريق جيدا، فتقدمت المســـيرة ســـريعا مثـــل قاصِّ أثر هندي أحمر، تستكشـــف الاتجـــاه، وتوضّح المســـار، كان يمكن متابعتهـــا من بين المناكب العريضة لمارتا وغيردا اللتين تســـيران خلفها مباشـــرة، مناكب قوية، لا تستســـلم، ولا تثق إلا بنفسها.. تشـــقان الجبال بخطوات ثقيلة لكن ثابتة، تكسران ما يعترضهما من الأغصان والشـــجيرات، وتفتحان الطريق مثل طليعة وحدات مدرعة، وتمطران اللواتي في الخلف بالتوجيهات. بياتريس، كانت

تتسلق مثل قطة برية نجحت بالفرار من القفص، كانت هادئة وخفيفة الحركة كماعز جبل، بساقيها الرشيقتين الطويلتين وحذائها الجبلي، وقبل كل شيء، بفضل فُتوّتها، حتى إنها كانت تقف مرارا وتمد يد المساعدة لصديقاتها ذوات الشعر الأسود المتعثرات.

فلز، أمضت رحلة الغابة ذات الخمس والعشرين دقيقة، وقد تخضّلت بالعرق، تحاول الإمساك بالشجيرات الشوكية والجذور، وتبحث بذعر عن موطأ لقدمها على أرض صلبة، حتى كادت تفقد وعيها من الهلع والارتباك، كانت تتعثّر بالجذور، فتنزلق وتقع على أوراق الشجر الإبرية مرارا وتكرارا، تفلت الشجيرات الشوكية من يدها فتترك أثرا ورديا، وتمطرها بصفعات عنيفة، تراخت عضلاتها من كثرة الاستخدام، وبدأت ترتعش مثل الشوكة الرنانة، كما لو كان على ساقيها كيسا ماء متقرحان، تنتابها قشعريرة تصك أسنانها بفعل العرق الذي يسيل على ظهرها كثعابين باردة، كانت مخضّلة حتى ملابسها الداخلية، لذا، ما كانت قادرة على طرد هاجس أن تعرّق أي مريض بالرئة بهذا الشكل، أمر قاتل، وبخاصة في أول يوم إذن له بالخروج. علاوة على ذلك، بدأت بسماع ذلك الصفير المخيف من رئتيها والذي يُطلق عليه «صفارة المناوبة» بلغة نزلاء المستشفى، كانت تلعن نفسها، لأن مشاركتها بهذه المغامرة، ألقت بصحتها إلى التهلكة، والتي اكتسبتها بجهد مضن، كانت على وشك البكاء من الإعياء والندم والقنوط، ما كانت تتذكّر ربها إلا حين وقوعها في ورطة شديدة، فتلجأ إليه وتتضرع بإخلاص، وتسلسل الأذعية.

مثل كل الأشـــياء المخيفة، ومثل الآلام الجسـدية أو السجن، وصلـت هذه الرحلة إلى نهايتهـا، فرفعت فلز عينيها عن دربها، لتسـتطيع تمييز موضعها، كان خوفها وصحتها ومسـألة الحياة أو الموت في كل خطوة، يسـيطر عليها طـوال الدقائق الخمس والعشـرين المحفوفة بالرعـب، فلم تعر انتباها لما كان حولها. أما الآن، فترى وصولهن إلى مكان رائع، بعينين ترمشـان بحرقة بسبب الغبار، ولهاث، وقلب منقبض.

كنَّ في أجمة على قمة جرف سحيق تطوّقهن شجيرات شوكية بطول الإنسـان، وجذوع أشجار كشبكة صيد سمك ضخمة، في القاع أسفل أربعون إلى خمسون مترا، ويجري نهر غاضب يرغي ويزيد بعنف، ويضرب هـادرا الصخور بلا هوادة، ليحفر ثلمات فيها. درب مزين بأزهار بنفسجية تشبه قرنفلات ضخمة، ونهر يرسـم قوسا حادا قبل اختفائه بين امتداد سلسلة صخرية تبدو كمقطع قرن نُقش كزخرف ناعم.

«طريق الأحلام البنفسجية»، هكذا فكرت فلز.

«من هنا سـننزل إلى الأسـفل يا فليتشـيتا، يجب أن تكوني بمنتهى الحذر».

نظـرت فلز بذهول إلـى صديقات الطريـق، بدَين جميعهن منهـكات القوى، وجوههن اصطبغت بلـون أرجواني، مخضلات بالعـرق وملطخـات بالوحـل، ومليئـات بالخدوش، شـعرهن، وقمصانهـن التي خرجت من بناطيلهن كانـت مخضلة؛ حلمات أثدائهن بدت واضحة، جميعهن وقعـن مرارا وتكرارا، وجُرحت أنحاء مختلفة من أجسـامـهن، ما مشكـلة هؤلاء النسـوة؟ لِمَ كل هذا العناء، والمجازفة، والجروح؟

«انظرن، طفح معي الكيــل! ألم يكفِنا كل ركض المجانين هذا داخل الغابة، حتى ننزل إلى أسفل الجرف! ما الذي يحصل؟».

«لا تفسدي بهجتنا»، قالت ديانا باستهجان، «لقد قطعتِ وعدا وستتابعين حتى النهاية».

«أنا، لم أقطع لا وعدا ولا أي شيء».

«دعيها تفعل ما تشاء» تلك كانت مارتا، كلا، بل غيردا.

«رجاء فلز، تماسكي قليلا أيضا، صدقيني، تستحق المجازفة»، تلك كانت غراسيلا.

«هيــا يا فلز رجاء!»، أمســكت بياتريس بذراعها، وســحبتها بلطف.

«هيا يا بنات! الســاعة الثالثة وثلاث وعشــرون دقيقة! بقي سبع دقائق!».

نســيت الجماعة فلز، في لحظة، وبنقرة إصبع، بدأن الحركة مثل كوز صنوبر يتدحرج من كتف الجبل إلى أسفل، كانت النساء تهبطن نحو النهر، مســتعينات بآخر قطرة من قوَّتهن، يمســكن بالأغصان، بالحجــارة، وبكل ما تصله أياديهــن، ينزلقن معظم الوقت على مؤخراتهن، ويســاند بعضهن بعضا بمسك الأيادي، خطوة خاطئة واحدة تعني التهشم في قاع الهاوية. أصبحت فلز على الفور، إحدى حلقات السلسلة، من دون أي تفكير، وحتى من دون اتخاذ قرار.

أذعنــت لرأي الغالبية، وانضمــت لركب رحلة الحد فيها بين الحياة والموت باترٌ، الخطر حفّزها، ووتّر كل أحاسيســها، كانت مليئة بمشاعر إثارة كرغبة جنسية، وكيف لا؟ وقد كانت في تلك اللحظة تتعلــق بالحياة حتى الأعماق، وتشــعر بجذالة وجودها

حتى النخاع، ما كانت تقبض عليه بين كفيها ليس حجرا أو شجيرة، بل كان القلب الكبير الجريح للغابة والعالم والحياة، اعترضت طريقها شجرة مائلة بوضع مواز للنهر، نجحت بالنمو على هذا الجرف العمودي، بفضل جذورها الأخطبوطية التي اخترقت الصخور الصلدة، بإصرار وعناد ومثابرة، كان ظلّها يخيم على الهاوية، مدّت إحداهن أحد ذراعيها المنهكين إلى فلز، وفي لحظة قصيرة جدا، تشابكت الأيدي قبيل متابعة رحلتهن وحياتهن العابرة على امتداد لحظة قصيرة.

بعد نزول أشبه بعبور جهنم من طرفها إلى طرفها الآخر، وصلن إلى عالم مختلف جدا، أشجار ودودة، وأزهار أحلام مسحت من العين كل آثار الحياة، لا شيء هنا سوى الصخور، صخور مرعبة وباردة.. كانت أضخم بكثير مما بدت عليه من أعلى، امتدّت إلى السماء كخناجر سوداء لامعة، وهدير النهر المخيف، الغاضبَ بلا سبب أو هدف.. تراءى لفلز أن مجموعة من الدمى قد انطلقت نوابضها، واختارت هذا المكان ليكون خشبة مسرح من أجل دور غير معروف.

جلست ديانا على صخرة بعرض سرير مزدوج، أمام نظر فلز المحملقة عينيها من الدهشة، اتخذت وضعية خاصة بالمجلات المثيرة الرخيصة، وقد ثنت ركبتيها قليلا، وباعدت بين ساقيها كحرف (V)، ووضعت يديها على عجانها، أبدت أيضا على وجهها تعبير الاستمتاع بما قبل النشوة الجنسية، أما مارتا، فقد تمددّت بشكل استعراضي متوجهة نحو النهر، وضمّت إحدى ركبتيها نحو بطنها، وأمالت رأسها إلى الخلف وقد ضمّت يديها على مؤخرة عنقها، بدا على وجهها أيضا نفس

تعبير الابتذال لامرأة عاهرة تبيع الهوى. غيردا كانت في وضعية السـجود تعرض مؤخرتها رائعة الجمـال. بياتريس كانت واقفة على قدميها، وقد أسندت إحدى قدميها على الصخور، منحنية إلى الأمام ودلّت ذراعيها إلى الأسفل، وضعت خدها على ركبتها كأنها تتكئُ على كتف رجل محب وشـهواني، كانت تنظر إلى الماء بعينـين زرقاوين حالمتين.. أمام هذا المشـهد الذي يدفع العقول إلى الجمود، بحثت فلز عن غراسيلا، كأمل أخير، لكن هي أيضا شاركت باللعبة منذ فترة طويلة، كانت تقف وحدها نصف عارية بـلا حراك، كتمثال إلهة فوق صخرة على شـكل شـراع، خلعت قميصها وألقته جانبا، يدها اليمنى مسـتندة على خصرها وقد رفعت ثدييهـا إلى الأعلى، بدت لفلز فـي وقفتها تلك، فطرية، بريئة، ورقيقـة كحمامة، آثار حروق تحاول الاختباء خلف قلادة فضية بين حلمتين بلون ثمر العليق، عيناها تحدقان في نقطة في السماء، أصابع يدها اليسرى الرقيقة تطوف فوق شفتيها نصف المنفرجتين وقد تورمتا من العطش، لا تتكلم، وكأنها لا تسـتطيع التعبير بشـتى السـبل عن رغبتها الحبيسة القاسية والمؤلمة، كل جسدها اسـتدقّ وامتد كسهم مسـدد نحو السماء، كان جاهزا للانطلاق والطيران لضرب الهدف، وجدت فلز نفسـها في حلم لا يقبله العقل ولا يمكنها الاستيقاظ منه ولا بأي شكل، لكن حتى الأحلام قد تحمل معنى ومنطقا أشد عمقا مما تراه.

«هيا يافليتشـيتا، هيا خذي وضعية استعراضية، جدي شيئا مسليا».

فلز ظلّت واقفة بصلابة كأبي الهول، فقدت المقدرة على فهم أي شـيء، دقت الساعة الدقيقة لغيردا معلنة الثالثة والنصـف،

لـــم يصدر، في بداية الأمر، أية حركـــة، خلال دقيقة مضت في الضباب الكثيف، حبســـت النســـوة أنفاســـهن وهن ينتظرن في وضعيتهن الاستعراضية المضحكة، الخرقاء والغريبة، أخيرا، ظهر كنو[6] من بين الصخور، يقلّ أربعة شباب، يبدو من الشعارات التي على ســـتر النجاة التي يرتدونهـــا، أنهم من فريق تجديف جامعة (ه) والتي تبعد ســـبعين كيلومترا، رياضيون أشداء بصحة جيدة، يقبضـــون على المجاديف بكل قوة، كانوا يبذلون جهدا فوق طاقة البشـــر كي يعبروا هذا النهر من ممره الضيق والأشـــد خطورة، حتى لا يتهشـــموا علـــى صخوره الحادة، رأوا النســـوة في نفس المكان حيث يرونهم كل سبت.

«أيـــا جنيات الغابة! ها أنـــتن هنا ثانية؟ ســـنعرّج اليوم على قريتكن!».

«يا بنات، تكشّفن أكثر يا بنات!».

«سنركن الكنو ونأتي، لا تغادرن المكان، ابقين حيث أنتن!».

«يا ذات الشـــعر الأشـــقر، إن لم تخلعي بنطالـــك فلن يكتمل المشهد!».

لم تجب النســـاء، ولم يصدر عنهن أي صوت، بقين متصلبات وساكنات، وصامتات كالدمى.

صفير، وضحك، ودعابات من تحت الحزام من دون خروج عن حـــدود اللياقة.. تعليقات جريئة حـــول نحافة بياتريس، وانفراج ساقي ديانا بطريقة غير مؤدبة، ومؤخرة غيردا، وثديي غراسيلا العاريين.. أما فليتشـــيتا فقد بقيت واقفـــة متجمدة في مكانها بلا حراك من الدهشـــة، دون أن تبعد عينيها عن ثديي غراسيلا

(6) زورق طويل ضيق يقاد بمجداف أو أكثر (المترجم).

المعروضين على الملأ وندب الجروح، وقد توقف تفكيرها وذاكرتها وأحاسيسـها، وأخيرا، وبينما كان الكنو على وشك الاختفاء عن النظر والابتعاد، ارتفع ذراعا فلز في الهواء ببطء، كطير خشـبي نسـي الطيران، بسـط جناحيه جاهدا، لكنه سرعان ما تراخى من الوهن وانغلق على نفسـه، كجناحين مكسـورين تكوما فوق بعضيهما وسـكنا بلا حراك، ومن خلال هديـر النهر والصياح المبتعد شـيئا فشيئا، سُـمع بصعوبة صوت غراسيلا القادم من عالم آخر «الحياة جميلة..» (Vida e bonita ...).

قطرتـا دمـع فاترتان، انبثقتا فـي عيني فلز، وسـالتا على وجنتيهـا فخلفتا أثرا كنهر أصفر، وموحـل. الكنو، اختفى منذ وقت طويل، والنساء، بَقين وحيدات في قلب الغابة.

فريال تلْماتش
FERYAL TİLMAÇ
1969

ولدت في أضنا، بعد أن أنهت دراستها الثانوية في أضنا، درست علوم الإدارة والاقتصاد في كلية الاقتصاد في جامعة البوسـفور – إستانبول.

أصدرت ثلاثة كتب أبحاث اقتصادية في مجال الصناعة الزراعية والنسيج وصناعة النبيذ، ونُشـرت لأهميتها بدعم من غرفة تجارة إستانبول بين الأعوام (2002 - 2003).

دخلت الحياة الأدبية بنشر القصص القصيرة في المجلات الأدبية الورقية والإلكترونية مثل «أرتيمو» و«الوجود» و«إيشيك جني».

تعمل حاليا في إدارة تحرير دار «ألِتْ كتاب» للنشر الإلكتروني.

أصدرت عـام 2007 مجموعتها القصصيـة الأولى «الموت نوم بلفظة واحدة».

وأصدرت عام 2008 مجموعتها القصصية الثانية «دعوتُ فقلتم صيفا».

وأصدرت عـــام 2013 مجموعتهـــا القصصيـــة الثالثة «الرجل المتثائب».

ونالـــت عـــام 2006 الجائزة الأولى لـــدار «ألْتْ كتاب» للنشـــر الإلكتروني عن قصتها القصيرة «ثلاثة فصوص».

ونالـــت عـــام 2009 جائزة ســـعيد فائق للقصـــة القصيرة عن مجموعتهـــا القصصية «دعوتم فقلتم صيفـــا»، والتي اختيرت منها قصتها ضمن هذه المجموعة القصصية.

حبة التين

بعد مضي عدة أشـــهر، أنا في البيت حيث ولدت وترعرعت، هذا المنظر الذي كنت أشاهده لسنوات مضت، أراه اليوم بطريقة مختلفة، الشمس تلقي شظايا نارية على سطح الماء، وعلى نوافذ أبنية «غوموش ســـويو»، الضفة المقابلـــة.. الطرف الآخر، «برج البنـــت» يبدو وكأنه انبثق من الأســـاطير، الأميرة ســـيئة الطالع لدغتها أفعى انســـلت من ســـلة مليئـــة بالتين.. حتـــى النوارس المحلقة في الســـماء، تطير وتحط على أســـطح المنازل بســـكون غير اعتيادي، ربما التوقيت للمجيء إلى هنا، مازال مبكرا، أعلم جيدا أن اللقـــاء لن يكون مريحا أبدا عنـــد حضور الجميع بعد قليل، كنت أعرف ذلك منذ البداية، لحظات في حياة الإنســـان لا مفر منها، مواجهات.. كلا، لست مدينة بالاعتذار من أحد، إن كان هناك أحد يجب الاعتذار له، فهي أنا، ببساطة فأنا هنا، وما سأقوله أمامكم، ربما ستتشنج معدتي وأنا أواجهكم ببرود، وقد يتصدع رأسي وبعدئذ ببســـاطة.. سينتهي كل شيء، سأستيقظ

في الصباح في بيتي ثانية، وسيتابع كل شيء الاستمرار من حيث توقف، أدخن سيجارة بأناة، وأنا أدير ظهري لكم، ها هم قادمون، تستبدل ناريمان منفضة ســجائري بارتباك وتختفي، أمسك يد عاصم بهدوء، أصابعه غير راغبة، تتلامس أيدينا وتتباعد.

«أهلا بكم عزيزتي موغى».

أمي كحالها دائما متماســكة، شــعرها مصفف بإتقان، كأنها خرجت للتــو من عند الكوافير، ومكياجهــا متقن أيضا، ارتدت بنطال جينز كما تفعل دائما لتبدو شــابة، ارتدت قميصا أبيض أنيقا وحذاء أسود بكعب عال، أَقتربُ بارتباك، تواجهني بوجنتها.

«مرحبا ماما».

أُمسك عاصما من ذراعه برفق وأحاول دفعه إلى الأمام، كأن خرسانة قد صُبّت على قدميه! دفعته بصعوبة:

«عاصم، زوجي».

«هلّا جلستم؟».

أبــي يتمتم، ليس ذلك بكلام، هو ارتــدى بنطال جينز أيضا، «يريــدون أن يكســروا عيني»، فهمنا أنكم ما زلتم شــبابا! جعل قميصه ذا المربعات خارج البنطال، ســيجار بين أصابعه، تعاجله ناريمان بمنفضة ســجائر حيث يجلس، أسند ظهره ووضع ساقا على ساق، كان يسعى للقول لا تنظري إلى مظهري الشاب، إنني رأس هذا البيت، ليتهم يتحدثــون بصراحة، حتى نرتاح جميعا، آه يا أبي، أضبط نفســي بصعوبة كي لا أعانقك وأقبلك، لكنني عاتبة عليك، لقد تماديت كثيرا هذه المرة.

«مرحبا بك يا موغى، أهلا وسهلا بكم».

براق، مثل حاله دائما، غير مبال، يقترب ويصافح عاصما، في

أعماق عينيه ابتسامة خبيثة، لا يسمح بتجاوزه من قلب الأحداث، رغم ذلك، فجليّ أنه نأى بنفسه بلباقة، يتمدد على الأريكة المواجهة للتلفاز، يمد يده نحو «الموجّه» ويشغّل التلفاز غير مبال بنظرات أمه، يجد فيلما وثائقيا، فيشرع بالمتابعة، عُثر في أفريقيا على أحافير لكائن حي نصفه لإنسان والنصف الآخر لقرد، ربما نصفه الأعلى لقرد ونصفه الأسفل لإنسان، أو ربما العكس، أسمع بشكل غير مترابط، يُعتقد أنه لطفل في الثالثة من عمره، يتابع بكل جوانحه، ويصدر أصواتا تعبر عن الدهشة، كأن شيئا لم يحدث، كأن كل شيء كالمعتاد، وكأننا نقوم بزيارة عائلية اعتيادية، يبدو أن نظرية التطور تثير اهتمامه أكثر من المسائل العائلية، لا لوم عليه، ليته ينتهي بأسرع ما يمكن! ليتنا ننفضّ لشؤوننا الخاصة.

«أهلا وسهلا يا عزيزتي موغى، أهلا وسهلا بكم يا سيدي».

تدخل جدتي من أبي الصالون، يتلملم أبي، يتراجع عن وضع ساق على ساق ويعتدل في جلسته، فلتعش جدتي! تقترب نحوي وتمد يدها، يجب عليّ تقبيل يدها، تبدو ندرت هانم مصممة على أن تُظهر من نكون لعاصم، وضعت على كتفيها شالا من الكشمير، وغطت ساقيها المصابتين بالروماتيزم بجوارب حريرية، هذه المسرحية يجب أن تنتهي، كما فكرتُ فهي الوحيدة القادرة على الوقوف إلى جانبي، أقبّل يدها، يغرز خاتمها ذو الماسة الهولندية الكبيرة الذي في إصبعها في ذقني ثم في جبيني، لا وسيلة أخرى لأعرّف عاصم من نكون!

«عاصم، جدتي ندرت هانم».

«كيف حالكم يا سيدتي؟».

ينحني عاصم قليلا ويقبّل يدها برفق، بريك يا عاصم

لا تضع يدها على رأسك، تصرف بلباقة! لا يفعل، تبتسم جدتي، تلك ابتسـامة غزلية، أمر لا يصدق، أخجـل من زوجي، أعرف رأيـه بما يتعلـق بقصور الباشـوات، مظاهر الحيـاة المبهرجة، والمتظاهرين بالأرسـتقراطية، لكنه يبدو ممتنا من وجود مُساند ذي سلطة، كانت ناريمان تنتظر تشريف جدتي، يبدو واضحا من استخدامها كؤوس الليكور الكريستالية الملونة والصينية الفضية، ليكور التين، إلى جانبه لوز أخضر بالثلج، ضيافة بيتـنا التـي لا تتغير، في الحقيقة، أدركت في لحظة، كم أحن إلى ذلك.

فقـد بـراق اهتمامه بالقـرود، يتأمل عاصما بـلا اكتراث، أخشـى تأخر إعطائي الفرصة لأقول مـا جئت من أجله، ما إن تبـدأ بالقول «بُنية عظامكم مثيرة جـدا، كأنها تحمل خصائص سـلافية، وبخاصة عظام الجبهة والأنف..»، مرحى لمن يستطيع إسكاتها، كأن أمي أدركت فتأخذ المبادرة.

«قالت موغى إنك طبيب».

جدتي وبوراك يندفعان بالقول معا:

«جيناكولوغ».

«نسائية».

«أجل، مختص بالنسائية والتوليد».

يتحرك عاصم بانزعاج، يبدو أن أبي كان ينتظر هذه اللحظة، بل أُقسم إنه قد أعد كلامه سابقا،

«لا شك أنك اختصاصي في مجال الفتيات الشابات أيضا».

أنـت البادئ يا أبي، لقد كشـفت موقفك بوضوح! أشـكرك، أتحرر من حذري.

«بابا صورتكم في الجريدة بدت جذابة وجميلة جدا».

يحمـــر وجهه، حتى ذلــك فقليل، ليته يعلم كم ســبّب لي من حزن، أريد نســيان ذلك اليوم، كنا علـــى مائدة الإفطار، عاصم يقـــرأ الصحيفة وأنا أقرأ ملحق الســبت، ألاحظ بعد قليل عدم تناوله أي شـــيء، حتى إنه لم يلمس كوب الشاي فأسأله عمّ ألم به، وجهه شاحب، يحتار أين يخبئ الصحيفة، في النهاية، وتحت إصراري الشديد، يمدها..

«رجل الأعمال عثمان ســـاران يعلن موت ابنته موغى ســـاران بســـبب زواجها دون إذنه من الدكتور عاصم تزجان الذي يكبرها بخمس وعشـــرين ســـنة، ويقيم مولـــدا على روحهـــا في جامع تشفيكية، تمت المراسم بحضور الأصدقاء والأقرباء، شخصيات مشـــهورة في المجتمع والعمل والجيران، بعد انتهاء المراسم عقد الأب المفجـــوع مؤتمـــرا صحافيا، وصرح: «بـــل إن الدكتور أكبر مني ســـنا، يجـــب ألا يتوقع مني قبول ذلك، لـــم تعد ابنتي، هذا المولد يندب فجيعة أب مكلوم»، أثار عثمان ساران الانتباه بشبكه لقرنفلـــة حمراء وصـــورة لابنته على ياقة جاكيتـــه، كما أن عدم مشـــاركة جولين ســـاران أم البنت الشـــابة في المراسم، أثار بين الحضور تناقل الإشـــاعات، بعد انتهـــاء المولد وُزّع على الحضور علب تين مجفف بدلا من الملبسّ على لوز.

الجميع، قرأ ذلك! هذا أول ما فكرت به، آه! لو تنشـــق الأرض وتبتلعنـــي، لو أفنى، لـــو أصبح هباء واختلط بهـــواء المدينة.. كلما أتذكر ما نُشر في الجريدة، ينكأ الجرح الذي في داخلي من جديد.

اليرقة تتحرك بحرية، وحش تصفية الحســـاب ينتظر كلماتي بتلهف، كي يخرج من القمقم وينطلق.

«توزيعكم التين المجفف على الحضور فيه ذوق رفيع، ووضعكم

صورتـــي التي تصورتهـــا لامتحانات دخول المعهـــد على ياقتكم، سامحكم الله! ألم تجدوا صورة لي أحدث منها؟».

الاحمــرار الذي بدأ من أذنيه غطـــى منذ فترة كامل وجهه، وينتشـــر ســـريعًا حتى عنقه، وتضع قرنفلة علـــى ياقتك، غير معقول، ألـــم تفكر يا أبي كيف لي أن أتطلـــع بوجوه صديقاتي وماذا سيكون موقفي أمامهن؟ وصوّرتَ عاصم كمنحرف؟ يجب أن تفرح بأنه ناضج كفايـــة حتى جاء إلى بيتك، إذن ذلك يعني أن الأصهرة المسنين يحملون ميزة حسنة، يضحك براق، عندما يصبح أبي على وشـــك نفث كل حنقه تستدير أمي نحوه وتهرع للنجدة.

«سيد عاصم، عثمان شـــديد الولع بموغى، لقد مر بصدمة، رجـــاء لا تعتبروا ذلك موجها لشـــخصكم، تعلمون كم هي غلاوة البنت على الآباء».

واضح أن أمي توازن بين مهنة عاصم وتقدمه في السن، رغم احتفاظها بنبـــرة صوتها، لكنها في الحقيقة، تبدو خجلة، يطيب لي هوى الألقاب للمرة الأولى، تُغيِّر الحديث بلباقة.

«تقيمون في نيشانتاشي، أليس كذلك؟».

«أجل يا أمي، نقيم في بيت عاصم، وجدنا أن لا معنى لتغيير نظام قائم».

يتلملـــم أبي، يقـــدم ســـيجارا لعاصم، لا يدخـــن، ولا يدخن الســـجائر أيضا، شعاره: انتبه لصحتك، كي تكون مطمئن البال. كمـــا انظروا أيضا، يبدو أنه أكثر شـــبابا منكم، الزمن لا يمضي متشـــابها مع الجميـــع، لكن لكل امرئ أنشـــوطته الخاصة، متى ســـتدركون ذلك؟ أبي يتحاشـــى النظر نحوي، أصبت بالندم، لو

قال ليتني ما فعلت ذلك، فأنا مســتعدة للنسيان، وكأنه ليس هو من أخزانا ومازال يستمر بتقريع زوجي.

«هل ستلتحق موغى بمدرستها؟ أظن أن لا مشكلة عندكم بما يخص دراســتها، بقي لها سنتان، كنت أفكر بإرسالها إلى فرنسا فور إكمالها لدراستها، إذا أردتم ما زلت..

جدتي لا تضيّع الفرصة.

«آه، كنــت حريصة جدا على دراســة عثمان، أكمل دراســته بتفوق، لم يســبب لنا غما أبدا، لو كان جده الباشــا حيا لشــعر بالفخر به، عائلتنا دائما هكذا، عائلتنا..».

«أقــدّر ذلك، إذا رغبــت موغى بإكمال دراســتها، فأنا أدعم قرارها ذلك».

عاصم يُســكت جدتي بلباقة، حســنا يفعل، إذا ما توغلت في شجرة العائلة فلن تصل إلى نهاية.

«سأكمل دراستي يا أبي، لكن انسوا فرنسا، هل ستكون سعيدا لــو تذهب أمي خارج البلاد للدراســة؟ أنا امرأة متزوجة، ولدي مسؤولياتي، عاصم لديه عمل يملأ جل وقته، وأنا من يتولى كافة الأمور».

لأول مــرة، يبدو حزينا جــدا، كأنه لو لمســناه لانهار بكاء، أبدو كأنني متّ في الحقيقة، يبدأ حنقي بالتلاشــي، بالنسبة لــي يزول من داخلي ويذهب، ســأتفهم الأمر عندما يصبح لي أطفال، ربما بعد ســنة، هل يا ترى سيستطيع عاصم الانتظار كل هذه المدة؟ سأتنقل وسط الصالون بحملي، أكثر سمنا حتى من جدتي، أرتدي ثوبا فضفاضا مكشكشا مثل ناريمان، بطني وســاقيّ تنتفخ وتتشقق، أذهب إلى الحمام للتقيؤ وأنا ممسكة

بوسطي..

«موغى!».

أعـــود إلى رشـــدي مع صـــوت أمي، وجهي أصفـــر على حد قولها، أشـــعر بتوعك، أريد العودة إلى البيت، أرتدي لباس النوم لأجلس في حضن عاصم، لأشـــرب الحليب الذي سخنه، ليروي لي أحداثا مضحكة حول مرضاه، أتوســـد صـــدره، ليربت على شعري، وأستغرق بالنوم، ما عاد بإمكاني التحمّل، ما بعد الظهر هذا، تمدد وتوســـع، حتى كأنه استغرق في طوله هذا كل حياتنا، وتحول إلى عمر لا نهاية له.

أبي وعاصم، يتحاوران بمواضيع شـــتى، يتحدثان في الأمور السياسية، براق يقول شيئا ما لجدتي بصوت خفيض، يضحك مغطيـــا فمه بيـــده، تذهب أمي إلى المطبخ، لعلها ســـتطلب من ناريمـــان إعداد القهوة، كم يشـــعرون بالراحة جميعهم، أشـــعر بالانقبـــاض والتوتر.. رحماك يا ربي! لا أحـــد يبالي، أريد أن أصرخ قائلة: وَيْحَكم انظروا، أنا أخطط لهذا اللقاء منذ أشهر، لحظـــة بلحظة، كلمة بكلمة، مـــا حدث لا يحل على هذا النحو، لا بهذه الســـرعة والبســـاطة، ولا بهذا القدر من الســـطحية، يســـأل أبي عاصما هل تحب البريدج؟ ســـأفقد عقلي، تصرف بجلافة يـــا عاصم، لقد أهانك أمام مرضـــاك، لا تنسَ! تظهر أمـــي وخلفها ناريمان تحمل صينية القهوة، تملأ ناريمان أقداح الليكور ابتداء من جدتي، يرن الهاتف المحمول لبراق، يخرج من الصالون ليتمكن من التحدث براحة، أحتسي جرعة من قهوتي وأشعل سيجارة.

«موغى، ستهرم بشرتك قبل الأوان يا صغيرتي، انظري حتى

زوجك لا يدخن».

تحت كل هذه الظروف تنتقد أمي سيجارتي، وكأنه لا يكفيني ما أعاني منه حتى تُظهر لي عاصما كمثال يحتذى، أسحب نفسا عميقا وأزم شفتي وأنفث الدخان، غمامة دخان صغيرة تحلق فوق طاولة الوسط، تنتشر في الفراغ وقد تباعدت ذراتها مثل أبابي البحر، يشعرني ذلك بالمتعة، ما إن تتلاشَ حتى أنفث أخرى، أمي تحاول أن تقول لا تفعلي بإشارات من حاجبها وعينها، تتدخل جدتي.

«كنتِ كذلك في طفولتك يا غولين، يجب ألا تقولي لا تفعلي، ستفعل ذلك عنادا، دعيها وشأنها، تشبه حماتي المرحومة عتيقة هانم، هي أيضا هكذا..».

أُطفئ سيجارتي وأنهض.

«هل أستطيع رؤية غرفتي؟».

أنجح أخيرا بجلب انتباه الجميع، أبي وزوجي يتوقفان عن حديثهما وينظران إليّ كأنني أردت شيئا غريبا جدا، لا أحد ينبس ببنت شفة، تنظر أمي نحو البحر، جدتي تعدّل شالها، تبدو عليهم الدهشة، لا أبالي، أريد الذهاب إلى غرفتي، منذ أشهر أراها في أحلامي، عندما أستيقظ في منتصف الليل وأدرك أنني في غرفة أخرى.. باب غرفتي مغلق، أفتحه بهدوء، قلبي يدق، دائما مثل رائحة الصنوبر و«ريفغوش»، لم يُلمس شيء البتة، أتمدد على سريري، كتبي، حاسوبي، صوري، كرتي، أدواتي الموسيقية، أقراصي المدمجة.. كل شيء في مكانه، ما عدا خزانة ثيابي قد أُفرغت، كم بكيت يوم أحضرت ناريمان ثيابي إلى البيت في «نيشانتاشي» وقد رتبتها بإتقان في حقيبة، قلت تعالي

اشـــربي قهوة، قالت «الســـائق أحضرني وينتظر في الأســـفل»، وذهبت مسرعة، عندما جاء عاصم كانت عيناي كجمر النار، باب غرفتي يُقرع، حسنا! لم ينسوا قواعدي، تدخل ناريمان مترددة.

«لا تبالي بهم يا بنتي، أصبح لك عش زوجية، اهتمي بتسـيير أمـور حياتك نحو الأحســن، ذلك أفضل لك، قــال الأجداد إذا تزوجــت الفتاة من شــاب في مقتبل العمر ســتعاني من أهوائه ونزواته، أما إذا تزوجت من رجل اعترك الحياة فســتعيش على عــرش في قلبه، أنا عمري كان بنصف عمر المرحوم، هل انعكس ذلك ســلبا؟ ضيق اليد حالة عامة، لكنه لم يؤذني أو يســئ إليّ أبــدا، على أية حال، ماذا تعني الحيــاة؟ قلب الأب حنون، وأنت أيضا ســايريه، ألا توافقيني؟ لا تبتعدي عنه على هذا النحو بعد الآن، الســيدة الوالدة أيضا حزنت كثيــرا، كلنا نعلم أنها مغرمة ببراق، لكنها لم تنقطع عن ذكرك قط، والدك أيضا ذكرك كثيرا، رغم أن عثمان بيه كان غاضبا جدا..».

«لتسلمي يا ناريمان، لا تحزني، سنتردد عليكم دائما من الآن فصاعدا، أمي تنادي، اذهبي أنت، سيقلقون الآن».

فكرت بمــا قالته ناريمان بعد أن بقيت وحدي، تقول: عشــتُ ســعيدة، مع أنني أعلم جيدا كــم كانت حياتها صعبة، زوجها رقد مريضا لسنوات عدة، زوّجت ابنتها، لكن صهرها يستعين بها منذ أن تعرفتُ عليهم، ابنها لم يتعلم، إذن السعادة الزوجية أمر نسبي، حسن، هل أنا سعيدة؟ كلما جالت هذه الفكرة في رأسي أطردها، عاصم يفعل كل ما بوسعه، يغرقني بالهدايا، نذهب أينما أشاء، لا حاجة لطلب الإذن، ولا مســاءلة، أنا حرة، نحجز في النوادي التي يرتادهــا أصدقائي للرقص والشــرب والأكل، نصادفهم من حين

لآخر، ونتحدث وقوفا، يتوقون للتعرف على عاصم، يندهشون منا ومن بيتنا، أشعر بأنني مختلفة ومهمة، أريد الاحتفاظ أمامهم بالهيبة التي اكتسبتها بتمردي على عائلتي، رغباتهم باللقاء أتلقاها بتثاقل، أصبحت الآن امرأة متزوجة، أحب هذه اللعبة، ظللت أحبها حتى جئنا إلى هنا، يشوشون تفكيري، عاصم يتقبل بأريحية تقلب أفكاري السريع وكل ما أفعل، أشعر بالضيق، أرغب النوم في غرفتي هذه الليلة، يُقرع الباب ثانية، تُطلّ ناريمان برأسها من الباب دون أن تدخل هذه المرة.

«غولين هانم قلقت يا موغى، يسألون هل مازالت في غرفتها، سيقومون للطعام، أعددت الطعام، ولأنك ستأتين، فقد أعددت المعجنات بالسبانخ منذ الصباح، إن كنتِ ترغبين شيئا آخر قولي لأعده في الحال».

«كلا يا ناريمان، لا أرغب بأي شيء، ماذا يفعل عاصم؟».

«الدكتور وأبوك يلعبان الشطرنج».

لا أرغب بالذهاب، كل ما أرغبه النوم، النوم بعمق، ثم أريد النهوض بعد النوم، أريد قهوتي بالحليب في غرفتي، أفتح حاسوبي، أدردش مع أصدقائي على النت، أعد برنامج اليوم، أقرر ما سوف أرتديه وأخرج سريعا من البيت، أدخل معترك الحياة، أعود موغى ثانية، أشعر براحة البال مع كل نفس أتنفسه.. أخلع حذائي وأدخل فراشي، أمد يدي تحت وسادتي، أبحث عن كيس الخزامى في تلك الطراوة، تلامس أصابعي، في مكانها المعتاد، أستنشق رائحة وسادتي، أشعر بتثاقل في رأسي، أفكاري تتراقص، أظن أنه لو نمت حتى موعد العشاء، فذلك لن يضير أحدا..

شبْنم إشيغوزال
ŞEBNEM İŞİGÜZEL
1973

ولــدت في يالوفا، أكملت تعليمها الثانوي في يالوفا، ثم أنهت عام 1995 دراستها بقسم علم الإنسان من جامعة إستانبول.

نشرت لها مجلة الزقاق عام 1990 سلسلة كاريكاتورية بعنوان «من نافذة امرأة»، ونشرت مجلة «الوجود» عام 1993 أول قصة لها بعنوان «عزيزتي السيدة أرفداه».

عملت بين الأعوام 1992 - 1994 مراسلة ومحررة ومراسلة فــي العديد من الصحف والمجلات ومحطات التلفزة، كما عملت كاتبة زاوية في صحيفتي «ميلليت» و«راديكال» ومجلة «الثور».

أعمالهــا في مجال القصة القصيرة: بدر سـيطلع على بيتك (1993)، من سيشرح قصتي (1994)، سيد قدري (2001).

وفـــي مجال الروايـــة: العنكبوت صديقي القـــديم (1996)، اللبلاب (2002)، المزبلة (2004)، استعراض احتفالي (2008)، ظلال أهدابي (2010).

جمعت عام 2000 مقالاتها التي نشرت في صحيفة راديكال فـــي كتاب بعنوان «بين النســـاء المرحات»، وصدر لها عام 2011 مجموعة قصصية للأطفال بعنوان «أمي والغربان وأنا».

تُرجمت روايتهـــا «العنكبوت صديقي القـــديم» إلى الكردية، وتُرجمت روايتها «اللبلاب» إلى الإيطالية والإسبانية، كما تُرجمت رواياتها «المزبلة» و«ظلال أهدابي» إلى الألمانية.

نالت عام 1993 جائزة يونس نادي للقصة القصيرة عن أول كتاب صدر لها بعنوان «بدر سيطلع على بيتك».

اختارت كلية التواصل في جامعة مرمرة مجموعتها القصصية «من سيروي حكايتي» كتاب العام 1995.

بدرٌ سيطلع على بيتك[7]

أرى السماء من حيث أنا مستلقية، السماء بلا نجوم، الطقس غائم غدا، ليس مؤكدا، أحيانا يكون هكذا في الليل وفي الصباح يكون النهار مشمسا، رائحة التراب تعبق، نسيت إغلاق النافذة، يأتـي أحدهم الآن ويسـأل على نحو روتيني: «هـل زال صداع رأسـك؟» لن أصـدر صوتا، سـيظنون أني نائمـة، حينئذ يغلق النافذة ويذهب.

يرفعون المائـدة، أصوات الأطباق والسـلطانيات والشُّـوَك والسـكاكين تقطّع أحشـائي، التلفزيون شـغّال رغم أن لا أحد يتابعـه، صوته يجلجل في الأرجاء، كأن كل الذين يعيشـون في البيـت صم، لا يخفضون صوته كـي لا يزعجوا جدتي، تخفض أختـي الكبرى صوته قليلا كي تنام ابنتهـا، الصغيرة تصيح من حيث تنام:

«ارفعوا صوته، أنام وأنا أستمع إليه».

علـى أي حال، الأطفال يحبون الاندسـاس في ركن ما للنوم وسط تجمع الأهل وصخبهم، أنا كنت أحب النوم فوق الطاولات

(7) مصطلح عند قراءة الفنجان بقدوم مولود بنت والشمس تعني مولودا صبيا (المترجم).

في حفلات الأفراح، كنت أشعر برغبة بالنوم بينما جميع الأطفال يجمعون أغطيـة الكازوز والقصبات بحماس، كان صوت الفرقة الموسـيقية والحضور يتحوّل إلى طنين، كانت أمي تطوي سترتها وتضعها تحت رأسـي كوسـادة، أصعب ما في الأمـر، إيقاظي واضطراري للسير حتى البيت.

في أحد المرات قاومت كثيرا كي لا أنهض، أمسـكتني أمي من كتفـي وهزتني، أبي أيضا صفعني برقة، كـم كان عمري في ذلك الوقت؟ هل ست سنوات.. أم خمس؟.. ألبستني أمي سترتي بعصبية وضجر، في ذلك الوقت كان أسفل عينيها متوذّما. في الواقع، لقد اضطرت ذلك الشتاء، لاسـتئصال إحدى كليتيها، تجاعيد عميقة بدأت تخطّ على جبينها حديثا، في تلك الساعة، أحمر الشفاه كان قد زال منذ فترة، وتحول لون شفتيها إلى بياض يميل إلى الوردي، أما التموجات النضرة لشعرها فقد هدُلت منذ وقت.

عنـد الذهاب إلـى حفلات الأفـراح، كانت ترتدي فسـتانا بنفسجيا فاتحا بياقة تكشف صدرها، أطراف فستانها تغضنت من طول الجلوس، أما أزرار فستانها الصدفية، فأنا وحدي كنت من يميز ما يموج في داخلها من ألوان متعددة.

حدث مـا فكرت بـه، طفلتنـا الصغيرة تطلـب رفع صوت التلفزيـون، جـاء أحد ما، لا بد أنه أخي، يكتب مع الشـيوعيين شعارات على الجدران، في اليوم الفائت أشار إلى شعارات على جدار المدرسة، «الموت للفاشيين»، هو من كتب ذلك.

«ما معنى فاشي؟» سألت.

«لن تفهمي حتى لو شرحت لكِ»، قال.

ثم شعر بالندم لرده على هذا النحو.

شرع يشـــرح بكلام من كتب يقرؤها، نظرت ثانية إلى الكتابة بتساؤل.

«كتبتها على عجل»، قلت.

«قد يأتي المأفونون فنشتبك معهم».

«هل الفاشيون مأفونون؟».

«مجرد شتيمة».

أبي يشـــتم، لا بـــد أن الطلاء لم يزل عن يديـــه تماما، أدرك كتابة أخي لشـــعارات مع الشـــيوعيين، يقول كلاما بذيئا: «وأنت أيضا كالحمار تتابع التلفزيون ثم تذهب إلى غرفتك وتســـتمني، ماذا ســـتغيرون؟» يحقّره. أبي يقـــول كلاما من هذا القبيل، لكنه لا يتابع التلفاز، الله يعلم أنه لا يســـتمني، جدتي تحاول التدخل لتهدئة النقاش، أمـــا أختي الكبرى فتصرخ بأعلى ما عندها من صوت، تنتاب أمي نوبة ألم كلى بعد قليل، تتلوى وتتشـــنّج، تتمدد على ظهرها فوق الأريكة الصلبة في الصالون، ربما تبكي أيضا.. هل دموعهـــا التي لا تتوقف عن الانهمار هـــي من ألمها، أم على أبنائها الأشقياء؟

كان يليق بأمها حياة أخرى:

وجب أن تقلّب كتابا قيّما كتب بخط اليد، بيدها ذات الأصابع الطويلة الرقيقة، بائع الأنتيكا لا يستطيع مقاومة رائحة عطرها الثمين الجذاب.

«إلـــى أي قرن يعود هذا الكتـــاب؟» لا بد أنها أدركت ما يعنيه من سؤاله للمرة الثانية.

عند اســـتيقاظها لا بـــد أن تجد عند طرف رأســـها ما تركه حبيبها من بيتَي شـــعرٍ، تفرج ما بين أهدابها الطويلة، ومن خلال

غشاوة لا بد أن تقرأ بأناة الشعر المكتوب الذي كُتب بقلم حبر أسود برأس مدبب، لا بد أن تتبسم، لا بد أن ترى ابتسامتها على إناء السكر الفضي على صينية الإفطار التي أُحضرت إلى سريرها، «كم أنا سعيدة»، لا بد أن يجول في خاطرها، لا بد أن تفكر على الفور: «متى كنت تعيسة آخر مرة؟».

لا بد أن محاولتها التذكّر ستأخذ وقتا ليس بالقليل، يوم انفرط عقدها اللؤلؤ وتناثرت حباته في الأرجاء.. كلا، انفراط عقدها اللؤلؤ لم يجعلها تعيسة، بل حزنت لعدم رغبتها الانحناء على الأرض وجمع حبات اللؤلؤ وسط هذه الزحمة.

يُسمع وقع أقدام أمي، لا بد أن آلامها قد توقفت إذن، ثم تقول يجب تغطية طفلة أختي الكبرى، أختي الكبرى على الهاتف ثانية، هذه المكالمة كمثيلاتها ستستمر طويلا وستشرح بلا كلل تعاسة زواجها، لا تستطيع إلا أن تشي عن أخيها الصغير الشيوعي ومدى حزنها لذلك، تهز ساقها اليسرى الآن بلا توقف وهي تتحدث، تحاول أمي جلب انتباهها بإشارات من حاجبها كي تنهي مكالمتها.

الجدة، لا تكف عن قص مخالب الشيطان (عرق الملح)، ما أقبحه من مصطلح، عندما كنت صغيرة، أنا أيضا كنت أعاني من مخالب الشيطان.

أغلقوا التلفزيون، ستنزعج جدتي بعد قليل، من حالة الهدوء، تطلب منهم فتح الراديو، عند سماعها أغانيها المحببة تشرع بالدندنة أيضا.

بلباسها الأرجواني الباهت، تدير ذراع الجرامافون بعلامته التجارية «صوت سيده»، بنات البيت الثلاثة وصديقاتهن يحاولن

تعلـم التانجو، أحذيتهـن جديدة، لونها أحمــر خمري، كم تبدو أنيقة فوق السجادة المحاكة يدويا بألوان مبهرة، قلّمن حواجبهن حتى لا تكاد تظهر من شــدة دقتها، كما طلين شــفاههن قليلا، تغمض عينيها من حين لآخر وهي تتمتم بكلمات التانجو.. أمها، أو بالأصح أبوها، لا يسمح لها بقص شعرها، في حين، كم تودّ لو يكون شعرها قصيرا جدا، فجأة تلاحظ مخالب الشيطان، تترك التانجو، وتذهب لقص مخالب الشيطان.

هرمت الجدة كثيرا، بعد قليل ســتبدأ بالتحدث عن بداياتها بتعلم التانجو في سنوات شبابها.

التقطت أمي صرصورا ثانية، مخبز قريب إلى جوارنا، لذلك كان البيت يعج بالصراصير، ألقت الصرصور الذي أمســكت به في المرحاض ثانية، ســحبت الســيفون، غضب أبي فقال: «هل يهدر هذا القدر من المياه من أجل حشرة؟».

ثم أصبحت أنا تلك الحشرة:

يد إنســان ضخم قبضت على جسمي، سقطت في حفرة ماء عميقة، كنت أعلم بعدم استطاعتي الخروج منها، هل الماء خطير إلى هذا القدر؟ درت آلاف المرات، تلك الحركة كانت ستدوم إلى ما لا نهاية.

استسلمت، الحركة تستمر، يجب أن أصيح، ها قد دخل أحد ما إلى غرفتي، يسأل ما يجب أن يُسأل، الحركة تستمر، انحبس صوتي، يغلق النافذة بهدوء، حينئذ ما عدت أشم رائحة التراب، أحد ذراعي يتدلى من الســرير، أرفع ذراعي وأضمه إلى جانب جســدي، لقد استســلمتُ يا أمي، تقبلينني من وجنتي وتربتين على شــعري، ربما لم يبرد جسمي بعد، لكنني ما عدت أستطيع

التنفس، ألا ترين؟ أمي، ماذا حصل للوذمات أسفل عينيك؟ وخطوط التجاعيد العميقة على جبينك؟ هل سنذهب إلى حفل زفاف ثانية؟ كلا، يبدو أنكم عائدون من حفل زفاف، أطراف فستانك متغضنة، هل كان لون هذا الفستان أرجوانيا؟ أم كان أخضر فستقيا؟ لماذا فككت أزراره الصدفية؟ انحلّت تموجات شعرك النضرة، لكن أحمر شفاهك مازال ظاهرا على شفتيك.

أمي، أقول إني أستسلم، لا تسمعني..

علبة طلاء وفرشاة يحمل في يده.

«في غرفة أبي» يقول ضاحكا؛ لا يستطيع الكلام من الضحك.

«كتبت شعارات على جدرانه، ما كتبته: (الموت للفاشيين، قريبٌ تحرُّرُنا)، كتبت ذلك بطلاء أحمر قان على الحيطان».

مازال يضحك، ضيّق عينيه، يتلوى قليلا، «ثم أخرجت سكينا»، يقول، «يجب ذبح الكلاب الفاشيين أمثالك قلت، خاف، أسندت جسمه البدين على الحائط، فتحت فتحة بنطاله وصحت به: استمنِ، وضعت السكين على كرشه، استمنى أمام عيني، عندما شرعت بالضحك توقف لحظة، ضغطت كرشه بالسكين ثانية، واصل».

يخرج من الغرفة ضاحكا، وبينما كان يصعد الدرج كانت قهقهاته مازالت تصل إلى مسامعي،

تدخل الجدة الغرفة وبيدها فنجان، لم تغلق سحاب ثيابها الأرجوانية الباهتة، تضع فنجان قهوة على نية قراءة الفأل فوق البوفيه ذات المرآة.

«أين المقص؟»، تقول على عجل.

تسحب الجوارير بسرعة وتغلقها، في النهاية، تجد المقص،

تقص قصيرا شعرها الأبيض الطويل دفعة واحدة، ثم تأخذ فرشاة شعرها وتمشطه بعناية.

«كم أصبحت جميلة»، تقول، «لماذا لم يسمحوا لي منذ زمن بقص شعري، أولا أبي، ثم زوجي، ثم ابني أيضا، انظري كم أصبحت جميلة، انظري كم أصبحت جميلة».

ترقص الآن وحدها، ثم فجأة تضم يديها جنبا إلى جنب وتمدهما نحوي.

«انظري، لقد قصصت كل مخالب الشيطان».

تتذكر فنجان القهوة الذي وضعته فوق البوفيه:

«نويت هذا الفأل لأجلك»، تقول «قاع الفنجان أبيض ناصع، بدر سيطلع على بيتك».

ثم تذهب مسرعة إلى جوار النافذة، تحدق ثانية في الفنجان في الضوء الشاحب المتسلل إلى الداخل، تقول: «لا تفل قهوة أبدا».

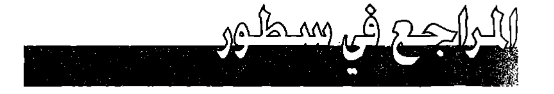
تحوّل عينيها نحوي بذعر: «يبدو أنكِ متِّ».

أرى السماء من حيث أنا مستلقية، السماء بلا نجوم، الطقس غائم غدا..



صفوان عمر فائق الشلبي

- مواليد الأردن 1950
- حاصل على بكالوريس في الهندسة الميكانيكية من إسطنبول / تركيا
- حاصل على الدبلوم العالي في الهندسة الصحية من فرنسا
- له عدد من البحوث والترجمات باللغتين التركية والفرنسية
- صدر له: لا وجود لما يدعى بالغد (مختارات قصصية من الأدب التركي) 2013.
- كما صدر له: رجل عديم الجدوى (مختارات قصصية لرائد القصة القصيرة التركية سعيد فائق) 2011.



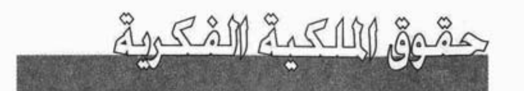
محمد حقي صوتشين

- مواليد تركيا
- حاصل على شهادة ماجستير في اللغة العربية وآدابها من جامعة أنقرة / تركيا في عام 1998
- حاصل على شهادة الدكتوراه في عام 2004
- ترأس اللجنة التي أعدت مناهج اللغة العربية في المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية في تركيا
- يشرف على إدارة ورشات الترجمة الأدبية بين اللغتين العربية والتركية
- من أعماله المنشورة:

ترجمة الأخبار بين اللغتين العربية والتركية، 2014

قواعد اللغة التركية للعرب، 2003

سماء باسمي للشاعر أحمد الشهاوي (ترجمة إلى التركية)، 2014



حقوق الملكية الفكرية

عنوان القصة	اسم الكاتبة	علامة حقوق النشر
عودة	سعاد درويش	Copyright ©Suat DERVİŞ The SAID WORK is protected by the This book is International Copyright convention. published with the arrangements of ONK Agency, Istanbul, Turkey, 2014
الهاربة	بريدة جلال	©Peride Celal
الأمل خبز الفقير	نزيهة مريتش	@ Nezihe Meriç @ Yapı Kredi Kultur Sanat Yayıncılık Ticaret ve Sanayi AŞ All rights reserved
التوتر العالي	عدالت آغا أوغلو	Copyright © 1974 Adalet Ağaoğlu The SAID WORK is protected by the International Copyright convention This book is published with the arrangements of ONK Agency, Istanbul, Turkey, 2014
الريفية	فوروزان	@ Füruzan @ Yapı Kredi Kultur Sanat Yayıncılık Ticaret ve Sanayi AŞ All rights reserved
القمر والماء	آيلا كوتلو	Bilgi Yayınevi, 1990 ©
الوداع أليوشا	أويا بايدار	© Oya Baydar / KALEM Agency
الغزلان وأمي وألمانيا	نورسل دوروال	© Nursel Duruel, Can Sanat Yayınları Ltd. Şti, 2006
هفوات صغيرة	تومريس أويار	@ Tomris Uyar @ Yapı Kredi Kultur Sanat Yayıncılık Ticaret ve Sanayi AŞ All rights reserved
إبراهيم الميكانيكي ونزله ذو الحديقة	تزر أوزلو	@ Tezer Özlü @ Yapı Kredi Kultur Sanat Yayıncılık Ticaret ve Sanayi AŞ All rights reserved
مسافر لرحلة قصيرة	بينار كور	©1983, Pınar Kür
راقصة باليه سابقة	فايزة هبتشيلينغيرلر	©1985, Feyza Hepçilingirler
دعوى ضد مشع التدفئة	فريدة أوغلو	© Feride Çiçekoğlu, 1991
يقتلون الأحصنة أيضاً	عائشة ساريساين	© Ayşe Sarısayın, Can Yayınları Ltd. Şti, 2004

ما صدر من هذه السلسلة

314	حياة إنسان	تأليف : ليونيد أندرييف
315	دون كيشوت	تأليف : ميخائيل بولجاكوف
316	واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق	تأليف : كنيث ياسودا
317	ملحمة علي الكاشاني	تأليف : خلدون طائر
318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار - الجرة المكسورة	تأليف : جونتر جراس
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : هاينرش فون كلايست
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : أندريه شديد
335	زهرة الصيف	تأليف : فلاديمير هلباتش
336	طام - طام زنجي	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
337	البيروح	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
338	منزل النور	تأليف : نيكولو ماكيافللي
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : جوهر مراد
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف : تشنوا أشيبي
341	غرام ميتيا	تأليف: أرتور شنيتسلر
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: إيفان بونين
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: فيمي أوسوفيسان
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: تنغ - هسنغ يي
345	رسائل عيد الميلاد	تأليف: إيريش كستنر - تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك	تأليف: سليمان جيفو ديوب

ما صدر من هذه السلسلة

ما صدر من هذه السلسلة

368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان
369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجى شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي
386	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: آرافيند آديغا
387	موطن الألم (رواية)	تأليف: دوبرافكا أوجاريسك
388	فيلا أماليا (رواية)	تأليف: باسكال كينيارد
389	الإحساس بالنهاية (رواية)	تأليف: جوليان بارنز
390	ياسمينة (وقصص أخرى)	تأليف: إيزابيل إبرهاردت
391	المغامرة الغامضة (رواية)	تأليف: شيخ حامد كَان
392	الرجال الذين يحادثونني (رواية)	تأليف: أناندا ديفي
393	أنطولوجيا القصّة الإيرانية الحديثة	تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين
394	حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال	تأليف: أمادو همباطي با
395	خرائط (رواية)	تأليف: نور الدين فرح

ما صدر من هذه السلسلة



قسيمة الاشتراك

البيان	إبداعات عالمية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	٢٠	–	١٢	–	١٢	–	٢٥	–
الأفراد داخل الكويت	١٠	–	٦	–	٦	–	١٥	–
المؤسسات في دول الخليج العربي	٢٤	–	١٦	–	١٦	–	٣٠	–
الأفراد في دول الخليج العربي	١٢	–	٨	–	٨	–	١٧	–
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	–	٥٠	–	٣٠	–	٢٠	–	٥٠
الأفراد في الدول العربية الأخرى	–	٢٥	–	١٥	–	١٠	–	٢٥
المؤسسات خارج الوطن العربي	–	١٠٠	–	٥٠	–	٤٠	–	١٠٠
الأفراد خارج الوطن العربي	–	٥٠	–	٢٥	–	٢٠	–	٥٠

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك

الاسم:	
العنوان:	
اسم المطبوعة:	**مدة الاشتراك:**
المبلغ المرسل:	**نقداً/ شيك رقم:**
التوقيع:	**التاريخ: / / ٢٠٠م**

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

أسماء وكلاء التوزيع

الدولة	وكيل التوزيع الحالي	العنوان	تليفون	فاكس
الكويت	المجموعة الإعلامية العالمية	الشويخ – الحرة – قسيمة 34 – الكويت – الشويخ – ص ب 64185 – الرمز البريدي 70452	24826820/1/2 24613872 /3	24826823
الإمارات	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	Emirates Printing, Publishing & Distribution Company Dubi Media City/ Dubai UAE P.O Box: 60499	+971 242629273	+971 42660337
السعودية	الشركة السعودية للتوزيع	المملكة العربية السعودية – الرياض – حي المؤتمرات – طريق مكة المكرمة – ص ب 62116، الرمز البريدي 11585	+966 (01) 2128000	+966 (01) 2121766
سورية	المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات	سورية – دمشق – البرانكة	+963 112127797	+963 112128664
مصر	مؤسسة دار أخبار اليوم	جمهورية مصر العربية – القاهرة – 6 شارع الصحافة – ص ب 372	+202 25782700-25782632	+202 25782632
المغرب	الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر	المغرب – الرباط – ص ب 13683 – زنقه سجلماسه – بلفدير – ص ب 13008	+212 522249200	+ 212 522249214
تونس	الشركة التونسية للصحافة	تونس – ص ب 719 – 3 نهج المغرب – تونس 1000	+216 71322499	+216 71323004
لبنان	مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع	لبنان – بيروت – خندق الغميق – شارع سعد – بناية فواز	+961 1666314/5 01 653259	+ 961 1653260
اليمن	القائد للنشر والتوزيع	الجمهورية اليمنية – صنعاء	+967 2/3201901	+ 967 1240883
الأردن	وكالة التوزيع الأردنية	عمان – تلال العلي – بجانب مؤسسة الضمان الاجتماعي	+962 65300170 - 65358855	+ 962 65337733
البحرين	مؤسسة الأيام للنشر	-----	+973 17 617733	-----
سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	ص ب 473 – مسقط – الرمز البريدي 130 – العذيبة – سلطنة عُمان	+968 24492936	+24493200968
قطر	دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع	قطر – الدوحة – ص ب 3488	+974 4557809/10/11	+ 974 44557819
فلسطين	شركة رام الله للنشر والتوزيع	رام الله – عين مصباح – ص ب 1314	+970 22980800	+ 970 22964133
السودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	السودان – الخرطوم – الرياض – ش المشتل – العقار رقم 52 – مربع 11	+2491 83242702	+ 2491 83242703
الجزائر	شركة بوقادوم للنقل وتوزيع الصحافة	Cite des preres FARAD.lot N09. Constantine. Algeria	+213 (0) 31909590	+ 213 (0) 31909328
العراق	شركة الظلال للنشر والتوزيع	-----	+964700776512 780662019 +964	-----
نيويورك	Media Marketing	Long Island City, NY 11101 – 3258	+ 1718 4725488	+1718 4725493
لندن	Universal Press	Universal Press & Marketing Limitd	+ 44 2087499828 + 44208 7423344	+44208 7493904
ليبيا	شركة الناشر الليبي	-----	+218 217297779	-----


المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب

تأليف مجموعة من الكاتبات التركيات:

سعاد درويش
بريدة جلال
نزيهة مِريتش
عدالت آغا أوغلو
فوروزان
سيفغي سويسال
آيلا كوتلو
أويا بايدار
نورسِل دوروإل
تومريس أويار
عائشة كولين
تَزَر أوزلو
بينار كور
نازلي إيراي
فِيُزا هيبتشيلينغيرلر
فريدة تُشيتُشِك أوغلو
عائشة ساريساين
نالان بارباروس أوغلو
أصلي إردوغان
فريال تِلماتش
شِبْنِم إشيغوزال

إبداعات نسائية

تقدم سلسلة إبداعات عالمية في هذا العدد مختارات قصصية لمبدعات تركيات مع تعريف موجز يتضمن النشاط الأدبي والاجتماعي لكل كاتبة.

إن تخصيص هذا العدد للكاتبات فقط ليس من باب التصنيف الجنسي، بل للتأكيد على أن موهبة الكتابة ليست حكراً على الرجل وأن هذه الموهبة لا تعرف التمييز بين الرجل والمرأة. فالأدب خلاصة تجربة إنسانية لا تخص الذكر دون الأنثى ولا الأنثى دون الذكر.

تندرج كاتبات هذه المجموعة القصصية ضمن رواد الحركة الأدبية المحدثة تحت تأثير الحضارة الغربية خلال العصر الجمهوري: أكثر مراحل الأدب التركي أهمية، والتي هي ردة فعل ضد سطحية الأدباء القوميين والبعيدين عن الواقعية خلال المراحل الأدبية السابقة. وتمثل قصصهن إطلالة على واقع المجتمع التركي المعاصر، باعتبار أن القصة ديوان للحياة ونبضها. وبعد أن أصبحت المرأة شريكة للرجل وفاعلة في كل المجالات، فقد استطاعت إثبات نفسها في الوسط الأدبي أيضاً بهويتها الخاصة. كما شاركته بالحديث عن تأثير العملية السياسية على شخصية الفرد وصراعه الداخلي والنفسي وعن مشكلات المرأة بشكل عام والعاملة بشكل خاص، وعن التأثيرات النفسية على الطفل من خلال التحول الاجتماعي، بل وصلت إلى مستوى تفوقت فيه على الكاتب الرجل، وذلك بفضل مساهمتها الكبيرة في سبر أغوار ما كان للرجل أن يكتشفها، فنالت جوائز أدبية مرموقة محلية وعالمية.



ISBN: 978-99906-0-464-1
رقم الإيداع: 2015/764